كتاب التوحيد
الذي هو حق الله على العبيد

تأليف الإمام المجدد
محمد بن عبد الوهاب النجدي
ومعه شرحه المسمى

تحفة الطالب المستزيد
بشرح كتاب التوحيد

حققه وشرحه
أبو عبد العزيز
تركي بن مسفر بن هادي العبديني

مقدمة الشرح

الحمد لله الذي رضي الإسلام للمؤمنين دينًا، ونصب الأدلة على صحته وبينها تبيينًا، وغرس التوحيد في قلوبهم، فأثمرت بإخلاصه فنونًا، وأعانهم على طاعته هداية منه، وكفى بربك هاديًا ومعينًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فهذا شرح لكتاب التوحيد الذي ألفه الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب النجدي، وافٍ -إن شاء الله تعالى- بالتنبيه على بعض ما تضمنه من بيان أنواع التوحيد، محررًا لمقاصده وعباراته، ومناسبات أبوابه، وآياته، وأحاديثه، شارحًا لكل ذلك، منبهًا لما يحتاج إليه من تخريج أحاديثه وآثاره.

وهو في الأصل: الدر النضيد على أبواب التوحيد للشيخ سليمان بن عبد الله الحمدان الذي يعتبر تلخيصًا لكتاب "تيسير العزيز الحميد" للشيخ: سليمان بن الشيخ عبد الله بن الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله-.

مع إضافات له من فتح المجيد، وقرة عيون الموحدين للشيخ عبد الرحمن بن حسن ابن محمد بن عبد الوهاب، وهو حفيد ثان للشيخ المجدد المصنف لكتاب التوحيد.

فاعتمدت أولًا: الدر النضيد مع حذف ما رأيت حذفه منه.

ثم زدت زيادات مما ليس في الدر النضيد من التيسير والفتح والقرة، وصدرته غالبًا بقولي: قال في التيسير، قال في فتح المجيد، قال في قرة عيون الموحدين... في حين نقولات صاحب الدر النضيد في ختام نقل القول.

فيقول قاله في الشرح ويعني به التيسير، أو يقول قاله في فتح المجيد، ونحوه وكله في ختام النقل، وهذا مما يميز زياداتي على أصله. وهكذا فعلت في كل زياداتي فصدرتها بقول قائلها غالبًا كقولي قال ابن قاسم، وقال العثيمين، وقال الفوزان... وهكذا إلا في مواضع استفدتها عنهم من كتب نقلت عنهم، وخاصة غاية المريد فلا أبين النقل عمن هو.

والعزم – إن شاء الله– هو الاستيفاء مع الاختصار لجميع الزيادات في هذا الشروحات، لكن لعله لا يكون إلا في طبعات قادمة إن تيسر ذلك خاصة مع تدريسه لطلابنا، وسميت هذا الجمع:

"تحفة الطالب المستزيد لشرح كتاب التوحيد".

والله أسأل أن ينفع به، كما نفع بأصله، والله من وراء القصد.

وكتبه/أبو عبد العزيز
تركي بن مسفر بن هادي بن مجلي العبديني

وكان التقديم له لطباعته في العشرين من ربيع الأول لعام ١٤٤٤هـ.

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب النجدي: بسم الله الرحمن الرحيم

قال العلامة ابن قاسم: ابتدأ بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وتأسيا بالنبي ﷺ في مكاتباته. ولم يفتتح المصنف كتابه بخطبة تنبئ عن مقصوده مفتتحة بالحمد، والشهادة، والصلاة على النبي ﷺ، ولعله حمد وتشهد نطقًا عند وضع الكتاب.

واقتصر على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر، وكان ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، فكأنه أجراه مجرى الرسائل إلى أهل العلم، لينتفعوا بما فيه تعلمًا وتعليمًا.

وقال حفيده: وقع لي نسخة بخطه -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بدأ فيها بالبسملة، وثنى بالحمدلة والصلاة على النبي ﷺ. والحمد ذكر محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه.

ومعنى الصلاة على النبي ﷺ هو الثناء على رسول الله ﷺ والعناية به، وإظهار شرفه، وفضله، وحرمته. وعلى هذا فالابتداء بالبسملة حقيقي وبالحمدلة نسبي إضافي، أي بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءًا به. والباء متعلقة بمحذوف، اختير كونه فعلًا خاصًا متأخرًا؛ لئلا يتقدم فيه غير ذكر الله، وليصح الابتداء في كل قول وعمل؛ ولأن الحذف أبلغ فلا حاجة إلى النطق بالفعل لدلالة الحال على أن كل قول أو فعل فإنما هو باسم الله، والتقدير: بسم الله أؤلف حال كوني مستعينا بذكره متبركا به. و"الاسم" مشتق من السمو وهو الارتفاع.

و"الله": علم على ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وهو أعرف المعارف الجامع لمعاني الأسماء الحسنى.

وهو مشتق بمعنى أنه دال على صفة له.

وأصله: "الإله". حذفت الهمزة وأدغمت اللام في اللام فقيل "الله".

و"الرحمن" دال على الصفة القائمة به. و"الرحيم" دال على تعلقها بالمرحوم.

كتاب التوحيد

قال العلامة ابن قاسم: كتاب: مصدر كتب يكتب كتابًا وكتابةً وكتْبًا، ومدار المادة على الجمع، ومنه تكتب بنو فلان إذا اجتمعوا.... والكتابة بالقلم لاجتماع الحروف والكلمات. والمراد به هنا المكتوب، أي: هذا مكتوب جامع لخصائص التوحيد وحقوقه ومكملاته، وما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر. أو البدع القادحة في التوحيد، أو المعاصي المنقصة للتوحيد، وبيان الوسائل والذرائع الموصلة إلى الشرك والمقربة منه بالبراهين القاطعة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

والتوحيد: مصدر وحّده يوحّده توحيدا، جعله واحدا أي فردا، ووحّده قال: إنه واحد أحد، أو قال لا إله إلا الله. والواحد والأحد وصف اسم الباري تعالى لاختصاصه بالأحدية.

وأقسام التوحيد ثلاثة: (الأول) توحيد الربوبية. وهو العلم والإقرار بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، والمدبر لأمور خلقه جميعهم.

(والثاني) توحيد الأسماء والصفات. وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ من صفات الكمال، من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

(والثالث) توحيد الإلهية. وهو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ويتعلق بأعمال العبد وأقواله الظاهرة والباطنة، خلاف ما زعمه المتكلمة والصوفية وغيرهم من أن المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وأنهم إذا أثبتوا ذلك فقد أثبتوا غاية التوحيد.

وأقسام التوحيد الثلاثة متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمتى أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر لم يكن موحدًا.

والقسم الثالث هو مقصود المصنف-رحمه الله- بتصنيف هذا الكتاب.

وإن كان قد ضمنه النوعين الآخرين؛ لأن هذا النوع هو أول دعوة الرسل، ولعموم البلوى في زمانه بعبادة القبور والأشجار وغيرها، ودعوة الأنبياء والأولياء والصالحين وغيرهم، فمن أجل ذلك صرف العناية في بيان ذلك.

وإن شئت قلت كما قال ابن القيم وغيره: التوحيد نوعان:

توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة.

وبهذا التوحيد ولأجله: أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل آية متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه؛ فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله.

وهو التوحيد العلمي الخبري.

وإما دعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد دونه.

وهو الإرادي الطلبي.

وإما أمر ونهي، وهو حقوق التوحيد ومكملاته.

وإما خبر عن أهل التوحيد وجزائهم وأهل الشرك وجزائهم.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه وفي الشرك وأهله وجزائهم.

وركنا التوحيد: الصدق والإخلاص.

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[الذاريات:٥٦].

قال العلامة ابن قاسم: (قول) بالجر عطف على التوحيد، ويجوز الرفع على الابتداء. وهكذا يعرب كل ما يمر بك من هذا.

قال العلامة الفوزان: ومناسبة الآية للباب: أنها تدل على وجوب التوحيد، الذي هو إفراد الله بالعبادة. لأنه ما خلق الجن والإنس إلا لأجل ذلك.انتهى.

ففي هذه الآية جاء الاستثناء بعد النفي؛ وذلك يفيد القصر والحصر.

قال العلامة ابن قاسم: فقوله تعالى: (وما خلقت) أي: ما خلق الله الثقلين الجن والإنس إلا لحكمة عظيمة، وهي عبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه. ففعل الأول وهو خلْقُهم ليفعلوا هم الثاني، وهو عبادته، لا ليفعل هو سبحانه بهم الثاني فيجبرهم على العبادة؛ فإن من سبقت عليه الشقاوة لم يرد سبحانه وقوع العبادة منه، لما له في ذلك من الحكمة.انتهى.

فالمعنى: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ.

وقال بعض السلف: إلا لآمرهم وأنهاهم. واختاره: الزجاج والشيخ وغيرهما.

لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].أي: لا يؤمر ولا ينهى.

وكلما وردت العبادة في القرآن فمعناها توحيد الله بجميع أنواع العبادة. وسميت وظائف الشرع عبادات؛ لأنهم يفعلونها خاضعين لله فيكونون من أهل رضاه.

والعبادة لغةً: التذلل والانقياد. وشرعًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وفي الآية بيان عظم شأن التوحيد؛ إذ كان الخلق كلهم لم يخلقوا إلا له.

قوله: وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [الآية.] [النحل:٣٦].

قال العلامة الفوزان: مناسبة الآية للباب: أن الدعوة إلى التوحيد والنهيَ عن الشرك هي مهمة جميع الرسل وأتباعهم.

قال ابن كثير في هذه الآية: كلهم - أي الرسل - يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه. فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد -ﷺ-، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦].

قال ابن قاسم: والطاغوت: مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، وكل من تعدى حده بأي نوع من الطغيان فهو طاغوت، ويكون واحدا وجمعا، ويؤنث ويذكر، وللسلف فيه تفاسير لا تنافي بينها، وكلها ترجع إلى ما قال ابن القيم: الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع. اهـ.

وأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة وقرن وجيل من الناس رسولًا منذ حدث الشرك في قوم نوح إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، يأمرهم (أن اعبدوا الله) أي وحدوا الله بالعبادة، (واجتنبوا) اتركوا وفارقوا عبادة ما سواه.

ولهذا خلقت الخليقة وأرسلت الرسل وأنزلت الكتب.

و(اجتنبوا) أبلغ من اتركوا، فإن اتركوا لعدم الفعل، واجتنبوا تقتضي ذلك وتقتضي المباعدة والمجانبة.

وهذه الآية هي معنى لا إله إلا الله فإنها تضمنت النفي والإثبات، كما تضمنته لا إله إلا الله، ففي قوله: (اعبدوا الله) الإثبات، وقوله: (اجتنبوا الطاغوت) النفي.

وهذه طريقة القرآن يقرن النفي بالإثبات، فينفي ما سوى الله، ويثبت عبادة الله وحده، فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

ففيها: بيان عظم شأن التوحيد

وإقامة الحجة على العباد.

ومعنى لا إله إلا الله.

ومن الحكم في إرسال الرسل أيضًا:

١ – إقامة الحجة: قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥].

٢ – الرحمة: لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٣– بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى؛ لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلَّا عن طريق الرسل.

قوله: وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣].

قال ابن قاسم: أي أمر، وأوجب على ألسن رسله أن يعبد وحده دون ما سواه.

قال العثيمين: والمراد بالقضاء هنا: القضاء الشرعي الديني.

فإن القضاء ينقسم إلى قسمين كوني قدري، وشرعي ديني. فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله. مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فتكون قضى بمعنى: شرع أو بمعنى: وصى.

والقضاء الكوني: لا بد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه. مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، فالقضاء هنا كوني، لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قال ابن قاسم: واشتملت هذه الآيات على جملة الشرائع، وابتدئت بالتوحيد فدل على أنه أوجب الواجبات؛ إذ لا يبتدأ إلا بالأهم فالأهم، وختمت بالنهي عن الشرك، فدل على أنه أعظم المحرمات. وفيها معنى لا إله إلا الله، فإن قوله: (ألا تعبدوا) هو معنى لا إله. وقوله: (إلا إياه) هو معنى إلا الله.

قال صاحب التيسير: هكذا ثبت في بعض الأصول، لم يذكر الآية بكمالها. انتهى.

والمصنف يميل في متن كتاب التوحيد إلى الاختصار، ولكن الشراح إذا شرحوا أكملوا الآية، وهذا مقصود في الشرح لأن المصنف استنبط منها مسائل، هذه قاعدة المصنف في هذا، ولك عند القراءة والتسميع للكتاب أن لا تكمل وتقول الآية بالنصب، أي أكمل الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾أي: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له، وعطف حقهما على حقه دليل على تأكد حقهما، وأنه أؤكد الحقوق بعد الله، وأكده أيضًا بالمصدر المؤكد؛ لأن الله جعلهما سببا لخروجك من العدم.

ولم يخصص نوعًا من أنواع الإحسان ليعم جميع أنواعه، وقد تواترت السنة ببر الوالدين وتحريم عقوقهما بما هو مدون في موضعه. ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: أي: لا تسمعهما قولا سيئاً حتى التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ، تنبيهًا بما هو فوق ذلك من القول أوالفعل السييء. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾: أي: لا يصدر منك قول قبيح إليهما. ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾:لينًا طيبًا بأدبٍ وتوقير.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾: أي: تواضع وتذلل لهما رحمة بهما لا خوف العار وطلب الحظوة لديهما فقط، وقل رب ارحمهما في كبرهما وعند وفاتهما كما رحماني في تربيتهما لي في صغري وتنشأتي.

قوله: وقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء:٣٦] الآيات.

في هذه الآية يأمر سبحانه عباده بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وقرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه، فدلت على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة.

والشرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله.

و(شيئًا) نكرة في سياق النهي فتعم الشرك قليله وكثيره. وتسمى هذه الآية: آية الحقوق العشرة؛ وذلك لأنها تضمنت عشرة حقوق. وابتدأت بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدلت على أن التوحيد هو أوجب الواجبات، وأن الشرك أعظم المحرمات. وفيها تفسير التوحيد، وأنه عبادة الله وحده وترك الشرك، وهذا وجه مطابقتها للترجمة قاله حفيد المصنف.

قوله: وقوله:﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. [الأنعام:١٥١].

أي: ﴿قُلْ﴾يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿تَعَالَوْا﴾أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ﴾أي: أقص عليكم وأخبركم بـ: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حقًّا، لا تخرُّصًا، ولا ظنًّا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾كأن في الكلام محذوفًا تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئًا. فيكون المعنى: حرم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به.

وذكر سبحانه في هذه الآية جملًا من المحرمات، وابتدأها: بالنهي عن الشرك.

والنهي عنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، فدل على أن التوحيد أوجب الواجبات.

وأن الشرك أعظم المحرمات. وهذا وجه مطابقتها للترجمة.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال القرطبي: الإحسان إلى الوالدين برهما، وحفظهما وصيانتهما، وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾أي لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر، فإني رازقهم وإياكم.

أي: لا تخافوا من الفقر بسبب رزقهم فهو على الله، وخص الأولاد لأن قتلهم يجمع بين القتل وقطيعة الرحم. فالعناية بالنهي عنه آكد، وكان قتل البنات شائعًا فيهم. وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، فنهاهم الله عن ذلك.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي. ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾(وظهر وبطن) حالان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهذا مما نص على النهي عنه تأكيدًا، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾إشارة إلى هذه المحرمات التي أولها النهي عن الشرك، والوصية الأمر المؤكد المقرر. وسميت وصية الميت وصية؛ لأنه يعهدها لمن بعده ليتمسكوا بها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لعل للتعليل أن الله وصانا بهذه الوصايا وأمرنا بها، وأكد علينا فيها لنعقلها ونعمل بها.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ نهي عام عن القرب الذي يعم وجوه التصرف إلا ما يحسن، والسعي في نمائه.﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾أي الرشد وزوال السفه مع البلوغ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾أمر بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذله الجهد فلا حرج عليه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد، فلا يميل إلى الحبيب والقريب.

﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ أي وبوصية الله التي وصاكم بها فأوفوا، بأن تطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه أي الذي أوصيكم به في هاتين الآيتين المشتملتين على ترك المنهيات وأعظمها الشرك، وفعل الواجبات وأعظمها التوحيد.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ صراطًا مستقيمًا واضحًا سهلًا واسعًا ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾وهذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم ﴿وَأَنَّ﴾في موضع نصب أي: أتل أن﴿ هَٰذَا صِرَٰطِي ﴾ أي طريقي ومسلكي وشريعتي ﴿مُسۡتَقِيمٗا﴾ قيمًا. والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلا إليه، وهو شريعة الله لا اعوجاج فيه، ولا طريق إليه سواه، وقد جمع ثلاثة أمور: السهولة والسعة والقرب، فهو أقرب الطرق إلى الله وأوسعها وأسهلها. ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ البدع والشبهات ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ أي تميل وتشتت بكم هذه الطرق المختلفة المضلة عن دينه وطريقه الذي ارتضاه لعباده. وذكر أولًا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا.

قوله: قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: من أراد أن ينظرَ إلى وَصيَّة محمدٍ ﷺ التي عليها خاتمُهُ؛ فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ الآيات. [الأنعام:١٥١-١٥٣].

عبد الله بن مسعود الهذلي، أبو عبد الرحمن صحابي جليل، من السابقين الأولين، ومن كبار علماء الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، ولازم النبي ﷺ، وكان صاحب نعليه، وحدث عنه كثيرًا، وأمّره عمر على الكوفة، ومات سنة ٣٢ هـ.

وأثره هذا رواه الترمذي وغيره وحسنه.

والخاتم: بفتح التاء وكسرها، حلقة ذات فص من غيرها.

وحقيقة الختم: الاستيثاق. أي: من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وختم عليها فلم تغير ولم تبدل، فليقرأ:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. الآيات الثلاث.

لأن كل آية منها ختمت بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾، فالرسول ﷺ لو وصى لم يوص إلا بما وصى به الله تعالى، فصارت وصية الله تعالى، ووصية رسوله ﷺ بالمعنى؛ ولذلك شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. وليس المراد أن النبي ﷺ كتبها وختم عليها، وإنما هذه الآيات كأنها وصية ختمها الرسول ﷺ فلا حاجة بنا أن يوصي، فإن الله قد وصى بما في هذه الآيات؛ لأن فيها ما يكفي عن توصية الرسول ﷺ.

قوله: «وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ -رضي الله عنه-» هو معاذ بن عمرو بن أوس الخزرجي الأنصاري، أبو عبد الرحمن صحابي جليل مشهور من أعيان الصحابة، كان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن، شهد بدرا وما بعدها، واستخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم، تم بعثه إلى اليمن قاضيًا معلمًا، مات بالشام في طاعون عمواس سنة ١٨ هـ، وله: ٣٨.

قوله: «قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النبيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ» وفي رواية: «اسمه عفير»، أهداه إليه المقوقس صاحب مصر. والرديف هو الذي تحمله خلفك على ظهر الدابة.

وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه، خلافا لما عليه أهل الكبر.

قوله: «فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم، وحق الله على العباد هو ما يستحقه عليهم من عبادته وحده.

قوله: «مَا حَقُّ الله عَلَى العِبَادِ؟ وما حقُّ العبادِ عَلَى الله؟» ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعمه المعتزلة، لكن هو سبحانه كتب ذلك على نفسه تفضلًا وإحسانًا، فهو متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٦]. كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق.

قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق.

قوله: «فقُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ» فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول: الله أعلم.

قال ابن مسعود: ((من كان عنده علم فليقل به، وإلا فليقل: الله أعلم)).

قوله: قَالَ: «فإن حَقَّ الله عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوه وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» أي يوحدوه بالعبادة ويفردوه، ويتجردوا من الشرك قليله وكثيره، صغيره وكبيره، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده. بل هو مشرك قد جعل لله ندًّا في عبادته. وأصل العبادة التذلل والخضوع.

قال الشيخ: العبادة: هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل. قال المصنف: وفيه أن العبادة هي التوحيد لأن الخصومة فيه.

قوله: « وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا » أي ألا يعذب من يعبده ولا يشرك به شيئا، والعذاب: كل ما يعيي الإنسان ويشق عليه، من العذب وهو المنع، فسمي عذابًا لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله. قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك.

قوله: «فقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ النّاسَ؟» يعني بفضل التوحيد، وفضل من تمسك به عند الله، ففيه فضل التوحيد وعظم شأنه، وأنه حق الرب الذي أحقه وافترضه على عباده، ولا يقبل منهم سواه، وعظم شأن أهله، وهو ألا يعذبهم. وفيه تفسير التوحيد وأنه عبادة الله وحده وترك الشرك به. وفيه استحباب بشارة المسلم بما يسره. وفيه ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا.

قوله: قَالَ: «لاَ تُبَشّرْهُمْ فَيَتّكِلُوا» وفي رواية: «إني أخاف أن يتكلوا»، أي: يعتمدوا على ذلك، فيتركوا التنافس في الأعمال الصالحة اعتمادًا على ما يتبادر من ظاهر الحديث. وفي رواية: فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا أي تحرجا من الإثم.

قال أبو المظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة. فأما الأكياس فإذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة فلا وجه لكتمانها عنهم. قال المصنف: وفيه جواز كتمان العلم للمصلحة، والخوف من الاتكال على سعة رحمة الله.

قوله: أخرجاه في «الصحيحين أي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما اللّذين هما أصح الكتب المصنفة.

والبخاري هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك. روى عن أحمد والحميدي وابن المديني وطبقتهم، وعنه مسلم والنسائي والترمذي وغيرهم، ولد سنة ١٩٤ هـ، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ.

ومسلم هو ابن الحجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح والعلل والوحدان وغير ذلك، روى عن أحمد وابن معين وابن أبي شيبة والبخاري وطبقتهم، وعنه الترمذي وخلق. ولد سنة ٢٠٤ هـ وتوفي بنيسابور سنة ٢٦١ هـ.

باب (٢) فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

قوله: «باب فضل التوحيد» إنما بُوِّبت الكتبُ ليكون أنشط للطالب إذا ختم باباً وشرع في آخر، وأبعث لهمّته، كالمراحل التي يطلبها المسافر ليرتاح عندها، ولذا كان القرآن سوراً؛ ولأنه أسهل في وجدان المسائل وأَدعَى لحسن الترتيب، وسُميت الأبواب تراجم؛ لأنها تترجم عما بعدها أي تبيِّنه بوجه إجمالي، ومنه الترجمان.

ولما ذكر الشيخ -رحمه الله- التوحيد ناسب أن يذكر فضله ترغيباً فيه، والمراد بالتوحيد توحيد العبادة. قاله في «قرة العيون».

قال ابن قاسم: "باب" خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا باب، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف. و"ما" يجوز أن تكون موصولة، وأن تكون مصدرية. أي: باب: بيان عظيم فضل التوحيد وتكفيره للذنوب وهو أشمل وأولى؛ لرفع وهم أن ثَمَّ ذنوبًا لا يكفرها التوحيد وليس بمراد، ولا ريب أن التوحيد أفضل الأعمال على الإطلاق، وأعظمها تكفيرًا للذنوب، ولما ذكر معنى التوحيد، وكانت الأنفس لها تشوق وتشوف إلى معرفة المعاني، ونيل الفضائل وتحصيلها، ناسب ذكر فضله وتكفيره للذنوب؛ ترغيبًا فيه، وتحذيرًا من الشرك.

والباب لغة: المدخل إلى الشيء. واصطلاحا: اسم لجملة من العلم تحته فصول ومسائل غالبًا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يخلطوا توحيدهم بشرك، ولبس الشيء بالشيء تغطيته به وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر.

وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه، ومنه: سمي الشرك ظلمًا والمشرك ظالمًا؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾: أي: هم الآمنون في الدنيا والآخرة المهتدون إلى الصراط المستقيم.

ولما نزلت هذه الآية شق على أصحاب رسول الله ﷺ ظنوا أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فقالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ قال: ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]. فبين ﷺ أن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء. فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة، الشرك، وظلم العباد في نفس أو مال أو عرض، وظلم نفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا. بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، كما لو ظلمها ببخله ببعض الواجبات حبًا للمال، أو أحب ما يبغضه الله حتى يقدم هواه على محبة الله ونحو ذلك.

وليس مراد النبي ﷺ بقوله: "بشرك" الشرك الأكبر، فيؤخذ منه أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، بل مراده ﷺ نفي نوعي الشرك، فإن أهل الكبائر معرضون للوعيد، مع أنها دون الشرك الأصغر بإجماع أهل السنة، ومع ذلك لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام.

كما وردت به نصوص الكتاب والسنة، فصاحب الشرك الأصغر أولى بلحوق الوعيد له، فظهرت مطابقة الآية للترجمة.

وذلك أن من مات على التوحيد لم يلبسه بشرك فله الأمن على ما تقدم، بخلاف غيره من الأعمال مع عدمه، فتبين بذلك أفضلية التوحيد وأنه السبب في النجاة من النار. فالأمن أمنان: أمنٌ مطلق، وأمنٌ مقيَّد.

فالأول: هو الأمن من العذاب، وهو لمن تاب على التوحيد ولم يصرّ على الكبائر. والثاني: لمن مات على التوحيد مع الإصرار على الكبائر، فله الأمن من الخلود في النار. ففرقٌ بين الأمن المطلق ومطلق الأمن.

وفيه: سعة فضل الله وكثرة ثواب التوحيد عند الله وتكفيره مع ذلك للذنوب، ومعرفة تفسير آية الأنعام. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «عن عبادة بن الصامت» بن قيس الأنصاري الخزرجي أبوالوليد، أحد النقباء، بدري مشهور، مات سنة أربع وثلاثين وله اثنتان وسبعون سنة -رضي الله عنه-.

«قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأنّ الجنة حقّ والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». أخرجاه. أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

قال النووي: «هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد، جمع فيه ما يخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم، وما يباين به جميعهم».

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله» أي تكلم بهذه الكلمة العظيمة عارفاً لمعناها من أنه لا معبود بحق إلا الله عاملاً بمقتضاها باطناً وظاهراً كما دلّ عليه قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف:٨٦] .

أما النطق بها من غير معرفةٍ لمعناها ولا عمل بمقتضاها فإن ذلك غير نافع، يدل على هذا قوله: من شهد كيف يشهد وهو لا يعلم.

قال القرطبي في [المفهم على صحيح مسلم] باب: لا يكفي التلفظ بالشهادتين؛ بل لابد من استيفاء القلب: «هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان. وأحاديث هذا الباب يعني التي ذكرها مسلم تدلّ على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً». انتهى.

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٠/ ٢٤٩]: «الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونه يستحق أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع. قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليـه في شدائدها وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها وتلجأ إليه وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت: لا إله إلاّ الله أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته...». انتهى.

وقولـه: «وحده» تأكيدٌ للإثبات، «لا شريك له» تأكيدٌ للنفي.

وقولـه: «وأن محمداً عبده ورسوله» أي: وشهد أن محمداً عبده ورسوله وهو معطوف على ما قبله ..، والعبد هنا المملوك العابد أي مملوك الله تعالى وليس له من الربوبية والإلهية شيء.

فقولـه: «عبده ورسوله» أعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة، والنبي ﷺ

أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين.

وجمعهما في حقه ﷺ دفعاً للإفراط والتفريط، فإن كثيراً ممن يدَّعي أنه من أمته أفرَطَ بالغلوِّ فيه قولاً وفعلاً وفرط بترك متابعته واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به وتعسّف في تأويل أخباره بصرفها عن مدلولها والصدف عن الانقياد لـها مع انطراحها. وشهادة أن محمد رسول الله تقتضي طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وأن يُعظم أمره ونهيه، ولا يُقدَّم عليه قول أحدٍ كائناً من كان.

قولـه: «وأن عيسى عبدالله ورسوله» وفي رواية: «وابن أمته»، فقولـه عبدالله ردٌّ على النصارى القائلين بأنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولـهم علواً كبيراً: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

وقولـه: «ورسوله» ردٌّ على اليهود القائلين بأنه ولد بغي – لعنهم الله –.

قال القرطبي: «يستفاد من هذا الحديث ما يلقنه النصراني إذا أسلم».

قولـه: «وكلمته» قال الإمام أحمد –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–: «إنما سمى عيسى –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– كلمة الله لصدوره بكملة «كن» بلا أب، وكان عيسى بـ «كن»، وليس عيسى هو «كن»، ولكن بـ «كن» كان، فـ «كن» من الله قولٌ وليس «كن» مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى، وذلك أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته إلا أن الكلمة مخلوقة، وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله، وكلمة الله من ذاته.

وقولـه: «ألقاها إلى مريم» أي أرسل بها جبريل –عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– إليها فنفخ فيها من روحه بإذن الله، فجبريل نفخ، والله خلق بقول: «كن» فكان، فسبحان من لا يخلق غيره

ولا يُعبد سواه.

قوله: «وروح منه» يقول من أمره كان الروح فيه، وقال أُبَيّ بن كعب: عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله واستنطقها بقولـه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢].

قال ابن حجر [الفتح ٦/ ٤٧٥]: «ووصفه بأنه منه، فالمعنى: أنه كائن منه، كما في قولـه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنةً منه أي أنه مكون ذلك وموجده، بقدرته وحكمته».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ٦/ ١٤٥، ٩/ ٢٩٠]: «المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه، ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به، وامتنع أن تكون إضافتها إضافة مخلوق مربوب.

وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل -عليهما السلام- وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفةً لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره، لكنّ الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تُضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شاملٌ لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله، فجميع المخلوقين عبيدٌ لله، وجميع المال مالُ الله.

الوجه الثاني: أن تُضاف إليه لما خصَّها به من معنىً يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خصَّ البيت العتيق بعبادةٍ فيه لا تكون في غيره، وكما يقال في مال الخمس والفيء مالُ الله ورسوله، ومن هذا الوجه فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره، فهذه إضافةٌ تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه». انتهى ملخصاً.

وفيه: الإيمان بالمعاد.

وقوله: «وأنّ الجنة حقٌّ والنار حقٌّ» أي: وشهد أن الجنة حق لا شك فيها، وأنها موجودة الآن؛ لأن الله أخبر في كتابه بأنه أعدّها لمن آمن به وبرسله.

قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد:٢١]، وشهد أن النار حق وأنها موجودة الآن أعدّها للكافرين كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران:١٣١].

ولحديث محاجّة الجنة والنار وغير ذلك من النصوص الدالة على وجودهما.

قولـه: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» هذه الجملة جواب الشرط في قولـه: «من شهد أن لا إله إلا الله» إلخ.

وفي رواية: «أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء».

قال ابن حجر [الفتح ٦/ ٤٧٥]: «معنى قولـه «على ما كان من العمل» من صلاح أو فساد؛ لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة.

ويحتمل أن يكون معنى **قولـه:** «على ما كان من العمل» أن يدخل الجنة أهل الجنة على حسب أعمالهم في الدرجات».

قال المصنف: «تأمّل الخمس اللواتي في حديث عبادة، وإذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبيَّن لك معنى قول: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، وتأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه، ومعرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله، ومعرفة كونه روحاً منه، ومعرفة فضل الإيمان بالجنة والنار، ومعرفة قولـه على ما كان من العمل».

قولـه: «أخرجاه» أي البخاري ومسلم.

قولـه: «ولهما» أي البخاري ومسلم، «في حديث عِتبان» - بكسر العين بعدها مثناة فوقية ثم موحدة - ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف،

صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية -رضي الله عنه-.

قولـه: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلاّ الله يبتغي بذلك وجه الله»

وهذا طرف من حديث طويل أخرجه البخاري ومسلم، ورواه أيضاً أحمد والنسائي وابن ماجه والبيهقي في «الأسماء والصفات»، اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة. أخرجه البخاري (٤٢٥) و(١١٨٦، ٥٤٠١، ٦٤٢٣، ٦٩٣٨)، ومسلم (٢٦٣).

وفيه: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان ومعرفة ذكر الوجه. قاله المصنف -رحمه الله-.

واعلم أنه قد وردت أحاديث ظاهرها أن من أتى بالشهادتين حرمه الله على النار كحديث عتبان هذا، وحديث أنس قال كان النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْل فقال: «يا معاذ» قال: لبيك وسعديك. قال: «يا معاذ» قال: لبيك وسعديك. قال: «يا معاذ» قال: لبيـك وسعديـك، ثلاثاً. قال: «ما من عبـد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلاّ حرّمه الله على النار» الحديث أخرجاه، ولمسلم عن عبادة مرفوعاً: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله حرمه الله على النار».

أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨).

ووردت أحاديث فيها أن من أتى بالشهادتين دخل الجنة، وليس فيها أنه يحرم على النار؛ منها حديث عبادة الذي تقدّم قبل هذا، وحديث أبي هريرة أنهم كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك. وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ عبدٌ بهما غير شاك فيهمـا فيحجب عن الجنة» الحديث رواه مسلم برقم (٢٧).

وحديث أبي ذر في الصحيحين مرفوعاً: «ما من عبدٍ قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلاّ دخل الجنة» الحديث. أخرجه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (١٥٤).

وأحسن ما قيل في ذلك ما قاله شيخ الإسلام وغيره أن هذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة بقولـه، وقالها خالصاً من قلبه مستيقناً بها قلبه.

غير شاك فيها، بصدق ويقين....، فإنه قد تواتر الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة، وتواترت بأن كثيراً ممن يقول لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها.

وتواتر بأن الله حرّم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم؛ فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون بشيء فقلته» جزء من حديثٍ أخرجه الإمام أحمد (٤٢/ ١٣) قال محقق طبعة الرسالة: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وغالب أعمال هؤلاء إنما تقليد واقتداء بأمثالهم وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف:٢٣].

وحينئذٍ فلا منافة بين الأحاديث؛ لأنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله ولا كراهة لما أمر الله وهذا هو الذي يحرم على النار. وإن كانت له ذنوب قبل ذلك فإن هذا الإيمان والإخلاص والتوبة والمحبة واليقين لا يترك له ذنباً إلا مُحيَ كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر فهذا غير مصرٍّ على ذنب أصلاً فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر ولم يأتِ بعدها بما ينقاض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان حسناته كما في حديث

البطاقة، فيحرم على النار بأيضاً لكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مصراً على ذلك فإنه يستوجب النار. وإن قال: «لا إله إلا الله» وخلص بها من الشرك الأكبر لكنه لم يمت على ذلك بل أتى بعد ذلك بسيئات رجحت على حسنة توحيده فأوهنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن؛ فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصـراً عـلى سيئاته، فإن مات على تلك دخل الجنة، فمن قال لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوباً وسيئات وكان صادقـاً في قولها موقناً بها لكن ذنوبه أضعفت صدقه ويقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي رجحت هذه الأشياء على هذه الحسنة وبات مصراً على الذنوب. والذين يدخلون النار ممن يقولها فإنهم أحد هذين الشرطين: إما إنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التامّين المنافيين للسيئات أو لرجحان السيئات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم.

وقوله: «وعن أبي سعيد» سعد بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه كذلك، استُصغر بأُحُد وشهد ما بعدها، مات بالمدينة سنة ثلاث أو أربع أو خمس وستين، وقيل سنة أربع وسبعين -رضي الله عنه-.

«عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب علمني شيئاً أذكركَ» أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٣٤، ١١٤١)، وابن حبان (٢٣٢٤)، والحاكم (١/ ٥٢٨) وصححه، وقال ابن حجر: أخرجه النسائي بسند صحيح. انظر: الفتح (١١/ ٢١٠).

أي أثني عليك وأحمدك به، «وأدعوك» أي أتوسل «به» إليك إذا دعوتك «قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله» فدلّ على أن هذه الكلمة العظيمة مشتملة على الذكر والدعاء، وأن الذاكر يقولها كلها، ولا يقتصر على ما تضمنته من الإثبات دون النفي، ولا على

لفظ الجلالة كما يفعله جهال المتصوفة، ولا على الضمير كما يفعله غلاتهم في قولهم: «هو هو» فإن ذلك بدعة وضلالة بل لا بد في الذكر بها من الإتيان بما اشتملت عليه من النفي والإثبات فلا يكون النفي وحده ذكراً ولا توحيداً، وكذلك الإثبات وحده لا يكون ذكراً ولا توحيداً حتى يجمع في قولها بني النفي والإثبات من متكلم واحد، فلو قال بعضهم: «لا إله»، وقال الآخر: «إلا الله» لم يكن ذلك ذكراً ولا توحيداً.

قوله: «قال: كل عبادك يقولون هذا» بالجمع مراعاة لمعنى «كل»، والذي في الأصول: «يقول» بالإفراد مراعاة للفظها دون معناها، لكن قد روى الإمام أحمد برقم (٦٥٨٠) عن عبدالله بن عمرو هذا الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المصنف أطول منه. قاله في «الشرح»، وفي رواية النسائي والحاكم: «إنما أريد شيئاً تخصني به».

قوله: «قال يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن» بالنصب عطفاً على السموات أي من فيهن من العمار يعني السكان «غيري» أي غير الله ﷻ «والأرضين السبع» ومن فيهن من السكان «وُضعوا في كِفَّة» بكسر الكاف وتشديد الفاء يعني من كفتي الميزان «ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى مالت بهنّ لا إله إلا الله» أي رجحت عليهم، لما اشتملت عليه من التوحيد الذي هو أفضل الأعمال وأساس الملة ورأس الأمر، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ: «أن نوحاً -عليه السلام- قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وُضعت في كفة ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة فضمتهن لا إله إلا الله». أخرجه أحمد (٢/ ١٦٩-١٧٠، ٢٢٥)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، والحاكم (١/ ٤٨-٤٩). وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤٣). فمن قالها بإخلاص ويقين وعمل بمقتضاها واستقام

على ذلك فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ودل الحديث على أن «لا إله إلا الله» أفضل الذكر، كحديث عبدالله بن عمر مرفوعاً: «خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلاّ وحده لا شريك لـه، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». رواه أحمد والترمذي. أخرجه الترمذي (٣٥٧٩)، وأحمد (٢/ ٢١٠)، ومالك في الموطأ (١/ ٢١٤، ٢١٥، ٤٢٢، ٤٢٣). وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٠٣).

وعنه أيضاً: «يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُنشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر، ثم يُقال له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ فيقول: لا يا رب، فيُقال: أفلكَ عذرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقال: بلى، إن ذلك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً عبده ورسوله. فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كِفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة». رواه الترمذي وحسنه، والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (١/ ٥، ٦)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وأحمد (٢/ ٢١٣، ٢٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة رقم (١٣٥).

قال ابن القيم -رحمه الله- [مدارج السالكين ١/ ٣٣١]: «فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض، ومعلوم أن كل واحد له هذه البطاقة، وكثيرٌ منهم يدخل النار بذنوبه».

وفيه: كون الأنبياء يحتاجون إلى التنبيه على فضل «لا إله إلا الله»، والتنبيه لرجحانها

بجميع المخلوقات مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

والنص على أن الأرضين سبع كالسموات، وأنّ لهنّ عُمّاراً.

وفيه: إثبات الصفات خلافاً للمعطلة، ومعرفة أن الميزان له كفتان. قاله المصنف.

قوله: «رواه ابن حِبَان» وهو محمد بن حِبّان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - أبوحاتم التميمي البستي، الحافظ، صاحب التصانيف: كالصحيح، والتاريخ والضعفاء والثقات. قال الحاكم: كان من أوعية العلم، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة «بُسْت» بضم الموحدة وسكون المهملة.

و«الحاكم» هو محمد بن عبدالله النيسابوري، أبوعبدالله، الحافظ، ويُعرف بابن البيِّع، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنّف: المستدرك وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

قوله: «وللترمذي» وهو محمد بن عيسى بن سَورة - بفتح السين -، السُّلمي، أبوعيسى، صاحب الجامع وأحد الأئمة الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهنّاد والبخاري وخلق، مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

قوله: «وحسّنه» أي قال إنه حسن، والحسن عند الترمذي ما تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحدٌ من الثقات. قاله شيخ الإسلام -رحمه الله-.

قوله: «عن أنس بن مالك» بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ، خدمه عشر سنين ودعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة».

أخرجه البخاري (٤٢٤، ٤٢٥)، ومسلم (٣٣) و (٦٥٧).

مات سنة اثنتين، وقيل ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة -رضي الله عنه-، ولم يمت حتى رأى من ولده وولد ولده زيادة عن المائة.

قولـه: «قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتُك بقرابها مغفرة».

وهذا الذي ذكره المصنف قطعة من حديث رواه الترمذي عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرتُ لك، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة. وقُراب الأرض – بضم القاف، وقيل بكسرها والضم أشهر –: ملؤها أو ما يقارب ملؤها.

وقوله: «ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً» شرط ثقيل في الوعد بحصول المغفرة وهو السلامة من الشرك، كثيره وقليله، صغيره وكبيره.

قال شيخ الإسلام: «الشرك نوعان: أكبر وأصغر، فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر وحصل له بعض الأصغر مع حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الأكبر ولكن كثر الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار، فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر أو كان كثيراً أصغر، والأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يُؤخذ به». انتهى.

فإذا عرفتَ حديث أنس؛ عرفتَ أن قولـه في حديث عِتبان: «فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلاّ الله يبتغي بذلك وجه الله» أنَّ ترك الشرك ليس قولها باللسان. قاله المصنف –رحمه الله–.

وفيه: سعة كرمِ الله وجُودِه حيث لو أتاه العبد بمل الأرض خطايا وقد مات على

التوحيد أنه يقابله بالمغفرة لذنوبه.

وفيه: الردّ على الخوارج الذين يكفِّرون المسلم بالذنوب.

وعلى المعتزلة الذين يقولون: بالمنزلة بين المنزلتين، وهي: أنه ليس بمؤمن ولا كافر ويُخلّد في النار؛ فيوافقون الخوارج في التخليد في النار ويخالفونهم في الاسم.

والصواب ما عليه أهل السنة أن لا يسلب عنه اسم الإيمان على الإطلاق ولا يُعطاه على الإطلاق بل يُقال هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن عاص، أو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، وعلى هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة.

باب (٣) من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قال ابن قاسم: أي هذا باب فيه أدلة من الكتاب والسنة تدل على أن من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ولا عذاب. لما ذكر التوحيد وفضله ناسب أن يذكر تحقيقه، فإنه لا يحصل كمال فضله إلا بكمال تحقيقه، وتحقيق التوحيد قدر زائد على ماهية التوحيد، وتحقيقه من وجهين: واجب ومندوب، فالواجب: تخليصه وتصفيته عن شوائب الشرك والبدع والمعاصي. فالشرك ينافيه بالكلية، والبدع تنافي كماله الواجب، والمعاصي تقدح فيه وتنقص ثوابه، فلا يكون العبد محققًا للتوحيد حتى يسلم من الشرك بنوعيه، ويسلم من البدع والمعاصي، والمندوب: تحقيق المقربين، تركوا ما لا بأس به حذرا مما به بأس، وحقيقته هو انجذاب الروح إلى الله، فلا يكون في قلبه شيء لغيره، فإذا حصل تحقيقه بما ذكر، فقد حصل الأمن التام، والاهتداء التام. انتهى.

قال في قرة العيون: وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه.. وهم في صدر هذه الأمة كثيرون، وفي آخرها هم الغرباء وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ٣١٠-٣١١]: «دين الإسلام مبني على أصلين وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، أن لا تجعل مع الله إلهاً آخر، فلا تحب مخلوقاً كما تحب الله، ولا ترجوه كما ترجو الله، ولا تخشاه كما تخشى الله، فمن سوَّى بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله، وهو من الذين هم بربهم يعدلون. والأصل الثاني: أن يعبده بما شَرَع على ألسنةِ رُسِلِه، لا تعبده إلا بواجب أو مستحب، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك».

وقول الله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: ١٢٠].

قال في التيسير: مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف إبراهيم -عليه السلام- في هذه الآية بهذه الصفات الجليلة التي هي أعلى درجات تحقيق التوحيد، ترغيبًا في اتباعه في التوحيد، وتحقيق العبودية فاتباع الأوامر، وترك النواهي، فمن اتبعه في ذلك، فإنه يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب كما يدخلها إبراهيم -عليه السلام-.

قال ابن قاسم: وصف الله خليله -عليه السلام- بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد، وأثنى عليه بها فقال: الأولى: (كَانَ أُمَّةً) أي إمامًا على الحنيفية، قدوة يقتدى به، معلما للخير، أو لما اجتمع فيه من صفات الكمال والخير والأخلاق الحميدة ما يجتمع في أمة استحق اسمها، والقولان متلازمان، فإنه أمة على الحق وحده، وإمام لجميع الحنفاء، يقتدون به في ذلك.

الثانية: (قَانِتًا لِّلَّهِ) أي خاشعًا مطيعًا، والقنوت دوام الطاعة، والمصلي إذا طال قيامه، أو ركوعه، أو سجوده، فهو قانت. الثالثة: (حَنِيفًا) أي منحرفًا عن الشرك إلى التوحيد، مقبلًا على الله، معرضًا عن كل ما سواه، فالحنيف هو المستقيم، وعند العرب ما كان على دين إبراهيم.

قال في التيسير: الرابعة: أنه ما كان من المشركين أي: هو موحد خالص من شوائب الشرك مطلقا فنفى عنه الشرك على أبلغ وجوه النفي بحيث لا ينسب اليه شرك وإن قل تكذيبًا لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة ابراهيم -عليه السلام-.

وقال المصنف في الكلام على هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين.

﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ خلافا لمن كثر سوادهم وزعم أنه من المسلمين. قلت – القائل الشيخ سليمان-: وهو من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية، لكنه ينبه بالأدنى على الأعلى. وقوله: (لئلا يستوحش) تنبيه على بعض معنى الآية وهو المنفرد وحده في الخير. وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ كان على الإسلام، ولم يكن في زمانه من قومه أحد على الإسلام غيره. قال في «قرة العيون»: «فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته، وكسَّر الأصنام، وصبر على ما أصابه في ذات الله وهذا هو تحقيق التوحيد».

وقولـه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون:٥٩].

قال في التيسير: مناسبة الآية للترجمة من جهة أن الله تعالى وصف المؤمنين السابقين إلى الجنات بصفات أعظمها:

الثناء عليهم بأنهم ﴿بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: شيئًا من الشرك في وقت من الأوقات، فإن الإيمان النافع مطلقًا لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقًا، ولما كان المؤمن قد يعرض له ما يقدح في إيمانه من شرك جلي أو خفي نفى عنهم ذلك، ومن كان كذلك فقد بلغ من تحقيق التوحيد النهاية وفاز بأعظم التجارة، ودخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له.

قولـه: «عن حصين بن عبد الرحمن» السلمي أبو الهذيل الكوفي، ثقة من تابعي التابعين، مات سنة ستٍ وثلاثين ومائة وله ثلاث وتسعون سنة.

قال: «كنت عند سعيد بن جبير» الوالبي الإمام الفقيه، من جلة أصحاب ابن عباس، كوفي مولى لبني أسد، قُتل بين يدي الحجّاج سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين، فما أمهله الله بعده. «فقال» أي: سعيد بن جبير «أيُّكم رأى الكوكب» أي الشهاب، «الذي انقضَّ البارحة» أي رمي به، والبارحة يُقال لليلة الماضية إذا زالت الشمس، مشتقة من برح إذا زال، وأما قبل الزوال فيقال الليلة. «فقلت: أنا» أي: أنا رأيته «ثم قلت: أما إني لم أكنْ في صلاة» قال ذلك لئلا يُظن أنه قائم يصلي في ذلك الوقت، وهذا يدل على فضل السلف الصالح وحرصهم على الإخلاص، وشدة ابتعادهم عن الرياء بخلاف من يقول: فعلت وفعلت ليوهم الأغمار أنه من الأولياء فما أشدَّ حذر السلف من الشرك.

وفيه: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «ولكني لُدغتُ» أي لدغته عقرب أو نحوها «قال فما صنعت؟ قلت: ارتقيت» لفظ مسلم استرقيت أي: طلبت من يرقيني. «قال: فما حملك على ذلك» فيه طلب الحجة على صحة المذهب، وأن من فعل شيئاً سُئل عن مستنده في فعله، ومن لم يكن معه حجة فرعية فلا عذر له فيما فعله. «قلت: حديثٌ حدّثناه الشعبي» وهو عامر بن شراحيل الهمداني بسكون الميم، الحميري، ولد في خلافة عمر وهو من ثقات التابعين وحفاظهم وفقهائهم، مات سنة ثلاث ومائة.

قولـه: «وما حدَّثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة» بضم أوله وفتح ثانيه تصغير بردة «بن الحصيب» بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين بن الحارث الأسلمي، صحابي شهير، مات سنة ثلاث وستين، قاله ابن سعد «أنه قال: لا رقية إلاّ من عين أو حُمَة» هكذا روي موقوفاً (هو في مسلم ٢٢٠ موقوفًا عن بريدة).

وقد رواه الترمذي(٢٠٥٧) وابن ماجه (٣٥١٣) عنه مرفوعاً. ورواه أحمد (٤/ ٤٣٦) وأبوداود (٣٨٨٤)والترمذي(٢٠٥٧) عن عمران بن حصين به مرفوعًا. وهو صحيح عنهما.

والعين هي إصابة العائن غيره بعينه، والحُمة بضم الميم وتخفيف الميم سُم العقرب وشبهها. قال الخطابي: ومعنى الحديث: لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة. وقد رَقى النبي ﷺ ورُقي.

وفيه الرخصة في الرقية من العين والحمة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» أي من أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن، بخلاف من يعمل بجهل أو لا يعمل بما علم فإنه مسيء آثم.

وفيه: عمق علم السلف لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس» فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: فضيلة علم السلف وحسن أدبهم في تبليغ العلم وإرشاد من أخذ بشيء من العلم إلى الأفضل.

وابن عباس هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ حَبر الأمة وترجمان القرآن، دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقِّهُه في الدين، وعلِّمه التأويل». رواه أحمد (٢٣٩٧) وغيره، وهو صحيح، وأخرج البخاري (١٤٣) شطره الأول: «اللهم فقِّهُه في الدين»، ومسلم(٢٤٧٧) مقتصرا على لفظ: «اللهم فقهه». فكان آية في ذلك، مات بالطائف سنة ثمان وستين. «عن النبي ﷺ قال: عُرضت عليَّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط». قال النووي: الرهط الجماعة دون العشرة.

قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد» قال في التيسير: فيه أن الأنبياء متفاوتون في عدد أتباعهم، وأن بعضهم لا يتبعه أحد.

وفيه: الرد على من احتج بالأكثر، وزعم أن الحق محصور فيهم وليس كذلك، بل الواجب اتباع الكتاب والسنة مع من كان وأين كان.

وفيه: عرض الأمم عليه -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وأن كل أمة تُحشر وحدها مع نبيها، وقلة من استجاب للأنبياء وأن من لم يجبه أحد يأتي وحده، وثمرة هذا العلم وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة. قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قولـه: «إذ رفع لي سواد عظيم» السواد ضد البياض، والمراد هنا الشخص الذي يرى من بعيد أي رفع لي أشخاص كثيرة، والمراد الأشخـاص التي تُرى في الأفق لايدرك منها إلا الصورة.

قولـه: «فظننت أنهم أمتي» قال في التيسير: استشكل الاسماعيلي كونه ﷺ لم يعرف أمته حتى ظن أنهم أمة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ثبت حديث أبي هريرة كيف تعرف من لم تر من أمتك؟ فقال إنهم غر محجلون من أثر الوضوء. [رواه مسلم(٢٤٩)]، وأجاب بأن الأشخاص التي رآها في الأفق لا يدرك منها إلا الكثرة من غير تمييز لأعيانهم، وأما ما في حديث أبي هريرة فمحمول على ما إذا قربوا منه. ذكره الحافظ. [الفتح١١/٤٠٨].

قولـه: «فقيل لي: هذا موسى وقومه». أي موسى بن عمران كليم الرحمن وقومه الذين اتبعوه. وفيه: فضيلة أصحاب موسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ-. قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قولـه: «فنظرت فإذا سواد عظيم» لفظ مسلم بعد قوله: «هذا موسى وقومه» «ولكن انظر الى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لى انظر الى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك».

قولـه: «ومعهم - سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب» لتحقيقهم التوحيد. وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين (خ ٥٨١١ وم ٢١٦) وصفه السبعين ألفاً بأنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر، وفيهما عنه مرفوعاً: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر والذين على آثارهم كأحسن كوكب دري في السماء إضاءة».

أخرجه البخاري (٣٢٥٤)، ومسلم (٢١٧٩).

وفي رواية أحمد (٢/ ٣٥٩) والبيهقي في البعث (٤١٦) «فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعون ألفاً». قال ابن حجر: وسنده جيد. [فتح الباري] (١١/ ٤١٨-٤١٩).

قلت: وحسنه شيخنا العلامة الوادعي في الصحيح المسند برقم(١٤٤٠).

وفيه: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، قاله المصنف -رحمه الله-.

فالكمية العدد، والكيفية فضيلتهم هم.

قوله: «ثم نهض» أي قام النبي ﷺ «فدخل منزله».

قوله: «فخاض الناس في أولئك»: قال النووي: هو بالخاء والضاد المعجمتين أي: تكلموا وتناظروا قال: وفي هذا إباحة المناظرة في العلم والمباحثة في نصوص الشرع على جهة الاستفادة وإظهار الحق. انتهى. والمراد: تكلموا في الأعمال التي اقتضت دخولهم الجنة بلا حساب ولا عذاب.

«فقال بعضهم لعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ» لمزية الصحبة وفضلها «وقال بعضهم: فلعلّهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء».

وفيه: عمق علم الصحابة بمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل وحرصهم على الخير. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: جواز الاجتهاد فيما لم يعلم فيه دليل ؛ لأنهم قالوا ما قالوا اجتهاداً منهم، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم، لكن المجتهد لا يجوز له أن يجزم بصواب قولـه بل يقول لعل الحكم كذا وكذا، كقول الصحابة. قاله في «قرة العيون».

قولـه: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه. فقال: «هم الذين لا يسترقون» هكذا أثبت في الصحيحين، وكذا هو في حديث ابن مسعود، وفي مسند أحمد (٣٨١٩) وهو حسن، وهو في الصحيح المسند برقم (٨٤٥)، وفي رواية مسلم: «ولا يرقُون».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ١٨٢، ٣٢٨]: «هذه الزيادة وهمٌ من الراوي، لم يقل النبي ﷺ «لا يرقون» ؛ لأن الراقي محسنٌ إلى أخيه، وقد رقى النبي ﷺ أصحابه، ورقاه جبريل، والفرق بين الراقي والمسترقي أن المسترقي سائلٌ مستعطف ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن، وإنما المراد وصف السبعين الألف بتمام التوكل فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم استسلاماً للقضاء وتلذذاً بالبلاء».

قولـه: «ولا يكتوون» أعمّ من أن يسألوا ذلك، أويُفعل بهم ذلك باختيارهم. قاله في «فتح المجيد».

وأما الكيُّ في نفسه فجائز لما في صحيح مسلم(٢٢٠٧)عن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ بعث إلى أُبَيّ بن كعب طبيباً فقطع له عرقاً وكواه. وفي صحيح البخاري(٥٧٢٠) عن أنس -رضي الله عنه- أنه كوى من فات الجنب، والنبي ﷺ حي، وروى الترمذي وغيره عن أنس أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زرارة من الشوكة. قال ابن حجر: ذات الجنب هو ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن للأضلاع، ويحدث بسببه خمسة أعراض: الحمى والسعال والنخس وضيق النفس والنبض المنشاري. انتهى.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيّة نار، وأنا أنهى عن الكيّ» أخرجه البخاري (٥٦٨٠).

وعند البخاري (٥٦٨٣)، ومسلم (٢٢٠٥) عن جابر: «وما أحب أن أكتوي».

قال ابن القيم -رحمه الله-: «تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع:

أحدها: فعله. الثاني: عدم محبته له. الثالث: الثناء على من تركه. الرابع: النهي عنه.

ولا تعارض بينها بحمد الله، فإن فِعْله يدل على جوازه وعدم محبته لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على من تركه فيدل على أن تركه أفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة». انتهى.

قوله: «ولا يتطيرون» أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها، وسيأتي الكلام على الطيرة في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «وعلى ربهم يتوكلون» أي يعتمدون في أمورهم. قال في التيسير: ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال وهو التوكل على الله وصدق الالتجاء اليه والاعتماد بالقلب عليه الذي هو خلاصة التفريد، ونهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف من المحبة والخوف والرجاء والرضى به ربًا وإلهًا والرضى بقضائه بل ربما أوصل العبد الى التلذذ بالبلاء وعده من النعماء فسبحان من يتفضل على من يشاء بما يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفيه: معرفة مراتب الناس في التوحيد وما معنى تحقيقه، وأن ترك الرقية والكيّ من تحقيق التوحيد، وأن الجامع لتلك الخصال هو التوكل. قاله المصنف -رحمه الله-.

ولا يدل الحديث على ترك مباشرة الأسباب فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمرٌ فطري ضروري لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، فإنه سبب لوقاية الله وكفايته كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] أي كافيه.

وإنما يدل على أنهم يتركون الأسباب المكروهة مع حاجتهم إليها توكلاً على الله، وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه فغير قادح في التوكل.

لما في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: «ما أنزل الله من داء إلاّ أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» أخرجه البخاري (٥٦٧٨).

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ قال: «نعم يا عباد الله، تداووا، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- لم يضع داءً إلا وضع له شفاء غير داء واحد». قالوا: وما هو ؟ قال: «الهرم». رواه أحمد. أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، وابن ماجه (٣٤٣٦)، وأبوداود (٣٨٥٥)، والترمذي (٢٠٣٩) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٢٠٢) برقم (١٦٦٠).

قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- [زاد المعاد ٤/ ١٤-١٥]: «وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات وإبطال قول من أنكرها والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافي دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوكّل إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل. فإن تركها عجزٌ ينافي التوكل، الذي هو اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزاً.

وقد اختلف العلماء في التداوي هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب، أو واجب؟

فالمشهور عن أحمد الأول لهذا الحديث وما في معناه، والمشهور عن الشافعي الثاني حتى ذكر النووي في «شرح مسلم» أنه مذهبهم، ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف.

واختاره الوزير أبوالمظفر بن هبيرة قال: «ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكّد حتى يداني به الوجوب. قال: ومذهب مالك أنه يستوي فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه».

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ٢٤/ ٢٦٩]: «ليس بواجب عند جماهير العلماء، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد».

قوله: «فقام عُكّاشة» بضم العين وتشديد الكاف ويجوز تخفيفها «ابن محصن» بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين، الأسدي من بني أسد بن خزيمة، كان من السابقين إلى الإسلام، هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها.

استشهد في قتال الردة مع خالد بن الوليد بيد طليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة ثم أسلم طليحة بعد ذلك، وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: «فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم» أي من السبعين الألف.

وفيه: طلب الدعاء من أهل الصلاح، وأن النبي ﷺ لا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً إلا بالدعاء «فقال: أنت منهم» هذا لفظ مسلم (٢٢٠)، وفي رواية للبخاري(٦٥٤١) فقال: «اللهم اجعله منهم» عن ابن عباس، وكذلك في حديث أبي هريرة عند البخاري (٥٨١١، ٦٥٤٢) ومسلم(٢١٦)، وفي بعض الروايات عن ابن عباس عند البخاري(٥٧٠٥)،(٥٧٥٢): أمنهم أنا يا رسول الله ؟ قال: «نعم». قال الحافظ ابن حجر: «ويجمع بين الأحاديث بأنه سأل الدعاء أولاً فدعا لـه، ثم استفهم هل أجيب فأخبره».

وقوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة. وفيه فضيلة عكاشة، قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: سبقك بها عُكاشة».

قال ابن بطال: معنى قوله: «سبقك» أي: إلى إحراز هذه الصفات، أي التوكل وعدم التطير وما ذكر معه.

وقال القرطبي: «لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة فلذا لم يجبه؛ إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك من كان حاضراً فيتسلسل الأمر فسَدَّ الباب بذلك».

قال في التيسير تتميمًا: وهذا أولى من قول من قال كان منافقًا لوجهين:

أحدهما: أن الأصل في الصحابة عدم النفاق فلا يثبت ما يخالف ذلك إلا بنقل صحيح.

والثاني: أنه قل أن يصدر مثل هذا السؤال إلا عن قصد صحيح ويقين بتصديق الرسول ﷺ وكيف يصدر ذلك من منافق. قلت: هذا أولى ما قيل في تأويله، وإليه مال شيخ الإسلام.

وفيه: استعمال المعاريض، وحسن خلقه ﷺ. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب(٤) الخوف من الشرك

معنى الباب: أي: باب وجوب الخوف من الشرك، والتحذير منه، وبيان ما يتعلق به من الخسران الأبدي والعذاب السرمدي، وخاف الشيء: فزع منه واتقى ضد أمن.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد: لما كان الشرك أعظم ذنب عُصِيَ الله به، ولهذا رتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبي نسائهم وأولادهم، وعدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه.

نبه المصنف بهذه الترجمة على أنه ينبغي للمؤمن أن يخاف منه ويحذره ويعرف أسبابه ومبادئه وأنواعه لئلا يقع فيه.

مناسبة الباب لما قبله: لما ذكر ما سبق من الأبواب ناسب أن يذكر ضد التوحيد وهو الشرك، لأنه لا يكفي أن الإنسان يعرف التوحيد ويعمل به، بل لابد أن يعرف ضده وهو الشرك، خشية أن يقع فيه، ويفسد عليه توحيده

وحقيقة الخوف من الشرك صدق الالتجاء إلى الله والاعتماد عليه والابتهال والتضرع إليه، والبحث والتفتيش عن الشرك ووسائله وذرائعه، ليسلم من الوقوع فيه.

وقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨، ١١٦]

قال ابن كثير: أخبر الله سبحانه تعالى أنه ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي من الذنوب لمن يشاء من عباده.

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم، وتنقص لرب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره.

قال في قرة عيون الموحدين: وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك، وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد، ثم قال: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فخصص وقيد فيما دون الشرك.

فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه، فلا يرجى له معه نجاة إن لم يتب منه قبل الوفاة.

قال ابن عثيمين: وهل المراد بالشرك هنا الأكبر، أم مطلق الشرك؟

قال بعض العلماء: إنه مطلق يشمل كل شرك ولو أصغر؛ كالحلف بغير الله، فإن الله لا يغفره، أما بالنسبة لكبائر الذنوب؛ كالسرقة، والخمر؛ فإنها تحت المشيئة، فقد يغفرها الله. وشيخ الإسلام ابن تيمية المحقق في هذه المسائل، اختلف كلامه في هذه المسألة؛ فمرة قال: الشرك لا يغفره الله ولو كان أصغر، ومرة قال: الشرك الذي لا يغفره الله هو الشرك الأكبر. وعلى كل حال؛ فيجب الحذر من الشرك مطلقًا؛ لأن العموم يحتمل أن يكون داخلًا فيه الأصغر؛ لأن قوله:" أن يشرك به " أن وما بعدها في تأويل مصدر، تقديره: إشراكًا به؛ فهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم.

قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

وقال الخليل -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم:٣٥]

قال في فتح المجيد تبعًا للتيسير: أي اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيه أنبياء، وجنبهم عبادة الأصنام. لكن قال العثيمين: قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق. وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دعا الله أن لا يجعل بأس أمته بينهم فلم يجب الله دعاءه. وأيضًا يمنع من الأول: أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

قال في التيسير: وإنما دعا إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بذلك، لأن كثيرًا من الناس افتتنوا بها، كما قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

فخاف من ذلك، ودعا الله أن يعافيه، وبنيه من عبادتها.

فإذا كان إبراهيم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يسأل الله أن يجنبه ويجنب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنك بغيره؟ كما قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن من البلاء بعد إبراهيم؟!».

رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وهذا يوجب للقلب الحي أن يخاف من الشرك، لا كما يقول الجهال: إن الشرك لا يقع في هذه الأمة، ولهذا أمنوا الشرك فوقعوا فيه. وهذا وجه مناسبة الآية للترجمة.

قال في قرة عيون الموحدين: فالذي خافه الخليل -عَلَيْهِ السَّلَامُ- على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة، فبنت المساجد والمشاهد على القبور، وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك دينًا وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم.

وقال في فتح المجيد: فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله، وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به.

قال في التيسير: الصنم: ما كان منحوتًا على صورة البشر. والوثن: ما كان منحوتًا على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد. والظاهر أن الصنم ما كان مصورًا على أي صورة، والوثن بخلافه كالحجر والأبنية، وإن كان الوثن قد يطلق على الصنم، ذكر معناه غير واحد، ويروى عن بعض السلف ما يدل عليه. قال في فتح المجيد: ويقال: إن الوثن أعم، وهو قوي، فالأصنام أوثان كما أن القبور أوثان.

وقال في حاشية كتاب التوحيد: فإن الصنم ما كان مصورًا على أي صورة، والوثن ما عبد مما ليس له صورة كالحجر والأبنية، وقد يسمى الصنم وثنًا.

وفي الحديث: «أَخْوَفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ». فسُئل عنه فقال: «الرياء».

قال في التيسير: هذا من رحمته -ﷺ- لأمته وشفقته عليهم، وتحذيره مما يخاف عليهم، فإنه ما من خير إلا دلهم عليه وأمر به، وما من شر إلا وأخبرهم به وحذرهم عنه.... ولما كانت النفوس مجبولة على محبة الرياسة والمنْزلة في قلوب الخلق إلا من سلم الله، كان هذا أخوف ما يخاف على الصالحين، لقوة الداعي إلى

ذلك، والمعصوم مَنْ عَصَمَهُ الله، وهذا بخلاف الداعي إلى الشرك الأكبر....

فلذلك صار خوفه -ﷺ- على أصحابه من الرياء أشد لقوة الداعي وكثرته...،

مع أنه -ﷺ- أخبر أنه لا بد من وقوع عبادة الأوثان في أمته، فدل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف على نفسه الشرك الأكبر، إذا كان الأصغر مخوفًا على الصالحين من الصحابة مع كمال إيمانهم، فينبغي للإنسان أن يخاف الأكبر لنقصان إيمانه ومعرفته بالله، فهذا وجه إيراد المصنف له هنا مع أن الترجمة تشمل النوعين.

قال في فتح المجيد: فإذا كان الشرك الأصغر مخوفا على أصحاب رسول الله -ﷺ- مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟

وقال في قرة العيون: فإذا كان يخافه -ﷺ- على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة، ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته، فهاجروا وجاهدوا من كفر به، وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، وما أنزله الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك، فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك! وقد أخبر -ﷺ-عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: " حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان " ، وقد جرى ما أخبر به -ﷺ- وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه دينًا مع ظهور الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه.

قال العثيمين في القول المفيد: والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس؛ فيمدحوه على كونه عابدا، وليس يريد أن تكون العبادة للناس؛ لأنه لو أراد ذلك؛ لكان شركا أكبر، والظاهر أن هذا على سبيل التمثيل، وإلا؛ فقد يكون رياء، وقد يكون سماعا، أي

يقصد بعبادته أن يسمعه الناس فيثنوا عليه، فهذا داخل في الرياء؛ فالتعبير بالرياء من باب التعبير بالأغلب.

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها؛ فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله، والرسول -ﷺ- يقول: " فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي ".

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

الأول: أن يكون في أصل العبادة، أي ما قام يتعبد إلا للرياء؛ فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في "الصحيح" مرفوعا، قال الله تعالى: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه ".

الثاني: أن يكون الرياء طارئا على العبادة، أي: أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء؛ فهذا ينقسم إلى قسمين: الأول: أن يدافعه؛ فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء؛ بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه؛ فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

القسم الثاني: أن يسترسل معه؛ فكل عمل ينشأ عن الرياء، فهو باطل؛ كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى؛ فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟ نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحالة الأولى: أن يكون آخر العبادة مبنيا على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها؛ فهذه كلها فاسدة. وذلك مثل الصلاة؛ فالصلاة مثلا لا يمكن أن يفسد آخرها ولا يفسد أولها، وحينئذ تبطل الصلاة كلها؛ إذا طرأ الرياء في أثنائها ولم يدافعه.

الحالة الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلا عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء؛ فهو صحيح، وما كان بعده؛ فهو باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مئة ريال، فتصدق بخمسين بنية خالصة، ثم تصدق بخمسين بقصد رياء؛ فالأولى مقبولة، والثانية غير مقبولة؛ لأن آخرها منفك عن أولها. وفي حاشية كتاب التوحيد: والشرك قسمان: أكبر وأصغر، وبينهما فرق في الحكم والحد، فالأكبر: أن يسوي غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالمحبة، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه أبدًا إلا بالتوبة، وأنه يحبط جميع الأعمال، وأن صاحبه خالد مخلد في النار. والأصغر: هو ما أتي في النصوص أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر، وحكمه أنه لا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة لعموم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وأنه يحبط العمل الذي قارنه، ولا يوجب التخليد في النار، ولا ينقل عن الملة، ويدخل تحت الموازنة، إن حصل معه حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة وإلا دخل النار.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه-، أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًا، دخل النار». رواه البخاري.

قال في فتح المجيد: واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:

الأول: أن يجعله لله شريكا في أنواع العبادة أو بعضها ...، وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء...وقال في قرة عيون الموحدين: وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضًا، والتخويف منه، والند: المثل والشبيه، فمن دعا ميتًا أو غائبًا

وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أم لم يسأله، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله.

ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء، وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار، لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرب به ويدين به، ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله، فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى، وذلك ينافي الإخلاص، ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

ولمسلم عن جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

جابر: هو ابن عبد الله بن عمرو بن حرام ـ بمهملتين ـ الأنصاري ثم السلمي بفتحتين، صحابي جليل مكثر، ابن صحابي، له ولأبيه مناقب مشهورة -رضي الله عنهما-. مات بالمدينة بعد السبعين، ـ وقد كف بصره ـ وله أربع وتسعون سنة.

وقوله: "من لقي الله لا يشرك به شيئًا".

قال القرطبي: أي: من لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية ولا في الخلق، ولا في العبادة. ومن المعلوم ـ من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة ـ أن من مات على ذلك، فلا بد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة، وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد من غير انقطاع عذاب، ولا تصرم آماد، وهذا معلوم ضروري من الدين، مجمع عليه بين المسلمين.

وقال النووي: أما دخول المشرك إلى النار، فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة من المرتدين والمعطلين، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة، فهو مقطوع له به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصرًا عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرًا عليها، فهو تحت المشيئة، فإن عفا عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عذب في النار ثم أخرج فيدخل الجنة.

بَاب (٥) الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله

قال في التيسير: لما بين المصنف -رحمه الله- الأمر الذي خلقت له الخليقة وفضله وهو التوحيد، وذكر الخوف من ضده الذي هو الشرك، وأنه يوجب لصاحبه الخلود في النار، نبّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه كما يظن الجهال؛ ويقولون: اعمل بالحق واترك الناس وما يعنيك من الناس، بل يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، كما كان ذلك شأن المرسلين وأتباعهم إلى يوم الدين، وكما جرى للمصنف وأشباهه من أهل العلم والدين والصبر واليقين. وإذا أراد الدعوة إلى ذلك، فليبدأ بالدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى شهادة أن: لا إله إلا الله، إذ لا تصح الأعمال إلا به، فهو أصلها الذي تبنى عليه، ومتى لم يوجد، لم ينفع العمل، بل هو حابط، إذ لا تصح العبادة مع الشرك..

وفي حاشية كتاب التوحيد: والدعوة إلى الله هي الدعوة إلى توحيده والإيمان به وبما جاءت به رسله، وذلك يتضمن الدعوة إلى أركان الإسلام وأصول الإيمان والإحسان، بل الأمر بما أمر به، والنهي عما نهى عنه، ولا تتم إلا بذلك، وأول ما يبدأ به الدعوة إلى التوحيد الذي هو معنى الشهادة...وكل واحد من الأمة يجب عليه أن يقوم من الدعوة بما يقدر عليه إذا لم يقم به غيره.

وقول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف:١٠٨].

نقل في التيسير قول ابن كثير في هذه الآية- قال-: يقول تعالى لرسوله -ﷺ- آمرًا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله، أي: طريقته وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك، ويقين وبرهان ـ هو وكل من اتبعه ـ يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله -ﷺ- على بصيرة وبرهان عقلي شرعي.

وقوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾. أي: وأنزه الله وأجل وأعظم عن أن يكون له شريك ونديد، سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

قلت- القائل صاحب التيسير-: فتبين وجه المطابقة بين الآية والترجمة.

قيل: ويظهر ذلك إذا كان قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ عطفًا على الضمير في ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاة إلى الله تعالى، وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل، فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله.

وقال في فتح المجيد: وقال العلامة ابن القيم في معنى قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾ الآية. [النحل:١٢٥]

ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو:

فإنه إما أن يكون طالبًا للحق محبًا له، مؤثرًا له على غيره إذا عرفه، فهذا يدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال.

وإما أن يكون مشتغلًا بضد الحق. لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون معاندًا معارضًا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن. فإن رجع وإلا انتقل معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

قال المصنف -رحمه الله- : "فيه مسائل: منها التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيرا ولو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه. ومنها: أن البصيرة من الفرائض. ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة. ومنها: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله تعالى. ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم ولو لم يشرك".

قوله: "لما بعث معاذًا إلى اليمن". قال الحافظ: كان -صلى الله عليه وسلم- بعث معاذًا إلى اليمن سنة عشر قبل حج النبي -صلى الله عليه وسلم- كما ذكره المصنف - يعني البخاري - في أواخر المغازي. انتهى. ولم يزل معاذ على اليمن إلى أن قدم في عهد أبي بكر، ثم توجه إلى الشام فمات بها، واختلف هل كان معاذ واليًا أو قاضيًا، فجزم ابن عبد البر بالثاني، والغساني بالأول. قال في التيسير: الظاهر أنه كان واليًا قاضيًا. ونقل في فتح المجيد قول شيخ الإسلام: ومن فضائل معاذ -رضي الله عنه- أنه -صلى الله عليه وسلم- بعثه إلى اليمن مبلغًا عنه، ومفقهًا ومعلمًا وحاكمًا.

قوله: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب).

قال القرطبي: يعني به اليهود والنصارى، لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم، ويعد الأدلة لامتحانهم، لأنهم أهل علم سابق، بخلاف المشركين وعبدة الأوثان.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها..

قلت: وفيه أن مخاطبة العالم ليست كمخاطبة الجاهل، والتنبيه على أنه ينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة في دينه، لئلا يبتلى بمن يورد عليه شبهة من علماء المشركين، ففيه التنبيه على الاحتراز من الشبه، والحرص على طلب العلم.

قوله: "فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله".

يجوز رفع "أول" مع نصب " شهادة " وبالعكس.

قوله: وفي رواية: "إلى أن يوحدوا الله": هذه الرواية في التوحيد من " صحيح البخاري " وفي بعض الروايات: "فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله". وفي بعضها وأن محمدًا رسول الله وأكثر الروايات فيها ذكر الدعوة إلى الشهادتين. وأشار المصنف -رحمه الله- بإيراد هذه الرواية إلى التنبيه على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، إذ معناها توحيد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه. فلذلك جاء الحديث مرة بلفظ "شهادة أن لا إله إلا الله" ومرة "إلى أن يوحدوا الله". ومرة "فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات". وذلك هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله...ومعنى الكفر بالطاغوت: هو خلع الأنداد والآلهة ـ التي تدعى من دون الله ـ من القلب، وترك الشرك بها رأسًا، وبغضه وعداوته. ومعنى الإيمان بالله: هو إفراده بالعبادة التي تتضمن غاية الحب بغاية الذل والانقياد لأمره، وهذا هو الإيمان بالله المستلزم للإيمان بالرسل -عليهم السلام-، المستلزم لإخلاص العبادة لله تعالى، وذلك هو توحيد الله تعالى ودينه الحق المستلزم للعلم النافع، والعمل الصالح، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، وحقيقة المعرفة بالله، وحقيقة عبادته وحده لا شريك له.

قال شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وقد علم بالاضطرار من دين الرسول -ﷺ- واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًا، والمباح دمه وماله معصومَ الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه، فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان.

وفيه: البداءة في الدعوة والتعليم بالأهم فالأهم، واستدل به من قال من العلماء: إنه لا يشترط في صحة الإسلام النطق بالتبري من كل دين يخالف دين الإسلام، لأن اعتقاد الشهادتين يستلزم ذلك ... ، وفي ذلك تفصيل.

وفيه: أنه لا يحكم بإسلام الكافر إلا بالنطق بالشهادتين.

قال شيخ الإسلام: فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها، وجماهير علمائها.

وفيه: أن الإنسان قد يكون قارئًا عالمًا وهو لا يعرف معنى لا إله إلا الله، أو يعرفه ولا يعمل به. نبه عليه المصنف.

وقال بعضهم: هذا الذي أمر به النبي -ﷺ- معاذًا، هو الدعوة قبل القتال التي كان يوصي بها النبي -ﷺ- أمراءه. قلت: فعلى هذا فيه استحباب الدعوة قبل القتال لمن بلغته الدعوة، أما من لم تبلغه فتجب دعوته.

قوله: (فإن هم أطاعوك لذلك) ، أي: شهدوا وانقادوا لذلك.

قوله: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات) فيه أن الصلاة ـ بعد التوحيد والإقرار بالرسالة ـ أعظم الواجبات وأحبها.

واستُدِلَ به على أن الكفار غير مخاطبين بالفروع؛ حيث دعاهم أولًا إلى التوحيد فقط، ثم دعوا إلى العمل ورتب ذلك عليها بالفاء، وأيضًا فإن قوله: "فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم"، يفهم منه أنهم لو لم يطيعوا لم يجب عليهم شيء.

قال النووي: وهذا الاستدلال ضعيف، فإن المراد أعلمهم بأنهم مطالبون بالصلوات وغيرها في الدنيا، والمطالبة في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة.

قال: ثم اعلم أن المختار أنّ الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، هذا قول المحققين والأكثرين.

قوله: "فإن هم أطاعوك لذلك"، أي: آمنوا بأن الله افترضها عليهم وفعلوها.

قوله: "فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم"، فيه دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلاة، وأنها تؤخذ من الأغنياء، وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي -ﷺ- الفقراء بالذكر ـ مع أنها تدفع إلى المجاهد والعامل ونحوهما وإن كانوا أغنياء ـ؛ لأن الفقراء - والله أعلم - هم أكثر من تدفع إليهم، أو لأن حقهم آكد.

وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع عن أدائها إليه أخذت منه قهرًا.

قيل: وفيه دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد كما هو مذهب مالك وأحمد. وعلى ما تقدم لا يكون فيه دليل.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا كافر، وأن الفقير لا زكاة عليه، وأن من ملك نصابًا لا يعطى من الزكاة من حيث إنه جعل المأخوذ منه غنيًا وقابله بالفقير.

ومن ملك النصاب فالزكاة مأخوذة منه فهو غني، والغنى مانع من إعطاء الزكاة إلا من استثني، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون، كما هو قول الجمهور لعموم قوله: من أغنيائهم.

قوله: "فإياك وكرائمَ أموالهم" هو بنصب كرائم على التحذير، والكرائم جمع كريمة، أي: نفيسة. قال صاحب " المطالع". وهي جامعة الكمال الممكن في حقها من غزارة لبن وجمال صورة، أو كثرة لحم وصوف. ذكره النووي.

وفيه أنه يحرم على العامل أخذ كرائم المال في الزكاة، بل يأخذ الوسط، ويحرم على صاحب المال إخراج شر المال، بل يخرج: الوسط، فإن طابت نفسه بإخراج الكريمة جاز.

قوله: "واتق دعوة المظلوم" أي: احذر دعوة المظلوم واجعل بينك وبينهم وقاية بفعل العدل وترك الظلم، لئلا يدعو عليك المظلوم.

وفيه: تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم إشارة إلى أن أخذها ظلم، ذكره الحافظ.

قوله: فإنه- أي الشأن - ليس بينها وبين الله حجاب. أي: لا تحجب عن الله تعالى، بل ترفع إليه فيقبلها وإن كان عاصيًا، كما في حديث أبي هريرة عند أحمد مرفوعًا: "دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه". وإسناده حسن، قاله الحافظ.

وقال أبو بكر بن العربي: هذا وإن كان مطلقًا، فهو مقيد بالحديث الآخر أن الداعي على ثلاث مراتب: إما أن يعجل له ما طلب، وإما أن يدخر له في الآخرة أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله.

وفي الحديث أيضًا: قبول خبر الواحد العدل ووجوب العمل به، وأن الإمام يبعث العمال لجباية الزكاة وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله، ويعلمهم ما يحتاجون إليه، وينهاهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته والتنبيه على التعليم بالتدريج، ذكره المصنف.

واعلم أنه لم يذكر في هذا الحديث ونحوه الصوم والحج، مع أن بعث معاذ كان في آخر الأمر كما تقدم، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس أن الرواة اختصر بعضهم الحديث وليس الأمر كذلك، فإن هذا طعن في الرواة، لأن هذا إنما يقع في الحديث الواحد مثل حديث عبد القيس ـ حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره ـ. فأما الحديثان المنفصلان، فليس الأمر فيهما كذلك، ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتان. ثم الصلاة، فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي، ولهذا لم يذكر وجوب الحج في عامة الأحاديث إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

قلت: وهذا من الأحاديث المتأخرة ولم يذكر فيها الجواب.

الثاني: أنه كان -ﷺ- يذكر في كل مقام ما يناسبه، فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام إن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصيام، فإما أن يكون قبل فرض الحج، كما في حديث عبد القيس ونحوه، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه.

وأما الصلاة والزكاة، فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما، لأنهما عبادتان ظاهرتان بخلاف الصوم، فإنه أمر باطن.

وهو مما ائتمن عليه الناس، فهو من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة: ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سرًا، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، بخلاف الصلاة والزكاة، وهو -ﷺ- يذكر في الإعلام الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها، فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصيام، وإن كان واجبًا كما في آيتي (براءة) فإن (براءة) نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصيام؛ ـ لأنه تبع وهو باطن ـ ولا ذكر الحج، لأن وجوبه خاص ليس بعام، وهو لا يجب في العمر إلا مرة واحدة. انتهى ملخصًا بمعناه.

قوله: ولهما عن سَهْل بن سَعْدٍ -رضي الله عنه-: أن رسول الله ﷺ قال يومَ خَيْبَر: «لأُعطِيَنَّ الرايةَ غدًا رجلًا يُحِبُّ اللهَ ورسولَه ويُحِبُّه اللهُ ورسولهُ يَفْتَحُ اللهُ على يديهِ»، فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلَتَهم: أَيُّهُمْ يُعطاها؟ فلما أصبحوا غَدَوْا على رسولِ الله ﷺ، كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: «أينَ عليُّ بن أبي طالب؟» فقيل: هو يَشتكي عينَيهِ: فأرسلوا إليه، فأُوتِيَ به، فبَصَقَ في عينَيه؛ ودَعَا لَهُ فَبَرَأَ كأنْ لم يكنْ به وَجَع، فأعطاهُ الراية، فقال: «انفُذْ على رِسْلِكَ حتى تَنْزلَ بساحَتِهم، ثم ادْعُهُم إلى الإِسلام، وَأَخْبِرْهُم بما يَجِبُ عليهم من حقِّ الله تعالى فيه، فوالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بك رجُلًا واحدًا، خيرٌ لكَ مِن حُمْرِ النَّعَم». «يدوكون»، أي: يخوضون.

قال شيخ الإسلام: هذا الحديث أصح ما روي لعلي -رضي الله عنه- من الفضائل. أخرجاه في " الصحيحين " من غير وجه.

قوله: (عن سهل). هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي أبو العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: (قال يوم خيبر)، أي: في غزوة خيبر.

وفي " الصحيحين " واللفظ لمسلم عن سلمة بن الأكوع قال: "كان علي -رضي الله عنه- قد تخلف عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في خيبر، وكان رمدًا، فقال:

أنا تخلفت عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فخرج علي -رضي الله عنه- فلحق بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله -عز وجل- في صباحها" قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "لأعطين الراية، أو ليأخذن بالراية غدًا رجل يحبه الله ورسوله أو قال: يحب الله ورسوله يفتح الله عليه فإذا نحن بعلي وما نرجوه. فقالوا: هذا علي: فأعطاه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الراية، ففتح الله عليه".

وهذا يبين أن عليًا -رضي الله عنه- لم يشهد أول خيبر، وأنه -عليه السلام- قال هذه المقالة مساء الليلة التي فتحها الله في صباحها.

قوله: "لأعطين الراية". قال الحافظ في رواية بريدة: "إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله". والراية بمعنى اللواء، وهو العلم الذي يحمل في الحرب، يعرف به موضع صاحب الجيش وقد يحمله أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر. وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما.

قوله: "يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله". فيه فضيلة عظيمة لعلي -رضي الله عنه- لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- شهد له بذلك، ولكن ليس هذا من خصائصه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصًا بعلي ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله.

لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب الذي يتبرؤون منه ولا يتولونه، بل لقد يكفرونه أو يفسقونه كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، لكن هذا باطل فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم أنه يموت كافرًا.

وفيه: إثبات صفة المحبة لله.

وفيه: إشارة إلى أن عليًا تام الاتباع لرسول الله -ﷺ- حتى أحبه الله، ولهذا كانت محبته علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق ذكره الحافظ بمعناه.

قوله: "يفتح الله على يديه". صريح في البشارة بحصول الفتح على يديه، فكان الأمر كذلك، ففيه دليل على شهادة أن محمدًا رسول الله. وفي فتح المجيد: فهو علم من أعلام النبوة.

قوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم)، هو بنصب " ليلتهم " على الظرفية، ويدوكون. قال المصنف: يخوضون. والمراد أنهم باتوا تلك الليلة في خوض واختلاف فيمن يدفعها إليه، وفيه حرص الصحابة على الخير ومزيد اهتمامهم به، وذلك يدل على علو مراتبهم في العلم والإيمان.

قوله: أيهم يعطاها. هو برفع " أي " على البناء.

قوله: "فلما أصبحوا غدوا على رسول الله -ﷺ- كلهم يرجو أن يعطاها".

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم: "أن عمر قال: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ ".

فإن قلت: إن كانت هذه الفضيلة لعلي -رضي الله عنه- ليست من خصائصه؛ فلماذا تمنى بعض الصحابة أن يكون له ذلك؟

قيل الجواب كما قال شيخ الإسلام أن في ذلك شهادة النبي -ﷺ- لعلي بإيمانه باطنًا وظاهرًا، وإثبات لموالاته لله ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبي -ﷺ- لمعين بشهادة أو دعا له بدعاء أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي -ﷺ- يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو به لخلق كثير، وكان تعيينه لذلك المعين من أعظم فضائله ومناقبه، وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس، وعبد الله بن سلام وغيرهما، ـ وإن كان قد شهد بالجنة لآخرين ـ، والشهادة لمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر.

قلت: وفي هذه الجملة أيضًا حرص الصحابة على الخير.

قوله: فقال: "أين علي بن أبي طالب؟ .

قال بعضهم: كأنه -ﷺ- استبعد غيبته عن حضرته في مثل ذلك الموطن، لا سيما وقد قال: لأعطين الراية.. إلى آخره. وقد حضر الناس وكلهم طمع بأن يكون هو الذي يفوز بذلك الوعد. وفيه سؤال الإمام عن رعيته وتفقده أحوالهم وسؤاله عنهم في مجامع الخير.

قوله: (فقيل له: هو يشتكي عينيه) ، أي: من الرمد كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال: ادعوا لي عليًا، فأتي به أرمد فبصق في عينيه.

قوله: قال: فأرسلوا إليه. بهمزة قطع، أمر من الإرسال، أمرهم بأن يرسلوا إليه فيدعوه له. ولمسلم من طريق إياس بن سلمة عن أبيه قال: فأرسلني إلى علي ... ، فجئت به أقوده ... أرمد ... ، فبصق في عينيه فبرأ.

قوله: فبصق ، بفتح الصاد، أي: تفل.

قوله: ودعا له فبرأ. وهو بفتح الراء والهمزة، بوزن ضرب، ويجوز الكسر بوزن علم، أي: عوفي في الحال عافية كاملة، كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر أصلاً.

قوله: فأعطاه الراية. قال المصنف: فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع، ومنعها عمن سعى، وفيه التوكل على الله، والإقبال بالقلب إليه، وعدم الالتفات إلى الأسباب، وإن فعلها لا ينافي التوكل.

قوله: وقال انفُذ على رسلك. أما انفذ فهو بضم الفاء، أي: امض لوجهك. ورسلك: ـ بكسر الراء وسكون السين ـ، أي: على رفقك ولينك من غير عجلة، يقال لمن يعمل الشيء برفق. وساحتهم: فناء أرضهم، وهو حواليها.

وفيه: الأدب عند القتال، وترك الطيش والأصوات المزعجة التي لا حاجة إليها، وفيه: أمر الإمام عماله بالرفق واللين من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة كما يشير إليه قوله: حتى تنْزل بساحتهم.

قوله: ثم ادعهم إلى الإسلام، أي: الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ومن هذا الوجه طابق الحديث الترجمة.

وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: فدعا رسول الله -ﷺ- عليّ بن أبي طالب، فأعطاه الراية. وقال: امش ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك. فسار علي شيئًا ثم وقف ولم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ فقال: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.

وفيه: أن الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله، المراد بها الدعوة إلى الإخلاص بها وترك الشرك وإلا فاليهود يقولونها، ولم يفرق النبي -ﷺ- في الدعوة إليها بينهم

وبين من لا يقولها من مشركي العرب، فعلم أن المراد من هذه الكلمة هو اللفظ بها، واعتقاد معناها، والعمل به.... وذلك هو معنى قوله: ثم ادعهم إلى الإسلام الذي هو الاستسلام لله تعالى، والانقياد له بفعل التوحيد وترك الشرك.

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداء، لأن النبي -ﷺ- أغار على بني المصطلق وهم غارون، وتستحب دعوتهم لهذا الحديث وما في معناه، وإن كانوا لم تبلغهم وجبت دعوتهم.

وقوله: وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. أي: في الإسلام، أي: إذا أجابوا إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقوقه التي لا بد من فعلها، كالصلاة، والزكاة، وهذا كقوله في حديث أبي هريرة: فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها. وحاصله أنهم إذا أجابوا إلى الإسلام الذي ـ هو التوحيد ـ فأخبرهم بما يجب عليهم بعد ذلك من حق الله تعالى في الإسلام من الصلاة والزكاة والصيام والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام الظاهرة وحقوقه؛ فإن أجابوا إلى ذلك فقد أجابوا إلى الإسلام حقًا، وإن امتنعوا عن شيء من ذلك فالقتال باق بحاله إجماعًا. فدل على أن النطق بكلمتي الشهادة دليل العصمة لا أنه عصمة، أو يقال: هو العصمة لكن بشرط العمل.

وفيه: أن لله تعالى حقوقًا في الإسلام من لم يأت بها لم يكن مسلمًا، كإخلاص العبادة له والكفر بما يعبد من دونه.

وفيه: بعث الإمام الدعاة إلى الله، كما كان النبي -ﷺ- وخلفاؤه الراشدون يفعلون. وفيه تعليم الإمام أمراءه وعماله ما يحتاجون إليه.

قوله: فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم.

أن: هي المصدرية، واللام قبلها مفتوحة، لأنها لام القسم، ومدخولها مسبوك بمصدر مرفوع على أنه مبتدأ خبره خير. وحمر بضم المهملة وسكون الميم. والنعم بفتح النون والعين المهملة. أي: خير لك من الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء. قيل: المراد خير من أن تكون لك فتتصدق بها. وقيل تقتنيها وتملكها. قلت: هذا هو الأظهر، والأول لا دليل عليه. أي أنكم تحبون متاع الدنيا، وهذا خير منه.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرة من الآخرة خير من الأرض بأسرها، وأمثالها معها.

وفيه فضيلة الدعوة إلى الله، وفضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الفتيا والقضاء والخبر، والحلف من غير استحلاف.

باب (٦) تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قوله: «باب: تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله»

قال ابن قاسم: عطف الشهادة على التوحيد من عطف الدال على المدلول؛ فإن التوحيد هو معنى لا إله إلا الله ومدلولها مطابقة، يعني باب بيان إيضاح التوحيد، توحيد الإلهية والعبادة؛ لأنه هو المقصود بالذات من تصنيف الكتاب، وبيان مدلول شهادة ألا إله إلا الله من النفي والإثبات، وما تضمنته من إخلاص العبادة لله وحده دون ما سواه، فالتفسير تارة بذكر ما تحت اللفظ من معنى، وتارة بذكر الضد والمنافي.

فإن قيل: قدم في أول الكتاب ما يبين معنى لا إله إلا الله وما تضمنته من التوحيد، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: في هذه الآيات التي في هذا الباب بخصوصها مزيد بيان لمعنى كلمة الإخلاص، وما دلت عليه من توحيد العبادة، والحجة على من تعلق على الأولياء والصالحين..

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾» [الإسراء:٥٦-٥٧].

أخبر تعالى في هذه الآيات أن الذين يدعونهم من الملائكة والأنبياء والصالحين لا يملكون كشف الضر عمَّن دعاهم - أي إزالته - بالكلية ولا تحويله من مكان إلى مكانٍ ولا من صفة إلى صفة. وتحويلاً: نكرة تعمُّ جميع أنواع التحويل، وأنهم: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء:٥٧].

والذي يدعوهم قد عكس الأمر وطلب منهم ما لا قدرة لهم عليه.

وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

وروى البخاري عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم. أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠).

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: عيسى وأمه وعزير والشمس والقمر.

وقال مجاهد: عيسى وعزير والملائكة.

قال شيخ الإسلام [قاعدة التوسل ٧٩]: «وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم كل من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو البشر، والسلف يذكرون في تفسيرهم جنس المراد بالآية على نوع التمثيل كما يقول الترجمان لمن سأله: عن معنى الخبز؟ فيريه رغيفاً فيقول هذا، فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية للنوعين، فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه». انتهى.

وفي هذه الآية الرد على من يدعو صالحاً ويقول أنا لا أشرك بالله شيئاً، الشرك عبادة الأصنام.

قوله: «وقول الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾» [الزخرف:٢٦-٢٨].

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان. فقال: إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرني، فعبَّر عن هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله بمعناها الذي دلَّت عليه ووضعت له من البراءة من كل ما يُعبد من دون الله كالكواكب والأصنام والأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون، فعبر عن المنفي بها بقوله إنني براء مما تعبدون، وعبَّر عما أثبته بقوله إلا الذي فطرني، فلم يستثن في المعبودات إلا الذي فطره. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ لدينه.

قوله: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ يعني كلمة التوحيد لا إله إلا الله كلمة باقية في عقبه أي في ذريته.

قال قتادة: لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده لعلهم يرجعون إليها.

وقال السدي: لعلهم يتوبون ويرجعون إلى طاعة الله -عز وجل-.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] الآية .

الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العبّاد، أي اتخذوا علماءهم وعبّادهم أرباباً من دون الله في اتباعهم في تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرّم. وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وكان عدي من متنصرة العرب. فإن العرب قبل مبعث النبي ﷺ منهم من تنصَّر، ومنهم من تهوَّد، ومنهم من تمجَّس، ومنهم من بقي على وثنيته، فكان عدي من متنصرة العرب، ولما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. قال: «بلى، إنهم حرّموا عليهم الحلال، وحلّلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم». رواه أحمد والترمذي وحسّنه.

أخرجه أحمد (٤/ ٣٧٨)، والترمذي (٣٠٩٥)، وحسنه ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧) والألباني في غاية المرام برقم (٦).

قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ٧/ ٧٠]: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرّم الله، وتحريم ما أحل الله، يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً.

وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكأن من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف الدين واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف».انتهى. أخرجه البخاري (٤٣٤٠، ٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١] أي اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فيسمي الله طاعتهم في معصيته عبادة لهم وسمّاهم أرباباً. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ﴾ [آل عمران:٨٠].

وقد عظمت الفتنة بالشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنة والسنة بدعة، نشأ على هذا الصغير وهرِمَ عليه الكبير، كما جاء في الحديث: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء، الذين يصلحون إذا فسد الناس» - وفي رواية -: «يصلحون ما أفسد الناس».

قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

الأنداد: الأمثال والنظراء. قاله غير واحد من المفسرين.

قال ابن كثير -رحمه الله- [التفسير ١/ ١٣٥٢]: «يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أنداداً، أي أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه وهو الله لا إله إلا هو، ولا صنو له ولا ند له ولا شريك له».

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك» الحديث.

وقوله: «﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾».

قال شيخ الإسلام: في قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥] قولان:

أحدهما: أنهم يحبونهم كما يحبون الله فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله أندادهم. والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله.

ثم بيّن تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

قال ابن القيم: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح القول الأول، ويقول: إنما ذموا بأن شرّكوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له كما أخبر الله عنهم وهم في النار، أنهم يقولون لآلهتهم وأنداداً وهي محضرة معهم في العذاب:

﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ومعلوم أنهم ما سوّوهم به في الخلق والربوبية وإنما سوّوهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا الشاهد من الآية للترجمة.

قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ والمراد بالظلم هنا الشرك .

كقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢].

وقوله: ﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:١٦٥] .

قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أن القوة لله جميعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه، وإن الله شديد العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦].

وقوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾. كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾- يعني الشياطين والمردة والدُعاة إلى الكفر.

﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَـٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٦٣] . فشهدوا عليهم أنهم أغووهم ثم تبرأوا من عبادتهم.

قوله: «في الصحيح» أي صحيح مسلم (٢٣) عن أبي مالك الأشجعي واسمه سعد بن طارق كوفي، فقد مات في حدود الأربعين، عن أبيه طارق بن أشيم بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر، ابن مسعود الأشجعي صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يروِ عنه غير ابنه. «عن النبي ﷺ » أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله -عَزَّوَجَلَّ-»

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله»: اعلم أن النبي ﷺ علَّق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين:

الأول: قول لا إله إلا الله عن علم ويقين، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث.

الثاني: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى بل لابد من قولـها والعمل بها.

وفيه: معنى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]. قاله «في فتح المجيد».

وفيه: أكبر المسائل وأهمها وهو تفسير التوحيد وتفسير الشهادتين وبَيَّنها بأمور واضحة. منها: آية الأسرى، بيَّن فيها الرد على المشركين الذي يدعون الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبيَّن أنهم لم يُؤمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعائهم إياهم.

ومنها: قول الخليل -عليه السلام- للكفار: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧].

فاستثنى من المعبودين ربه، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٨].

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدلّ على أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يدخلهم في الإسلام فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله؟.

ومنها: قولـه ﷺ: «من قال لا إله الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله». وهذا من أعظم ما يبيّن معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم

والمال؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك: الكفر بما يُعبد من دون الله، فإنْ شكَّ أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها! ويا له من بيان ما أوضحه وحجة ما أقطعها للمنازع! قاله المصنف -رحمه الله-.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ٢٨/ ٥٠٢]: «كل طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات أو الزكاة، أو الصيام، أو الحج، أو عن تحريم الدماء والأموال، أو الخمور، أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو غير ذلك من واجبات الدين أو محرماته التي يكفر الواحد بجحدها تُقاتَل وإن كانت مقرة بها، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء، وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام». انتهى ملخصاً.

وقد أجمع العلماء على أن من قال لا إله إلا الله ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها أنه يُقاتل حتى يعمل بما دلَّت عليه من النفي والإثبات.

قال الخطابي [معالم السنن ٢/ ١١] في قولـه: «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان دون أهل الكتاب؛ لأنهم يقولون لا إله إلا الله ثم يقاتلون، ولا يرفع عنهم السيف. وقال القاضي عياض: «اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب من أهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقول لا إله إلا الله إذا كان يقولـها في كفره». انتهى ملخصاً.

قولـه: «وحسابه على الله -عز وجل-» أي الله تعالى هو الذي يتولَّى حسابه فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذَّبه العذاب الأليم. وأما في الدنيا فالحكم على

الظاهر، فمن أتى بالتوحيد والتزم شرائعه ظاهرا وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

قال في التيسير: وفيه: وجوب الكف عن الكافر إذا دخل في الإسلام ولو في حال القتال حتى يتبين منه ما يخالف ذلك.

وفيه: أن الإنسان قد يقول لا إله الا الله ولا يكفر بما يعبد من دون الله.

وفيه: أن شرط الايمان الاقرار بالشهادة والكفر بما يعبد من دون الله مع اعتقاد ذلك واعتقاد جميع ما جاء به الرسول ﷺ وفيه أن أحكام الدنيا على الظاهر وأن مال المسلم ودمه حرام إلا في حق كالقتل قصاصًا ونحوه وتغريمه قيمة ما يتلفه.

قوله: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب» وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه بيان التوحيد وما يوضح معنى لا إله إلا الله، وبيان أشياء كثيرة من الشرك الأكبر والأصغر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع مما تركه من مضمون لا إله إلا الله، فمن عرف ذلك وتحققه تبيَّن له معنى لا إله إلا الله وما دلَّت عليه من الإخلاص ونفي الشرك. انتهى.

باب (٧) من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما

قولـه: «باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما»

من هنا بدأ المصنف -رحمه الله- في بيان ما وعد به في قولـه «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب» فذكر شيئاً فما يضاد التوحيد من أنواع الشرك الأكبر وما ينافي كماله من الشرك الأصغر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع مما تركه من مضمون لا إله إلا الله فبدأ بالشرك الأصغر الاعتقادي ترقيًا من الأدنى إلى الأعلى.

مقصود الترجمة: لَمَّا ذكر المصنف في الباب السابق معنى «لا إله إلا الله»، وتفسير التوحيد؛ ناسب أن يذكر في هذا الباب وبعده أنواعًا من الشرك الأصغر والأكبر، وهذا في غاية المناسبة؛ إذ إِنَّ الشيء بعد أن يُعَرَّف يُؤْتَى بأنواعه وأشكاله.

قال العلامة السعدي رحمه الله: «هذا الباب يتوقف فهمه على معرفة أحكام الأسباب، وتفصيل القول فيها: أنه يجب على العبد أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن لا يجعل منها سببًا إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره لا خروج لها عنه».

قال ابن قاسم: من تبعيضية، ولبس بضم اللام...والحلقة هي: كل شيء استدار من صفر وغيره، والخيط ونحوهما: كالودعة والتميمة والمسمار والخرزة ونحو ذلك، لرفع البلاء: إزالته بعد نزوله، أو دفعه: منعه قبل نزوله.

ويجمع ذلك شيء واحد، وهو الطلب من غير الله ما لا يقدر عليه إلا الله، واتخاذ تلك الأشياء ونحوها من أعمال الجاهلية، وكانوا يعلقونها على أولادهم ودوابهم، وذلك ينافي التوحيد بالكلية، أو ينافي كماله؛ لأن الشافي الكافي من كل شيء هو الله سبحانه، وطلب الشفاء والبركة بالحلق والخيوط وغيرها هضم لجناب التوحيد.

ولبسها على قسمين: اعتقاد أنه سبب، فشرك أصغر، أو يدفع أو ينفع فشرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن هنا متصرفا بالنفع والضر غير الله.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] أي مرض أو فقر أو بلاء أو شدة.

﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي لا يستطيعون ذلك ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ أي: الله كافيني ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾.

والشاهد من هذه الآية: أن هذه الأصنام لا تنفع أصحابها لا بجلب نفع ولا بدفع ضر؛ فليست أسبابا لذلك، فيقاس عليها كل ما ليس بسبب شرعي أو قدري؛ فيعتبر اتخاذه سببا إشراكا بالله.

قولـه: «وعن عمران بن حصين» بن عبيد بن خلف الخزاعي أبو نجيد، بنون وجيم مصغر، صحابي ابن صحابي، أسلم عام خيبر ومات سنة اثنين وخمسين بالبصرة.

«أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر» هو عمران بن حصين راوي الحديث، كما رواه الحاكم قال: دخلت على رسول الله ﷺ وفي يدي حلقة من صفر.

«فقال: «ما هذه؟»» يحتمل أن يكون الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها، ويحتمل أن يكون للإنكار وهو أظهر.

«قال من الواهنة» وهي عرق يأخذ بالمنكب وفي اليد كلها فيرقى منها، وقيل: هو مرض يأخذ في العضد وربما علق عليها جنس من الخرز يقال له خرز الواهنة وهي تأخذ الرجال دون النساء .

«فقال النبي ﷺ: «انزعها» فأمره بنزعها. والنزع الجذب بقوة.

«فإنها لا تزيدك إلا وهناً» قال العلامة ابن عثيمين: أي: وهنًا في النفس لا في الجسم، وربما تزيده وهنًا في الجسم، أما وهن النفس؛ فلأن الإنسان إذا تعلقت نفسه بهذه الأمور ضعفت واعتمدت عليها، ونسيت الاعتماد على الله عزوجل ... فأحيانا يتوهم الصحيح أنه مريض فيمرض ... ولهذا تجد بعض الذين يصابون بالأمراض النفسية يكون أصل إصابتهم ضعف النفس من أول الأمر، حتى يظن الإنسان أنه مريض بكذا أو بكذا، فيزداد عليه الوهم حتى يصبح الموهوم حقيقة.

«فإنك لو مِت وهي عليك ما أفلحت أبداً» والفلاح والفوز والظفر والسعادة، أي ما فزت ولا ظفرت ولا سعدت.

وفيه: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك، وأن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح أبداً. وفيه: شاهدٌ لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة، وأنها لا تنفع في العاجل بل تضر، لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً» والإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك والتصريح بأن من تعلّق شيئاً وُكِلَ إليه. قاله المصنف رحمه الله.

وقوله: «رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به» أخرجه أحمد (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه (٣٥٣١)، ضعفه الألباني في «الضعيفة» برقم (١٠٢٩).

وقد يحسن للشواهد المعنوية له كما في تحقيق المسند(٣١/ ٨٧) و(٣٣/ ٢٠٤)

الإمام أحمد: وهو أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل، إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة، يقول في حقه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشُّبه فنفاها. ولد ببغداد سنة أربع وستين ومائة، ومات سنة إحدى وأربعين ومائتين، وله سبع وسبعون سنة.

قوله: «وله: -أي الإمام أحمد- عن عقبة بن عامر» وهو صحابي مشهور فقيه فاضل، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات قريباً في الستين.

قوله: «مرفوعاً - أي إلى النبي - ﷺ -«من تعلَّق تميمة فلا أتمَّ الله له، ومن تعلَّق ودعة فلا ودع الله له». رواه أيضاً أبو يعلى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي. أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، وابن حبان (١٤١٣)، والحاكم (٤/ ٢١٦)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٧٠٣) وفي «الضعيفة» (١٢٦٦) وشيخنا مقبل الوادعي في «تتبعه لأوهام الحاكم في المستدرك» (٤/ ٣٤١). وفيه: خالد بن عبيد المعافري فيه جهالة لكن تابعه ابن لهيعة كما في فتوح مصر لابن عبد الحكم(ص ٢٨٩). فالحديث حسن لغيره.

والتميمة: جمعها تمائم، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادها يتقون بها العين على زعمهم.

وقوله: «فلا أتم الله له» مقصوده: ومن تعلق ودعة بفتح الواو وسكون الدال المهملة قال في مسند الفردوس: شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين.

قوله: «فلا ودع الله له» أي لا جعله في دعة ولا سكون. وقيل: لا خفَّف اللهُ عنه ما يجده ولا آمنه مما يخافه، وهذا دعاءٌ عليه.

قوله: «وفي رواية: من تعلق تميمة فقد أشرك» رواه أحمد أيضاً عن عقبة بن عامر الجهني أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهطٌ فبايع تسعة وأمسك عن واحد.

فقالوا: يا رسول الله، بايعتَ تسعة وأمسكت عن هذا، فقال: «إن عليه تميمة» فأدخل يده فقطعها فبايعه. وقال: «من تعلق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات. أخرجه الحاكم (٤/ ٢١٩)، وأحمد (٢٨/ ٦٣٧) الرسالة رقم (١٧٤٢٢)، وقال المحقق: إسناده قوي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٩٤) وفي «الصحيحة» (٤٩٢)، وشيخنا مقبل الوادعي رحمه الله في «الصحيح المسند» (٢/ ٣٥).

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة: وهي أن تعليق التميمة والودعة ونحوهما؛ لأجل رفع البلاء أو دفعه شرك، كما جاء ذلك صريحًا في الرواية الثانية للحديث.

«ولابن أبي حاتم» وهو الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي التميمي صاحب «الجرح والتعديل» و«التفسير» وغيرهما، مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

«عن حذيفة» بن اليمان واسمه حُسيل بمهملتين مصغراً، ويقال حِسل بكسر ثم سكون، حليف الأنصار صحابي جليل من السابقين، ويقال له صاحب السر، وأبوه أيضاً صحابي،مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين.

قوله: «أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى» أي من أجل الحمى، وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى. والأصح في هذا الأثر ما أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٧٣) عن حذيفة أنه دخل على رجل يعوده فوجد في عضده خيطًا، قال: ما هذا؟ فقال: خيط رقي لي فيه، فقطعه ثم قال: لو مت ما صليت عليك.

وفيه: إنكار مثل هذا وإن كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله ورسوله مع عدم الاعتماد عليها، وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل وإن لم يأذن فيه صاحبه.

«وتلا حذيفة قول الله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

الأثر الذي ذكره المصنف وفيه تلاوة الآية فيه انقطاع.

باب(٨) ما جاء في الرقى والتمائم

قولـه: «باب ما جاء في الرُّقى والتمائم» أي: من النهي عن ما لا يجوز منها.

ومقصود الترجمة: بيان حكم الرُّقَى والتمائم، ولم يجزم في الترجمة بأن ذلك من الشرك؛ لأن الرقى منها ما هو جائزٌ، ومنها ما هو شركٌ، وكذلك التمائم اختلف في بعض أنواعها كتعليق القرآن والأدعية المأثورة كما سيأتي بيانه.

ومناسبته لما قبله: أنه مكمل له في ذكر أنواع أخرى من الشرك الأصغر.

قولـه: «في الصحيح عن أبي بشير» - بفتح الموحدة وكسر المعجمة - «الأنصاري» واسمه قيس بن عبيد. قاله ابن سعد.

وقال ابن عبد البر: «لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي شهد الخندق ومات بعد الستين، ويقال: إنه جاوز المائة -رضي الله عنه-.

«أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره » قال ابن حجر: لم أقف على تعيينه.

«فأرسل رسولاً» هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده.

قاله الحافظ ابن حجر. [الفتح ٦/ ١٤١].

وقولـه: «أن لا يبقَيَن» بفتح الياء والقاف، ويحتمل أن يكون بضم الياء المثناة وكسر القاف. «في رقبة بعير قلادة من وَ تَـر » بفتحتين واحد أوتار القوس. وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين، فأمر النبي ﷺ بقطع الأوتار التي عُلقت على الإبل لما كان أهل الجاهلية يعتقدونه فيها.

وقولـه: «أو قلادة إلا قطعت» يحتمل أن ذلك شك من الراوي، ولأبي داود «ولا قلادة» بغير شك، فعلى هذه الرواية تكون «أو» بمعنى الواو.

قال البغوي في «شرح السنة» [١١/ ٢٧]: تأول مالك أمره -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بقطع القلائد على أنه من أجل العين؛ وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ يظنون أنها تعصمهم من الآفات فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أن الأوتار لا ترد من أمر الله شيئاً.

قال سليمان الحمدان: ومن هذا ما يفعله بعض الجهال من وضع رأس حمار ميت على باب بستانه أو شجرة صبار أو نعل قديمة على باب بيته لدفع العين، وما يفعله بعض النساء من وضع رسم صليب على جبهة ولدها، وهذا كله من الشرك الأصغر الاعتقادي المحرم، ولا يرد من قدر الله شيئاً.

ومناسبة الحديث للباب: هي أن القلائد التي تعلق على رقبة البعير من التمائم المنهي عنها؛ ولهذا جاء الأمر بقطعها.

قوله: «وعن ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد وأبو داود». أخرجه أبوداود (٣٨٨٣)، وأحمد (١/ ٣٨١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢/ ٧٣٥-٧٣٦) رقم (٣٢٨٨).

فالرقى الموصوفة بكونها شركاً هي الرقى التي فيها شرك من دعاء غير الله أو الاستغاثة أو الاستعاذة به وكالرقى بأسماء الملائكة والأولياء والجن ونحو ذلك.

قوله: «والرقى» هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة، كالرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستغاثة به وحده لا شريك له فليست ممنوعة بل جائزة أو مستحبة، كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك قال: كنا نرقى في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف ترى في ذلك ؟ فقال: «أعرضوا عليَّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك».

أخرجه مسلم (٢٢٠٠).

وفيه: عن أنس -رضي الله عنه- قال: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من العين والحُمَة والنملة.

أخرجه البخاري (٥٧٤١)، ومسلم (٢١٩٦).

وقد رقى جبريل النبي ﷺ، ورقى النبي أصحابه.

قال الخطابي [معالم السنن ٤/ ٢٢٦]: «وكان -عليه السلام- قد رَقَى ورُقِـي، وأمر بها وأجازها. فإذا كانت بالقرآن أو بأسماء الله تعالى فهي مباحة أو مأمور بها. وإنما جاءت الكراهة والمنع، فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله الشرك.

قال: ويحتمل أن يكون الذي يكره منها ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون ذلك من قبل الجن ومعونتهم». انتهى.

وقال شيخ الإسلام: «كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به، فضلاً عن أن يدعو به ولو عُرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يُرخَّص لمن لا يعرف العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام» انتهى.

وقال السيوطي: «أجمع العلماء على جواز الرقى، عند اجتماع ثلاثة شروط:

❋ أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.

❋ وباللسان العربي وبما يعرف معناه.

❋ وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى».

قوله: «والتِّوَلَة» بكسر المثناة وفتح الواو مخففة، شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته، بهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث وهو ضرب من السحر.

وقوله: «شرك» هنا خبر إن، وإنما كانت هذه الأمور شركاً لأنهم أرادوا بها دفع المقادير المكتوبة ودفع الضر وجلب النفع من غير الله تعالى، وهذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد وهو أكبر من الكبائر.

قوله: «رواه أحمد» وتقدّمت ترجمته، «وأبو داود»: وهو سليمان بن الأشعث ابن إسحاق الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد ومصنف «السنن» و«المراسيل» وغيرهما، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين -رَحِمَهُ اللهُ-.

قوله: «وعن عبدالله بن عُكيم» بضم العين المهملة وفتح الكاف مصغراً، يكنى أبا سعيد الجهني، قال البخاري: أدرك النبي ﷺ ولم يعرف له سماع صحيح.

قال الخطيب: سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات في ولاية الحجاج.

قوله: «مرفوعاً -أي إلى النبي ﷺ- «من تعلّق شيئاً وُكل إليه» رواه أحمد (٤/ ٣١٠، ٣١١) والترمذي (٢٠٧٢). والحاكم (٤/ ٢١٦)، وحسّنه الألباني في غاية المرام (٢٩٧).

أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلّقه، والتعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه. قاله في «قرة العيون». فمن تعلق بالله وأنزل حوائه به والتجأ إليه وفرض أمره إليه كفاه ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره وكله الله إلى ذلك وخذله.

قوله: «والتمائم شيء يُعلَّق على الأولاد عن العين» وهذا في الغالب وإلا فلا فرق بين تعليقها على الأولاد أو الرجال أو النساء أو الدواب أو البيوت أو البساتين، ولا فرق في الشيء المعلق بين أن يكون حلقاً أو خيوطاً أو ودعاً أو خرزاً أو غير ذلك مما اعتيد تعليقه عن العين، وكل هذا ونحوه من التمائم محرم لا يجوز؛ لأنه من الشرك الأصغر الاعتقادي، وهو أكبر من الكبائر.

قوله: «لكن إذا كان المعَلَّقُ من القرآن فرخص فيه بعض السلف» وحملوا الحديث على التمائم الشركية.

«وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود» وابن عباس وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عُكيم -رضي الله عنهم-، وبه قال جماعة من التابعين منهم أصحاب عبدالله بن مسعود وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم به المتأخرون واحتجوا بالحديث وما في معناه، فإن ظاهره العموم لم يفرق النبي ﷺ بين التي من القرآن وغيرها، بخلاف الرقى فقد فرق فيها.

قال في «فتح المجيد»(١/ ٢٤٤): «هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل: الأول: عموم النهي، ولا مُخَصِّص للعموم. الثاني: سدُّ الذريعة، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك. الثالث: أنه إذا عُلِّق فلابد أن يمتهنه المعَلِّق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك». انتهى. وإذا كان هذا اختلاف العلماء في تعليق القرآن وأسماء الله وصفاته، فما ظنك بما حدث من تعليق أسماء الشياطين والتعلق عليهم والاستعاذة بهم والذبح لهم وسؤالهم كشف الضر وجلب النفع مما هو شرك أكبر محض. فالله المستعان.

قوله: «وروى الإمام أحمد عن رويفع» بن ثابت بن السكن بن عدي بن الحارث الأنصاري نزل مصر وولي برقة، قال عبد الغني: ولي طرابلس وافتتح أفريقية سنة سبع وأربعين.

وقال يونس: توفي ببرقة سنة ست وخمسين وله ثمانية أحاديث.

«قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا رُويفع لعلّ الحياة ستطول بك» فيه علم من أعلام النبوة، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها وهو من الأنصار. وقيل مات سنة ثلاث وخمسين.

قوله: «فأخبر الناس» دليلٌ على وجوب إخبار الناس وليس هذا مختصاً برويفع بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إلى الناس وجب إعلامهم به فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زرعة.

قوله: «أن من عقد لحيته» بكسر اللام لا غير. قال الخطابي: «وأما نهيه عن عقد اللحية فإن ذلك يفسر على وجهين: أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زيِّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها تكبراً وعجباً.

ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث.

وقال أبو زرعة العراقي: «الأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة كما دل عليه رواية محمد بن الربيع». وفيه: أن من عقد لحيته في الصلاة أو تقلد وتراً يريد تميمة فيه أنه شرك لما كانوا يقصدونه بتقليده.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً بريءٌ منه».

أي من فعله. قاله النووي. وهذا خلاف الظاهر، والنووي كثيراً ما يتأوّل الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله له. قاله في «فتح المجيد»(١/ ٢٤٩-٢٥٠).

وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة، منها:

ما رواه مسلم عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً «لا تستنجوا بالروث والعظام، فإنه زاد إخوانكم من الجن» أخرجه مسلم (٤٥٠) بنحوه.

قوله: «وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة، رواه وكيع» أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٢٤). هذا عند أهل العلم له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يُقال بالرأي. فيكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعي.

قاله في «فتح المجيد» (١/ ٢٥٠).

وتعقّبه في «إبطال التنديد» (٧٠-٧١) بأن هذا الحكم عندهم لما أتى عن الصحابة على أن فيه خلافاً، أما ما جاء عن التابعين من هذا فلم يقل بذلك إلا قليل.

وقوله: «رواه وكيع» وهو ابن الجراح الكوفي ثقة إمام صاحب تصانيف منها «الجامع» وغيره، روى عنه الإمام أحمد وطبقته، مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قوله: «وله» أي لوكيع «عن إبراهيم» بن يزيد النخعي الكوفي، يُكنى أبا عمران، ثقة من كبار الفقهاء، قال المزي: دخل على عائشة ولم يثبت له سماع منها، مات سنة ست وتسعين وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: «كانوا» يعني أصحاب عبد الله بن مسعود كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد وعبيدة السلماني ومسروق والربيع بن خيثم وسويد بن غفلة وغيرهم من سادات التابعين في زمانهم «يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن» وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم.

قلت: والكراهة عند السلف كراهة التحريم كما هو المعروف في نصوص الكتاب والسنة لا كراهة التنزيه المصطلح عليها عند متأخري الفقهاء.

وفيه: معرفة تفسير الرقى والتمائم وتفسير التولة وأن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء، وأن الرقية بالكلام الحق من العين والحمه ليس من ذلك، وأن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف فيها العلماء هل هي من ذلك أم لا، وأن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك والوعيد الشديد على من تعلق وتراً وفضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، وأن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف؛ لأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٩) من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما

قولـه: «باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما» كبقعة وقبر ومشهد ونحو ذلك.

و «من» اسم شرط والجواب محذوف تقديره فقد أشرك. يقال: تبرك يتبرك تبركاً إذا طلب البركة أو رجاها أو اعتقدها. فالتبرك في اللغة: طلب البركة، والبركة: النماء والزيادة، وفي الشرع: ثبوت الخير الإلهي في الشيء. والبركة نوعان:

أحدهما: بركة هي وصف الرب تعالى تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل، منها تبارك قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف:٥٤] ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك:١]

والثاني: بركة هي فعل الرب تعالى وتقدّس، والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة وبأداة (على) تارة وبأداة (في) تارة، والمفعول منها مبارك وهو ما جعل منها كذلك، وكان مباركاً بجعله تعالى، يقال: بارك يبارك بركة، قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [فصلت:١٠] وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١].

والتبرك ينقسم إلى قسمين:

الأول: التبرك المشروع وهو أنواع:

النوع الأول: التبرك بذات النبي - ﷺ -، وما انفصل من جسده، من شعرٍ، أو عَرَقٍ، أو لباسٍ، وما استعمله من ماءٍ أو إناءٍ، ونحو ذلك. فإنَّ كل ذلك مباركٌ، يجوز التبرك به. وقد دلت الأدلة على ذلك، وهذا خاصٌّ به لا يَتَعَدَّاه إلى غيره.

وكان غالبًا في عهده ﷺ، والزمن الأول، ومع تقادم الزمان، والبعد عن عهده ﷺ؛ فإن الحصول على ذلك أصبح أمرًا نادرًا أو معدومًا، ولو وُجِدَ لَمَا أمكن القطع بذلك على وجه اليقين. والله أعلم.

الثاني: التبرك المشروع بالأقوال والأفعال، والأمكنة، والأزمنة، والأطعمة، كما يلي:

فمن التبرك المشروع بالأقوال: كقراءة سورة البقرة: «اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ» أخرجه مسلم (٨٠٤). ومن التبرك المشروع بالأفعال: كالاجتماع على الطعام. ومن التبرك المشروع بالأمكنة كالمساجد بالصلاة فيها. ومن التبرك المشروع بالأزمنة كليلة القدر: وتلتمس بركتها بقيام ليلها وصيام نهارها، وهكذا يوم الجمعة، وشهر رمضان، ويوم عرفة، والعشر الأوائل من ذي الحجة، يشرع أن يفعل فيها ما دل عليه الدليل.ومن التبرك المشروع التبرك بالأطعمة وما في حكمها كالزيت المستخرج من شجرة الزيتون ومن ذلك: ماء زمزم، اللبن، والحبة السوداء، والعجوة، والكمأة، والعسل، والخيل، والغنم، والنخل.

القسم الثاني: التبرك الممنوع: وهو كل تبرك بشيء لم يدل الدليل على مشروعية التبرك به، كالتبرك بالأمكنة أو الجمادات أو الأزمنة التي لا دليل على ثبوت بركتها، ويدخل في التبرك الممنوع، التبركُ بالأمكنة المباركة على غير ما ورد به الشرع، كتقبيل أبواب المساجد، والتمسح بأعتابها والاستشفاء بتربتها، ومثل ذلك: التمسح بجدران الكعبة، أو مقام إبراهيم، وغير ذلك من التبرك الممنوع.

ومن ذلك أيضًا: الذهاب إلى القبور لا لقصد الزيارة، وإنما لقصد الدعاء عندها.

ومن ذلك: تخصيص أزمنة معينة بنوع من التعظيم، والاحتفالات، والعبادات؛ كيوم مولد الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ويوم الإسراء والمعراج، ويوم الهجرة، ويوم بدر، وفتح مكة، وغير ذلك؛ فالتبرك بالأزمنة على هذا النحو من البدع.

انظر: غاية المريد شرح كتاب التوحيد (ص: ١٢٨)، والتبرك للجديع وغيرهما.

ومناسبة هذا الباب للأبواب السابقة أنه يُعَدُّ تكملةً لها، والقاسم المشترك بين كل هذه الأبواب أنها تتعلق بالاعتقاد بغير الله تعالى، وأنها من الشرك الأصغر في أصلها، وإن كانت قد ترتقي إلى الأكبر إذا اعتقد الفاعل لذلك استقلال المُعَلَّق أو المُتَبَرَّك به في التأثير.

قوله: «وقول الله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٩-٢٠].

قال القرطبي: «إن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاء لله». والشاهد من الآيات للترجمة أن أهل الجاهلية إنما عبدوا هذه الأوثان وعظّموها لما يعتقدونه ويرجونه ويؤمِّلونه من بركتها وشفاعتها، وهذا هو الذي يقصده مشركو أزماننا ممن عبدوه سواء بسواء. فالتبرك بالمشايخ وقبور الصالحين كالتبرك باللاّت، والتبرك بالأشجار كالتبرك بالعُـزَّى، والتبرك بالأحجار كالتبرك بمناة، وهذه الأوثان الثلاثة من أعظم أوثان أهل الجاهلية من أهل الحجاز، فـ «اللاّت» كانت لأهل الطائف ومن حولهم من العرب، و«العزى» كانت لقريش وبني كنانة، و«مناة» لبني هلال. وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة. و «اللات» بتخفيف التاء في قراءة الجمهور وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغيرهم بتشديد التاء، فعلى الأول قال الأعمش: سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان. واللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وهم بنو مغيث. قاله ابن كثير، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن هشام: وعلى قراءة التشديد كان رجلاً يلتُّ السـويق للحاج، فمات، فعكفوا على قبره. ذكره البخاري.

وروى الفاكهي عن ابن عباس أن اللات لما مات قال لهم عمرو بن لحيّ: إنه لم يمت ولكنه دخل في الصخرة فعبدوها وبنو عليها بيتاً وكانت في موضع مسجد الطائف، فلما أسلمت ثقيف بعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار. وفيه: أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين مع عبادتهم الأصنام. قاله في «فتح المجيد».

وأما العزى فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنَخْلَةَ بين مكة والطائف كانت قرش يعظّمونها. وعن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى، فأتاها خالد وكانت على ثلاث سَمُرات فقطع السَمُرات وهدم البيت الذي كان عليها، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئاً» فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة وهم حجبتها أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزى! يا عزى!؛ فأتاها خالد فإذا امرأة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعلاها خالد بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: «تلك العزى» أخرجه النسائي في الكبرى (٣٩٤٤)، وأبو يعلى في المسند (٩٠٢).

قال ابن هشام: وكانوا يسمعون منها الصوت. «وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات والمشاهد». قاله في «فتح المجيد».

وأما مناة فكانت بالمشلّل عند قديد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة. وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل سميت مناة لكثرة ما يمنى أي يراق عندها من الدماء للتبرك بها. قال البخاري في حديث عروة عن عائشة –رضي الله عنها– أنها صنم بين مكة والمدينة، قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ عليّاً فهدمها عام الفتح. قال ابن إسحاق: وكانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب وتُهدى لها كما يُهدى للكعبة وتطوف بها وتنحر عندها.

وفيـه: معرفة تفسير آية النجم. قاله المصنف.

قولـه: «عن أبي واقد الليثي» - وهو الحارث بن عوف - صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة -رضي الله عنه- «قال: خرجنا مع رسول ﷺ إلى حُنين» اسم واد شرقي مكة معروف قاتـل فيه رسول الله ﷺ هوازن.

قولـه: «ونحن حدثاء عهد بكفر» يشير إلى الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ممن قرب عهدهم بالإسلام من مسلمة الفتح وكانوا ألفاً ونيفاً.

قولـه: «ونحن حدثاء عهد بكفر» قيد أن غيرهم لا يجهل ذلك.قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «وللمشركين سدرة يعكفون عندها» والعكوف هو الإقامـة على الشيء بالمكان ولزومه، ومنه ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء:٥٢].

وعكوفهم عندها تبركاً وتعظيماً لها لما يعتقدونه فيها من البركة.

قولـه: «وينوطون بها أسلحتهم» أي يعلقونها عليها للبركة، وفي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها. قالـه في «فتح المجيد».

قولـه: «يقال لها ذات أنواط» جمع نوط، وهو مصدر سمى به المنوط.

قولـه: «فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» فلما رآها رسول الله ﷺ عدل عنها في يوم صائف الظل هو أدنى منها، وقال: «الله أكبر»، وفي رواية الترمذي: «سبحان الله» كبَّر ربَّه وعظّمه ونزّهه عن أن يتقرب إليه بمثل هذا.

وفيه: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقيةٌ من تلك العادة لقولـه: «ونحن حدثاء عهد بكفر». وأنه متقرر عندهم: أن العبادات مبناها على الأمر فصار فيه التنبيه على مسائل القبر، أما من ربك فواضح، وأما من نبيك فمن إخباره بأنباء الغيب، وأما ما دينك فمن قولـهم: «اجعل لنا.. إلى آخره».

وفيه: التكبير عند التعجب خلافاً لمن كرّهه وسد الذرائع والنهي عن التشبه بأهل الجاهلية والغضب عند التعليم. وفيه: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا، وكونهم لم يفعلوا وكونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه وأنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل، وأن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، وأن النبي ﷺ لم يعذرهم بل ردَّ عليها بقوله: «الله أكبر، إنها السُنن، لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم» فغلظ الأمر بهذه الثلاث. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «إنها السُنن» بضم السين أي الطرق أي ستفعل هذه الأمة ما فعلت الأمم قبلها من الشرك فما دونه كما في حديث أبي سعيد: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حذو القُذَّة بالقذّة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩).

وفيه القاعدة الكلية لقوله «إنها السنن» وأن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر، وأن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا، يعني إذا عملنا كعملهم، وأن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، لتركبنّ سنن من كان قبلكم». رواه الترمذي وصححه».

أخرجه أحمد (٣٦/ ٢٢٥)، والترمذي (٢١٨٠) وإسناده صحيح.

وفيه: الأمر الكبير أنه أخبر أن طلبتهم كطلبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا﴾ [الأعراف:١٣٨]. وأن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك، وأنه حلف على الفتيا وهو لا يحلف إلا لمصلحة، وأن الشرك فيه أكبر وأصغر لأنهم لم يرتدوا بهذا. قاله المصنف.

فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها كاتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يدعونها ولا يسألونها ماذا يكون حكم ما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات، والاستغاثة بهم، والذبح والنذر لهم، والطواف بقبورهم وتقبيلها، وتقبيل أعتابها وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب لها؟! وأي نسبة بين هذا، وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركاً. انتهى من «الشرح» بتصرف.

وفيه: أن العبرة بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط، فالمشرك مشرك وإن سمَّى شركه ما سماه. قاله في «فتح المجيد». قلت: وهذا كتسمية مشركي زماننا دعاء الأموات والغائبين توسلاً.

وفيه: الخوف من الشرك. وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله وهو مما يبعده من رحمته ويقرّبه من سخطه.

تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم، والتمسّح بهم أو بثيابهم، وحمل المولود إلى أحدهم ليحنّكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين، والتبرك بعرقهم، وقد أكثر من ذلك النووي في «شرح مسلم» في الكلام على الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا ذلك مع النبي ﷺ، وظن أن غير النبي ﷺ ممن يدَّعي صلاحه مثله، وهذا خطأ صريح لوجوه:

* منها: عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل.

* ومنها: عدم تحقق الصلاح، ولا يتحقق ذلك إلا بصلاح القلب، وهو أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بنص.

* ومنها: أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره ﷺ، لا في حياته، ولا بعد موته، ولو كان خيراً لسبقونا إليه فيكون هذا من خصائص النبي ﷺ. انتهى ملخصاً من «الشرح».

باب (١٠) ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: «باب ما جاء في الذبح لغير الله» أي من النهي الأكيد والوعيد الشديد، وأنه شرك ينافي التوحيد.

ومناسبة الباب للأبواب السابقة: أَنَّ تلك الأبواب كانت عن الشرك الأصغر؛ فناسب هنا أن يبدأ بذكر أنواع الشرك الأكبر.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣].

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغيره: إن صلاتي يشمل الفرائض والنوافل والصلوات كلها عبادة، وقد اشتملت الصلاة على نوعي الدعاء: دعاء المسألة ودعاء العبادة، فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة، وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عبادة، وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة؛ لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعاً. قاله شيخ الإسلام -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾ [الأنعام:١٦٢] قال سعيد بن جبير: أي ذبحي. وقال مجاهد: النسك الذبح في الحج والعمرة.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام:١٦٢] أي ما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ خالصاً لوجهه لا شريك له في شيء من ذلك ولا في غيره من أنواع العبادة، فالصلاة أجلّ العبادات البدنية، والنسك أجلّ العبادات المالية.

قولـه: ﴿ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال قتادة: من هذه الأمة؛ لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته. ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنـواع العبادات وأمـرهم أن يخلصوا جميع ذلك له دون ما سواه، فإذا تقرّبوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكاً في عبادته... قاله في فتح المجيد.

وفيه: معرفة تفسير ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. قاله المصنف رحمه الله.

وقولـه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢] قال شيخ الإسلام في الفتاوى (١٦/ ٥٣١): «أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما: الصلاة والنسك الدالتان على القرب والتواضع، والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدته، عكس حال أهل الكبر والنفرة، وأهل الغنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، يسألونه إياها، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قولـه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ فإنهما أجلّ ما يُتقرّب به إلى الله، ولهذا أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله من الكوثر. وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أرباب القلوب الحية، وما يجتمع له عند النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص من قوة اليقين وحسن الظن أمرٌ عجيب، وكان ﷺ كثير الصلاة كثير النحر». انتهى.

وفيه: معرفة تفسير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢]. قاله المصنف رحمه الله.

فمناسبة الآية للباب: أن الذبح والنحر عبادة عظيمة؛ ولذلك جاءت مقترنة بالصلاة، فإذا ثبت أنها عبادة فصرفها لغير الله شرك أكبر، كما أن صرف الصلاة وغيرها من العبادات لغير الله شرك أكبر.

قوله: «عن علي» هو أبو الحسن علي بن أبي طالب الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج فاطمة رضي الله عنهما، كان من السابقين الأولين ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين. «قال حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله» أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السبّ والدعاء. قاله أبو السعادات. وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

قال شيخ الإسلام: قولـه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]: «ظاهره أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريم هذا ظهر من تحريم ما ذبح النصراني للحم، وقال فيه: باسم المسيح ونحوه كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله تعالى أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: باسم الله، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة أو قصد به ذلك أَوْلَى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله، فعلى هذا لو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وإن قال فيه باسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة، الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان: الأول: أنها مما أهل به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مرتد.

ومن هذا ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن».

قال الزمخشري: «كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً من أن تصيبهم الجن فأضيفت إليهم الذبائح لذلك».

قال النووي: وذكر الشيخ إبراهيم الـمَـرُّوذِي من أصحابنا أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أُهل به لغير الله».

قولـه: «لعن الله من لعن والديه» يعني: أباه وأمه وإن علوا، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: وهل يشتم الرجل والديه. قال: «نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسبّ أمه فيسب أمه».

قولـه:«لعن الله من آوى محدثاً» آوى:وهو بفتح الهمزة ممدودة أي: ضمه إليه، وحماه.

وأما محدثاً فقال أبو السعادات في النهاية(١/ ٨٢، ٣٥١): يُروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: من نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتَصَّ منه، والفتح: هو الأمر المُبتَدَع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والنصر فإنه إذا ارتضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه».

قال ابن القيم: «هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم».

قولـه: «لعن الله من غيَّر منار الأرض» بفتح الميم، علامات حدودها، وهي التي توضع لتمييز حق الشركاء إذا اقتسموا ما بينهم في الأرض والدور.

قال المصنف: وهي المراسيم التي تفرق بين حقك وحق جارك فتغيرها بتقديم أو تأخير. قال في «النهاية» (١/ ١٨٣): «منار الأرض معالمها وحدودها».

وفي الحديث: «من ظلم شبراً من الأرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة».

أخرجه أحمد (٤٠/ ٤١٢) (٤١/ ٥١)، وأصله في الصحيحين.

ومن تغيير منار الأرض ما يفعله بعض فَسَقَة الكُتَّـاب والمحامين من التلاعب في الحجج والسجلات وتغيير حدودها بزيادة أو نقص فيها، أو إخفاء الحجج وعمل

استحكامات بخلافها حتى يعود الوقف ملكاً أو إخفاء شرط الواقف لإخراج مستحق وإدخال غيره، كما هو جار كثيراً، نسأل الله العافية.

وفيه: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله ولعن من لعن والديه. ومنه: أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك، ولعن من آوى محدثاً وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق لله فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك، والفرق بين لعن المعيَّن ولعن أصحاب المعاصي على سبيل العموم. قاله المصنف رحمه الله.

وأما لعن الفاسق المعيَّن ففيه قولان: أحدهما: أنه جائز، اختاره ابن الجوزي وغيره.

والثاني: لا يجوز، اختاره أبوبكر عبد العزيز، وشيخ الإسلام.

قوله: «وعن طارق بن شهاب» البجلي الأحمسي أبوعبدالله رضي الله عنه، قال أبوداود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسل صحابي وهو مقبول على الراجح، وكانت وفاته على ما جزم به ابن حبان سنة ثلاث وثمانين.

لكن هذه الرواية عن طارق عن سلمان موقوفًا وليس كما ذكر المصنف.

«أن رسول الله ﷺ» قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب» أي من أجله وبسببه، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ كأنهم تقالوا ذلك؛ لأن الجنة لا يدخلها أحدٌ إلا بالأعمال الصالحة، والنار لا يدخلها أحدٌ إلا بالأعمال السيئة، واحتقروا الذباب، فتعجبوا من ذلك فبيَّن لهم النبي ﷺ ما صَيَّر هذا الأمر الحقير عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستحق هذا عليه النار.

«فقال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم» والصنم ما كان منحوتاً على صورة ويطلق عليه الوثن.

قوله: «لا يجاوزه» أي لا يمر به «أحدٌ حتى يقرِّب له شيئاً».

قولـه:«فقالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء أقرِّب. قالوا: قرِّب ولو ذباباً، فقرب ذباباً فخلوا سبيله فدخل النار».

دخل النار بسبب الذباب الذي قرَّبه إلى الصنم، وهذا محل الشاهد من الحديث للباب؛ لأن قتل الذباب تقربًا للصنم بمنزلة الذبح له، وهذا المُقَرَّب بالرغم من أنه حقيرٌ كان سببًا لدخول النار؛ لأنه صُرِفَ لغير الله تعالى.

قولـه: وقالوا للآخر: قِّرب. فقال: ما كنت لأقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله عز وجل فضربوا عنقه، فدخل الجنة». أخرجه أحمد في الزهد (ص/ ٢٥) عن طارق بن شهاب عن سلمان الفارسي موقوفاً بسند صحيح.

قال المصنف رحمه الله: وفيه بيان عظم الشرك ولو في شيء يسير حقير، فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ويقرّبها لغير الله من ميت أو غائب أو طاغوت أو مشهد أو غير ذلك، وقد عمَّت البلوى بهذا في الأمصار وما هو أعظم منه، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وفيه: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

وفيه: شاهد للحديث الصحيح «الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعليه، والنار مثل ذلك» أخرجه البخاري (٤٦٨٨). قاله المصنف رحمه الله.

باب (١١) لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله

قولـه: «باب لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله» لا: نافية، ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر. قاله في «فتح المجيد». وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الترجمة في النهي عن الذبح لله في المكان الذي يُذبح فيه لغير الله لئلا تقع مشابهة أهل الشرك في ذبحهم لطواغيتهم.

فمقصود الترجمة: بيان تحريم الذبح لله في مكانٍ يُذْبَحُ فيه لغير الله، وهذا الحكم عام فلا يجوز للمؤمنين التشبه بأهل المعاصي ولا مشاركتهم في أماكن المعصية وفي أماكن تعبدهم ولو بغير الذبح، حتى لا ينسب إليهم ويشاركهم.

ومناسبة هذا الباب للذي قبله: أنه تابعٌ له ومُكَمِّلٌ له؛ فالباب السابق يتكلم عن الذبح لغير الله وهو شركٌ، وهذا الباب هو سدٌّ للذريعة التي تؤدي إلى الذبح لغير الله.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٨] الآية».

هذا نهي من الله تعالى لنبيه أن يقوم في مسجد الضرار الذي بناه المنافقون ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاد لمن حارب الله ورسوله والأمة تبعٌ له في ذلك.

ووجه مناسبة الآية للباب: من جهة القياس فإن الله عز وجل نهى رسوله ﷺ أن يقوم في مسجد الضرار؛ لأنه أُسس على معصية الله، مع أنه لا يقوم فيه إلا لله.

فكذلك المواضع التي أُعدت للذبح لغير الله لا يجوز أن يذبح فيها الموحد لله؛ لأنها قد أُسست على معصية الله والشرك به.

قولـه: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ قال أبو العالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب. انتهى. قلت: لكن الآية عامة في الطهارات الحسية والمعنوية.

فنهى اللهُ رسولَه ﷺ عن الصلاة فيه وحثَّه على الصلاة في مسجد قباء الذي أُسس من أول يوم بُني على التقوى وهي طاعة الله ورسوله وجمعاً لكلمة المسلمين، ومعقلاً للإسلام وأهله.

قال ابن كثير في التفسير(٤/ ٢١٦): «وفيه دليل على استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين المتنزهين عن ملابسة القاذورات، المحافظين على إسباغ الوضوء».

وفيه: إثبات المحبة. قاله في «الشرح».

وقد جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً، وجاء فيه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: صلاة في مسجد قباء كعمرة.

وقد ذهب جماعة من السلف منهم: ابن عباس، وعروة، وعطية، والشعبي، وغيرهم إلى أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء.

ويؤيّده قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾. قاله في فتح المجيد.

وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد الذي رواه مسلم قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم، فقال أحدهما: هو مسجد قباء. وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي هذا»، وهو قول عمر وابنه وزيد بن ثابت وغيرهم.

قال ابن كثير في التفسير(٤/ ٢١٤): «وهذا صحيح ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أُسِّسَ على التقوى من أول يوم فمسجدُ رسول الله ﷺ بطريق الأَوْلَى». انتهى.

ورجّح ابنُ تيمية (٣/ ٤٤٨ - ٤٤٩ بتصرف) مستندًا لدلالة العقل، وسبب النُّزول أنّ هذا الوصف مِن حيث النزول يُراد به مسجد قباء، غير أنّ مسجد النبي أحقُّ بهذا الوصف مِن جهة الحكم، فقال: «قوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ نزلت بسبب مسجد قباء، لكن الحكم يتناوله، ويتناول ما هو أحقُّ منه بذلك، وهو مسجد المدينة. وهذا يوجه ما ثَبَت في الصحيح عن النبي -ﷺ- أنّه سُئِل عن المسجد الذي أسس على التقوى. فقال: «هو مسجدي هذا». وكلاهما مُؤَسَّس على التقوى، لكن مسجد المدينة أكمل في هذا النعت، فهو أحقُّ بهذا الاسم، ومسجد قباء كان سبب نزول الآية؛ لأنّه مُجاوِرٌ لِمسجد الضِّرار الذي نُهِي عن القيام فيه».

وقال شيخ الإسلام في قولـه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾«فإنه من أمكنة العذاب.

قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

وهذا كما أنه ندب إلى الصلاة في أمكنة الرحمة كالمساجد الثلاثة ومسجد قباء، فكذلك نهى عن الصلاة في أماكن العذاب، وأما أماكن الكفر التي لم يكن فيها عذاب، إذا جعلت مكاناً للإيمان والطاعة فهذا حسن. انتهى.

وفيه: معرفة تفسير: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨].

وأن المعصية قد تؤثر في الأرض وكذلك الطاعة. قاله المصنف رحمه الله.

قوله: «عن ثابت بن الضحاك» بن خليفة الأشهلي صحابي مشهور روى عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين «قال نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة» بضم الموحدة وقيل بفتحها. قال البغوي: «موضع في أسفل مكة دون يلملم».

وقال أبو السعادات: «هضبة من وراء ينبع».

«فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟.قالوا: لا» :

والوثن ما ليس منحوتاً على صورة.

والصنم: ما كان منحوتاً على صورة، ويطلق عليه أيضاً الوثن.

«فقال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا».

قال شيخ الإسلام في الاقتضاء ١/ ٤٤١: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائداً إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك، والمراد هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أموراً منها: يوم عائد كيوم الفطر، ويوم الجمعة، ومنها اجتماع فيه، ومنها أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختص العيد بمكان وقد يكون مطلقاً، وكل من هذه الأمور يُسمى عيداً، والزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة «إن هذا يوم جعله الله للمسلمين عيداً» أخرجه ابن ماجه (١٠٩٨)، وأحمد (٢/ ٣٠٣، ٥٣٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١/ ٣٢٦) رقم (٩٠٨)، والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس رضي الله عنهما: شهدت العيد مع رسول الله ﷺ، والمكان كقول النبي ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيداً» أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٧). قال الألباني: إسناده حسن، وهو على شرط مسلم، وهو صحيح، لما له من طرق وشواهد. انظر أحكام الجنائز (ص/ ٢٨٠). وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل وهو الغالب كقول النبي ﷺ للجاريتين اللتين تغنيان عند النبي ﷺ بما تناشدته الأنصار يوم بُعاث «دعهما يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيداً» أخرجه البخاري (٩٥٢)، ومسلم (٨٩٢).

وفيه: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البيّنة ليزول الإشكال، والاستفصال للمفتي إذا احتاج إلى ذلك.

قوله: «فقال أوفِ بنذرك» حيث تحقّق عدم المانع من الوفاء به.

قال في التيسير: «وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانا لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم مانع من الذبح بها وإن نذر، وإلا لما حسن الاستفصال» هذا معنى كلام شيخ الإسلام. «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

وفيه: أنه لا وفاء لنذر في معصية الله. قاله المصنف.

وهذا يدل على تحريم الوفاء بنذر المعصية، وهل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين هما روايتان عن أحمد: إحداهما: تجب، وهي المذهب، روي عن ابن عباس وابن مسعود، وبه قال أبوحنيفة وأصحابه واستدلوا بحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً «لا نذر في معصية، وكفّارته كفّارة يمين». رواه أحمد وأهل السنن، واحتج به أحمد وإسحاق.

أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٧) وغيره، وأعله البخاري وغيره كما في أحاديث معلة لشيخنا الوادعي برقم(٤٩٩).

والثاني: لا تجب فيه كفارة يمين، روي ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي لحديث الباب. والأقرب أن فيه الكفارة فقد أفتى بذلك ابن عباس وابن مسعود.

وفيه: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع، والمنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية ولو بعد زواله، والمنع منه إذا كان فيه عيدٌ من أعيادهم ولو بعد زواله، وأنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية، والحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده». قاله المصنف رحمه الله.

قال في «قرة العيون»: «وفيه: المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة، فلا تفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلاً لما يسخط الله تعالى.

فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة، والمصنف لم يرد التخصيص بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال، وقد استشكل جعل محل اللاّت بالطائف مسجداً». انتهى.

ولا إشكال مع ما ذكرناه عن شيخ الإسلام فيما تقدم أول الباب.

قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم». رواه أبوداود». يعني: إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق عبد فلان، فأما إذا التزم في الذمة شيئاً لا يملكه كأن يقول: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها فيصح نذره، وإذا شُفي مريضه ثبت النذر في ذمته.

وفيه: أنه لا نذر فيما لا يملك. قاله المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

باب (١٢) من الشرك النذر لغير الله

قولـه: «باب من الشرك النذرُ لغير الله»

أي لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله تعالى.

ومناسبة هذه الباب للبابين قبله: أنه جاء في سياق ذكر أنواع من الشرك الأكبر فبدأ بالذبح ثم بابا بعده متعلقا به ثم النذر.

«وقول الله تعالى ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧].

قال ابن كثير [التفسير ٨/ ٢٨٧]: «أي يتعبّدون لله تعالى فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر».

والشاهد من الآية للترجمة أن الله مدح الموفين بالنذر، والله لا يمدح إلا على فعل واجب أو مستحب أو ترك محرم، وذلك هو العبادة، فمن فعل شيئاً من ذلك لغير الله متقرباً به إليه فقد أشرك».

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ٨١]: «النذر أعظم من الحلف».

وقال ابن القيم –رحمه الله–: «النذر عبادة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له».

قولـه: «وقول الله : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾.

قال ابن كثير [التفسير ١/ ٧٠٥]: «يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاتــه على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه». اهـ.

وقال شيخ الإسلام: فيمن نذر للقبور ونحوها دهناً لتُنوَّر بها به ويقول إنها تقبل النذر كما يفعله بعض المشركين فهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به.

وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شَبَهٌ من الذين قال فيهم الخليل -عليه السلام-:

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء:٥٢].

وفيهم شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عنـدها..

قال الرافعي في «شرح المنهاج»: «وأما النذر المشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء أو تردد في تلك البقعة أو المشهد أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليه أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطلٌ غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يدفع به البلاء، أو يستجلب به النعماء، أو يُستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم إنه استند إليه عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السرج والشمع والزيت ويقولون: القبر الفلاني يقبل النذر، ويعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، وقدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازات، فهذا النذر على هذا الوجه باطلٌ لا شك فيه، بل نذر الزيت و الشمع ونحوهما للقبور باطل، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر إبراهيم الخليل -عليه السلام-، ولقبر غيره تبركاً وتعظيماً ظاناً أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم سواء انتفع به منتفعٌ أم لا».

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح «درر البحار»: «النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: يا سيدي فلان، إن ردَّ الله غائبي أو قضيت

حاجيتي فلَكَ من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا، فهذا النذر باطل بالإجماع، لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر لمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميّتُ، والميّتُ لا يملك شيئاً.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله -عَزَّوَجَلَّ-، واعتقاد ذلك كفر... إلى أن قال: إذا علمتَ هذا؛ فما يُؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم فحرام بإجماع المسلمين. نقله عنه ابن نجيم في «البحر الرائق».

قوله: «وفي الصحيح » أي صحيح البخاري (٦٦٩٦) و(٦٧٠٠) «عن عائشة » زوج النبي ﷺ وابنة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع ودخل بها وهي ابنة تسع، وكان الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- بعد وفاة النبي ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي ﷺ وحديثه صلوات الله وسلامه عليه، توفيت عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سنة سبع وخمسين. «أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» أي: يجب عليه الوفاء بنذر الطاعة ؛ لأنه نذره لله خالصاً فوجب عليه الوفاء به. وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه كإن شفى الله مريضي فعَلَيَّ أن أتصدق بكذا ونحوه ؛ وجب عليه إن حصل ما علق نذره على حصوله، إلا أن أبا حنيفة قال: لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم، وأما ما ليس كذلك فلا يوجب الوفاء به كالاعتكاف.

قوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»: زاد الطحاوي: وليكفِّر عن يمينه. وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

وفيه: وجوب الوفاء بالنذر، وإذا ثبت كونه عبادة فصَرْفُه لغير الله شرك، وإن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به. قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

باب (١٣) من الشرك الاستعاذة بغير الله

قولـه: «باب من الشرك الاستعاذة بغير الله» الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام، ولهذا يُسمى المستعاذ به معاذاً وملجأً، وقد أمر الله عباده في كتابه بالاستعاذة به في عدة آيات فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

وفي المعوذتين وغيرهما. فالاستعاذة عبادة يجب إخلاصها لله، وأن لا يُستعاذ بغيره، والإستعاذة هي الالتجاء إلى الله. وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه. والعياذ يكون: لدفع الشر، واللياذ: لطلب الخير.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ .

ذكر ابن جرير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رجال من الإنس يبيت أحدُهم بالوادي في الجاهلية فيقول أعوذُ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه، فزادهم ذلك إثماً، وقال بعضهم: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بعزيزهم جراءة عليهم، وزادوهم بذلك إثماً.

وقال مجاهد: فازداد الكفار طغياناً. وقال ابن زيد: وزادهم الجن خوفاً». انتهى.

وفيه: معرفة تفسير سورة الجن وكون الاستعاذة بالجن من الشرك. قاله المصنف.

وقد قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. أي من إغوائهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه واستعاذته به وخضوعه له.

وفيه: كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر، أو جلب نفع؛ لا يدل على أنه ليس من الشرك. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقال ابن القيم -رحمه الله- [بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٥]: «ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به وتقرَّب إليه بما يحب فقد عبده، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة ويسميه استخداماً، وصدق هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ؛ فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو». انتهى.

قوله: «عن خولة بنت حكيم» بن أمية السلمية، يقال لها أم شريك ويقال إنها الواهبة، وكانت قبل تحت عثمان بن مظعون. قال ابن عبدالبر: كانت صالحة فاضلة.

«قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً - أي حضراً أو سفراً، براً أو بحراً - فقال: أعوذ بكلمات الله التامات » :

قال القرطبي: قيل معناها: الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر. وقيل: الشافية الكافية، والكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء، وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى، فهذا الذي شرعه الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به لا كما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: «كلمات الله نوعان: كلمات كونية، وكلمات دينية، فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر». وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس:٨٢] .

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١١٥] .

والكون كله داخل تحت هذه الكلمات.

والنوع الثاني: الكلمات الدينية: وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه، وخبره وحظ العبد منها العلم بها والعمل، والأمر بما أمر الله به كما أن حظ العبد عموماً وخصوصاً من الأولى العلم بالكونيات والتأثير فيها أي بموجبها، فالأولى قدرية كونية، والثانية شرعية دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية، وقدرة الأولى التأثير في الكونيات، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات». انتهى ملخصاً.

وقد نصَّ الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، وردوا على الجهمية والمعتزلة في قولـهم بخلق القرآن، فلو كانت كلمات الله مخلوقة لم يأمر النبي ﷺ بالاستعاذة بها ؛ لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

قولـه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ أي من شر كل ذي شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسياً أو جنياً أو هامة أو دابة أو ريحاً أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة. قاله ابن القيم. قال: «و ﴿مَا﴾ هاهنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييد الوصفي والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر ما خلقه الله؛ فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

وقولـه: «لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك». رواه مسلم».

وفيه: جواز الاستعاذة بكلمات الله والاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء استدلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة، قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

وفيه: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب (١٤) من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره

قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره»:

عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص. قاله المصنف –رحمه الله– تعالى، والمراد بالدعاء هنا دعاء المسألة. قاله في «الشرح».

والاستغاثة: طلب الغوث وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، والإغاثة أخص بالأفعال، والإجابة أخص بالأقوال، والاستغاثة دعاء المكروب، والدعاء أعم منها؛ لأنه يكون من المكروب وغيره.

قال شيخ الإسلام: «والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر، فالمعبود لابد أن يكون مالكاً للنفع والضر. ولهذا أنكر الله على من عبد من دونه ما لا يملك نفعاً ولا ضراً، وأما دعاء العبادة فهو عبادة الله بأنواع العبادات من الصلاة والزكاة والذبح وغيرها خوفاً وطمعاً يرجو رحمته ويخاف عذابه وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، وهما متلازمان، فكل دعاء عبادة فهو مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة فهو متضمن لدعاء العبادة، ويُراد به في القرآن هذا تارة وهذا تارة، ويراد به مجموعهما.

وقد فُسِّر قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠] بالنوعين.

قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم. وقيل: سلوني أعطكم.

وقد أجمع العلماء على أن من صرف شيئاً من نوعي الدعاء لغير الله فقد أشرك ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام وزعم أنه مسلم». اهـ ملخصاً.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي في كتابه في الرد على من ادَّعى أن للأولياء تصرفات: «قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعاتٌ يدَّعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهِمَمِهم تُكشف الملمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات مستدلين أن ذلك منهم كرامات، وجوّزوا لهم الذبائح والنذور وأثبتوا فيهما الأجور، وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحقق ومصادمة الكتاب العزيز المصدَّق ومخالفته لعقائد الأئمة وما أجمعت عليه الأمة.

فأما قولهم إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد المات فيرده قوله تعالى ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٢]، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] ونحوها من الآيات الدالة على أنه المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير؛ لا شيء لغيره في شيء ما بوجه من الوجوه.

وأما القول بالتصرف بعد المات فهو أشنع من القول بالتصرف في الحياة.

قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر:٣٠]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر:٣٨]. وفي الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث..» الحديث أخرجه مسلم (١٦٣١)، فجميع ذلك وما هو نحوه دالٌّ على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدلَّ على أنه ليس للميت تصرفٌ في ذاته فضلاً عن غيره.

وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات من الكرامة فهو من المغالطات؛ لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه لا قصد لهم فيه ولا تحدي ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران، وأسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد فهذا أقبح مما قبله لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢].

وقوله: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام:٦٣]

إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:٦٤] .

فإنه جل ذكره الكاشف للضر والمنفرد بإجابة المضطر والمستغاث لذلك كله، فإذا تعيَّن هو جل ذكره خرج غيره من مَلَكٍ ونبيٍّ ووليٍّ.

والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة والعادية من الأمور الحسية في قتال عدو، أو إدراك عدو، أو سبع، أو نحوه.

وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحو ذلك فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره، فمن اعتقد أن لغير الله من نبيٍّ أو وليٍّ أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً فقد وقع في وادي جهل خطير فهو على شفا حفرة من السعير». انتهى ملخصاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦] .

وهذا أمر مشترك بين جميع المخلوقين سواء كانوا ملائكة أو أنبياء أو أولياء أو إيرهم مما يُدعى من دون الله لا يقدر أحد منهم على نفع ولا ضر .

وقوله : ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي دعوتَ غير ربك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي المشركين.

.فالظلم هنا الشرك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣] .

وقوله : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:١٧] .

أي هو القادر على ذلك دون ما سواه وإن يردك بخير فلا راد لفضله.

فإنه المنفرد بالملك والعطاء والمنع والضر والنفع فيجب أن يكون هو المدعو المعبود وحده دون من لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وفيه: معرفة تفسير ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس:١٠٦].

وأن هذا هو الشرك الأكبر، وإن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

وتفسير الآية التي بعدها وكون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفر. قاله المصنف.

وقوله تعالى عن خليله إبراهيم مخاطباً قومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[العنكبوت:١٧]. أي: اطلبوا الرزق عنده لا عند غيره. ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله؛ لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله. قاله شيخ الإسلام [الفتاوى ١٠/ ١٨٣].

و قوله ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي أخلصوا له العبادة من عطف العام على الخاص فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر بها، واشكروا له على ما أنعم عليكم، إليه ترجعون فيجازى كل عامل بعمله. وفيه: معرفة تفسير: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وأن الرزق لا يُبتغى إلا من الله، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه. قاله المصنف –رحمه الله–.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف:٥-٦].

أخبر تعالى أن المدعو لا يستجيب لداعيه في الدنيا. كما قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد:١٤] الآية.

ولا يستجيب له أيضاً في الآخرة. كما قال تعالى:

﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ [القصص:٦٤]

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾ [الكهف:٥٢]

فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله. قاله في «فتح المجيد».

ففي الآية أنه لا أضل ممن دعا غير الله، وأنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، وأن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو الداعي وعداوته له وتسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو وكفر المدعو بتلك العبادة، وأن هذه الأمور هي سبب كونه أضل الناس. قال المصنف –رحمه الله–.

و قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل:٦٢]. يحتج تعالى على المشركين بما أقروا به من توحيد الربوبية على ما أشركوا فيه من توحيد الإلهية، يقول إذا كنتم تقرون أنه لا إله مع الله يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل بكم ويجعلكم خلفاء الأرض أي يستخلف في الأرض منكم بعد أمواتكم خلفاء أحياء يخلفونهم. فلماذا عبدتم غيره ممن لا يستطيع شيئاً من ذلك. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ أي: قليلاً اتعاظكم، فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته.

وفيه: معرفة تفسير ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾.

والأمر العجيب وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله ؛ ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين. قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله:«وروى الطبراني بإسناده » أخرجه الطبراني في المعجم الكبير كما في مجمع الزوائد (١٠/ ١٥٩) وقال: رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث، وأحمد في المسند (٥/ ٣١٧) قال ابن كثير في تفسيره (٥/ ٣٣٣) وهذا الحديث غريب جداً.

وهو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق، مات سنة ستٍ وثلاثمائة، عن عُبادة، هو ابن الصامت -رضي الله عنه-.

«أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين» وهذا المنافق هو عبدالله بن أبيّ كما جاء مصرّحاً به في رواية ابن أبي حاتم، وهذا شأن المنافقين في كل زمان ومكان طبعهم السعي في أذية المؤمنين بالقول والفعل ورميهم بالعظائم لا سيما في هذا الزمن الذي ضعف فيه أمر الدين في قلوب الذين يُرجى منهم نصرته وتأييده فلذا رفع المنافقون رؤوسهم وأظهروا نفاقهم. قال حذيفة -رضي الله عنه-: المنافقون الذين فيكم اليوم شرٌّ من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ. قالوا: وكيف ذلك ؟ قال: أولئك يُخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه. وإذا كان هذا قول حذيفة عن المنافقين الذين كانوا في آخر عصر الصحابة فكيف بمنافقي الرابع عشر قرناً؟! فالله المستعان.

قوله: «فقال بعضهم»: أي الصحابة، وهو أبوبكر الصديق -رضي الله عنه- «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق» في كف أذاه.

قوله: «فقال النبي ﷺ إنه لا يُستغاث بي وإنما يُستغاث بالله -عز وجل-» أخبرهم النبي ﷺ أنه لا يُستغاث به، ومن دونه من باب أولى أن لا يُستغاث به، كره ﷺ أن يستعملوا هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته: حمايةً لجناب التوحيد وسداً، لذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال. فإذا كان هذا قوله فيما يقدر عليه في حياته، فكيف تجوز الاستغاثة به بعد وفاته، ويطلب منه أمور لا يقدر عليها إلا الله -عز وجل- ؟!، كما جرى على ألسنة كثيرٍ من الشعراء كالبوصيري والبُرَعي وغيرهما من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه نفعاً ولا

ضراً، والإعراض عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء، لا إله غيره ولا رب سواه. قاله في «فتح المجيد».

وفيه: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله –عز وجل– . قاله المصنف –رحمه الله–.

وذكر شيخ الإسلام في كتاب «الاستغاثة» عن بعض أهل زمانه أنه جوَّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يُستغاث فيه بالله، وصنف في ذلك مصنفاً.

وكان يقول إن النبي ﷺ يعلم ما يعلمه الله ويقدر عليها يقدر عليه الله.

وأن بعضهم قال في قولـه ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ⁅٩⁆﴾ [الفتح:٩]

أن الرسول هو الذي يُسبح.

ومنهم من قال: نحن نعبد الله ورسوله إلى غير ذلك من الكفر الصريح.

والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥] .

ويقول: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام:٥٠] .انتهى.

باب (١٥) قول الله تعالى:

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٩١-١٩٢].

مقصود الترجمة: بيان الأدلة الدالة على بطلان عبادة غير الله تعالى، وإيراد دليل عجز المخلوقين عن الخلق، وقدرة الله الخالق سبحانه على ذلك.

وعلاقة هذا الباب بالأبواب السابقة: أَنَّ المصنف في الأبواب السالفة تكلم عن أنواع الشرك الأكبر من الاستعاذة والاستغاثة بغير الله – عز وجل – وغير ذلك؛ فناسب هنا أن يتكلم عن الأدلة والبراهين التي تدل على ذلك، وتَرُدُّ على أهل الإشراك.

وثمرة هذا الدليل أَنَّ الرب الخالق المدبر هو المستحق للعبادة دون سواه مِمَّن لا قدرة له ولا ملك. والمؤلف حينما يذكر هذه الأمور يقرر بذلك أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.

وقول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ ﴾ هذا توبيخٌ وتعنيفٌ للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، و «شيئاً» نكرة في سياق النفي تعم كل شيء وإن قل. فذكر أنهم لا يستطيعون لمن عبدهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فنفى عنهم النصر القاصر وهو نصرهم لأنفسهم والمتعدي وهو نصرهم لغيرهم، فكيف يشركون مع الله في عبادته من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه ؟

وهذا وصف كل مخلوقٍ حتى الملائكة والأنبياء والأولياء والصالحين.

وقولـه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣﴾ [فاطر:١٣]

بعد قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ :

يخبر تعالى أن الملك له وحده لا شريك له، وأن الذين يدعون من دونه من الملائكة والأنبياء والأولياء والأصنام وغيرها ما يملكون لمن دعاهم من قطمير، وهو اللفافة التي على ظهر نواة التمر. قاله ابن عباس وغيره، أي: لا يملكون قليلاً ولا كثيراً.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ [فاطر:١٤] ولو فرض أنهم سمعوا ما استجابوا لكم بل قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو المعبود وهي الملك وسماع الدعاء وإجابة الداعي، فمن لم تُوجد فيه هذه الشروط بطلت دعوته وعبادته.

ثم قال: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ [فاطر:١٤] أي: يجحدون عبادتكم إياهم وينكرونها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾ [يونس:٢٨-٢٩].

وهذه الآية نصٌّ في أنَّ دعاء غير الله شرك.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر:١٤] أي: لا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير. قال قتادة: يعني نفسه سبحانه وتعالى.

وفيه: معرفة تفسير الآيتين. قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله: «وفي الصحيح» أي: الصحيحين، علَّقه البخاري عن حميد وعن ثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي عن حميد. «عن أنس بن مالك» –رضي الله عنه– خادم رسول الله ﷺ «قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد وكُسِرت رُباعيّته». ووصله مسلم (١٧٩١) عن ثابت عن أنس –رضي الله عنه–.

قال أبو السعادات [النهاية ٢/ ٣٩٩]: «الشَّج في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استُعمل في غيره من الأعضاء».

وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى، وأن عبدالله بن شهاب الزهري هو الذي شجَّه في جبهته، وأن عبدالله بن قمئة جرحه في وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وأن مالك بن سِنان مصَّ الدم من وجه رسول الله ﷺ ثم ازدرده فقال رسول الله ﷺ له: «لن تَمسَّكَ النارُ » أخـــرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٢٦٦). وانظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢٨)، ومغازي الواقــدي (١/ ٢٤٤). وروى الطبراني من حديث أبي أمامة قال: رمى عبدالله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أُحُد فشجَّ وجهه وكسر رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ: «ما لك أقمأك الله » فسلَّط الله عليه تيس الجبل فلم يـزلْ ينطحه حتى قطَّعه قطعةً قطعة. أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٥٤) رقم (٧٥٩٦) وهو ضعيف.

قال القرطبي: «الرَّباعيَة – بفتح الراء وتخفيف الياء –: كل سِن بعد ثنية».

قال النووي: «وللإنسان أربع رباعيات ».

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد أنها كسرت فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها ».

قال النووي:«وفي هذا وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء –صلوات الله وسلامه عليهم – لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب، ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم.

قال القاضي:«وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات ويلَبِّس الشيطان من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم" . انتهى.

يعني: من الغلو، والعبادة. قاله في «فتح المجيد».

قوله: «يوم أُحُد»: هو جبل شرقي المدينة، قال ﷺ: «أُحُد جبلٌ يحبنا ونحبه» أخرجه البخاري (١٤٨٢)، ومسلم (١٣٩٢). وكانت عنده الوقعة المشهورة فأُضيفت إليه.

قوله: «فقال: كيف يُفلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم» زاد مسلم(١٧٩١): «وكسروا رباعيته».

قوله: «فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨].

قال ابن عطية: «كأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش، فقيل له بسبب ذلك ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامضِ أنت لشأنك ودُمْ على طاعة ربك».

قال ابن إسحاق: «أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم».

قوله: «وفيه أيضاً» أي الصحيح «عن ابن عمر» بن الخطاب رضي الله عنهما، صحابي جليل شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها.

قوله: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر «اللهم العن فلاناً وفلاناً» بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد». أخرجه البخاري (٤٠٦٩) و (٤٠٧٠، ٤٥٥٩، ٧٣٤٦).

قال أبو السعادات [النهاية٤/ ٢٢٠]: «أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السَّبُّ والدعاء».

وقوله: «فلاناً وفلاناً» يعني صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام كما بيَّنه في الرواية الآتية. وفيه: جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأنّ ذلك لا يضر في الصلاة.

قوله: «بعد ما يقول «سمع الله لمن حمده»: قال أبو السعادات [النهاية ٢/ ٣٦١]: «أي أجاب حَمْدَه وتقبَّلَه». وقال ابن القيم ما معناه: «عدَّى سمع الله لمن حمده باللام المتضمنة معنى استجاب له ولا حذف هناك، وإنما هو مضمن.

قوله «ربنا ولك الحمد» في بعض أحاديث البخاري بإسقاط الواو.

قال ابن دقيق العيد: «كان إثباتها دال على معنى زائد لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٤/ ٣١٢]: «والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم يكون على مساوئه مع البغض له».

وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد، وخالفه في ذلك مالك وأبو حنيفة وقالا: يقتصر على «سمع الله لمن حمده».

قوله: «وفي رواية: يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، الحارث بن هشام» عيَّنهم ﷺ لأنهم من أشد الناس عداوة له، وهم السبب في غالب ما جرى عليه ﷺ وعلى أصحابه، هم وأبو سفيان، ومع ذلك ما أُجيب فيهم بل أنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران:١٢٨] فتاب عليهم فآمنوا، فدلَّ هذا على أنه ﷺ لا يملك لأحدٍ ضراً ولا نفعاً كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن:٢١-٢٣]. بل لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عن غيره كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨].

وفيه: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنُون في الصلاة، وأن المدعو عليهم كفَّار، وأنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار منها شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله، ومنها التمثيل بالقتلى مع أنهم بنو عمهم، فأنزل الله عليهم في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران:١٢٨] فتاب عليهم فآمنوا، والقنوت في النوازل وتسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم ولعنة المعين في القنوت. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: «وفي الصحيح » أي صحيح البخاري «عن أبي هريرة -رضي الله عنه- » واختلف في اسمه على أكثر من ثلاثين قولاً، وصحَّح النووي أن اسمه عبدالرحمن بن صخر، وهو دوسي من فضلاء الصحابة وحفاظهم -رضي الله عنه-، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظ غيره، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله: «قام فينا رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء:٢١٤]، والإنذار هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها، وهذه نذارة خاصة أمر فيها بإنذار عشيرته الأقربين، وعشيرة الرجل بنو أبيه الأدنون أو قبيلته، والأقربون: الأقرب فالأقرب، فأنذر بطون قريش وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه فعمَّ وخصَّ، وأخبرهم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد و ترك الشرك. وأما النذارة العامة: ففي قولـه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] . وقولـه: ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس:٢] .

قوله: «فقال: يا معشر قريش» المعشر: كمسكن أي الجماعة، وفي صحيح البخاري «يا بني عبد مناف».

وقوله: «اشتروا أنفسَكُم» أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به والانتهاء عمّا نهى عنه، فإن ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله، لا الاعتماد على الأنساب والأحساب، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.

قوله: «أو كلمةً نحوها» هو بنصب كلمة عطفاً على ما قبله.

وقوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً» فيه حُجَّةٌ على من تعلّق على الأنبياء والصالحين؛ ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه، فإن هذا هو الشرك الذي حرَّمه الله، وأمر نبيه بالإنذار عنه. قاله في «فتح المجيد».

قوله: «يا عباس بن عبدالمطلب» بنصب ابن، ويجوز في عباس الرفع والنصب، كذا في قوله «يا صفية عمة رسول الله، و يا فاطمة بنت محمد ».

قوله: «سَلِيني من مالي ما شئتِ » أي الذي أنا أملكه «لا أغني عنك من الله شيئاً» أخرجه البخاري (٢٧٥٣)، و (٣٥٣٧) و (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٦).

بيَّنَ ﷺ أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح، وهذا نفي لما عسى أن يتوهموه من أنه يغني عنهم من الله شيئاً بشفاعته، فإذا كان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً كما أخبر الله عنه بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعراف:١٨٨].

بل ولا يدفع عن نفسه عذاب الله لو عصاه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأنعام:١٥] فكيف يملك لغيره نفعاً أو ضراً ؟ أو يدفع عنه عذاب الله ؟!

وفيه: جِدُّه ﷺ لما أنزل عليه﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[الشعراء:٢١٤]

وقوله: للأبعد والأقرب «لا أغني عنك من الله شيئاً» فإذا صرح وهو سيد المرسلين أنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين وآمن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس الآن تبيَّن له التوحيد وغربة الدين. قاله المصنف –رحمه الله– .

باب (١٦) قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣]

قوله: «باب قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٣]

أراد المصنف -رحمه الله- بالترجمة بهذه الآية بيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم من عُبد من دون الله وأقربهم منه منزلة، فإذا كانت هذه هيبتهم وخوفهم من الله عند سماعهم لكلامه فكيف يُدعَون من دونه وهم لا يملكون شيئاً لمن دعاهم، وإذا كان لا يملكون شيئاً فغيرهم من الأنبياء والأولياء أولى أن لا يُدعى، ففيها ردٌّ على جميع فرق المشركين الذين يدعون من لا يداني الملائكة في صفة من صفاتهم. وهذه الآية مرتبطة بما قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٢-٢٣]. أي زال عنها الفزع. قاله ابن عباس وغيره: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ الآية.

قال أبو حيان: «تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة، إذا سمعوا الوحي إلى جبريل وأمر الله تعالى له، سمعت كجرِّ السلسلة الحديد على الصفوان فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبةً.

قال ابن جرير [التفسير ٢٢/ ٩٠]: «قال بعضهم: الذين فُزِّع عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما فُزِّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله -عز وجل-».

قال ابن كثير [التفسير ٦/ ٥٠٣]:«وهو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار».

وفي الآية: الرد على من زعم أن كلام الله مخلوق وعلى القائلين بالكلام النفسي، وقد كان المشركون يعبدون الملائكة ويزعمون أنهم بنات الله تعالى وتقدس، ويقولون: نعبدهم ليقربونا إليه ويشفعوا لنا عنده فلذا يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعون الملائكة: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يستقلون به. والذَّرة قيل إنها صغار النمل.

وقيل إنها الهباء الذي يرى في الكُوَّة إذا نزلت الشمس معها.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي: لا يملكون مثقال ذرة يستقلون به، ولا على طريق المشاركة.

وقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ والظهير: المعين.

وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾

وهذه الآية تقطع عروق الشرك بأمور أربعة:

الأول: أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله، والذي لا يملك مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر.

الثاني: قوله: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ﴾ أي في السموات والأرض.

الثالث: قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾ ، والظهير: المعين، فليس له معين من خلقه بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم وفقرهم إليه فيما قلَّ أو كثر من أمور دنياهم وأخراهم.

الرابع: قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾. وفيه: معرفة تفسير الآية .

وما فيها من الحجة على إبطال الشرك خصوصاً ما تعلق على الصالحين وهي الآية التي قيل إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب. قاله المصنف.

قوله: «في الصحيح» أي صحيح البخاري، (٤٧٠١) (٤٨٠٠) (٧٤٨١)

«عن أبي هريرة» -رضي الله عنه- «عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء» أي إذا تكلم بأمره الذي قضاه في السماء مما يكون.

قوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً» - بفتحتين - من الخضوع، وفي رواية «خُضعاناً» بضم أوله وسكون ثانيه مصدر أي: خاضعين «لقوله» -عز وجل-.

قوله: «كأنه سلسلة على صفوان» وهو الحجر الأملس، وقد روى ابن مردويه من حديث ابن مسعود رفعه: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان..» الحديث. أخرجه أبوداود (٤٧٣٨)، والبخاري تعليقاً (١٣/ ٤٥٢ الفتح)، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (١٢٩٣).

قوله: «ينفذهم ذلك» بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة، أي يمضي كلام الله الذي تكلم به وينفذ قلوب الملائكة حتى يفزعوا من ذلك.

قوله: « ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي زال عنها الفزع قال ابن عباس وغيره.

قوله: « ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربكم؟ أي: قال الملائكة بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا: ماذا خلق ربكم؟

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ أي قالوا: قال الله الحق. علموا أن الله لا يقول إلا حقاً.

قوله: «فيسمعها مسترق السمع» أي يسمع الكلمة التي قضاها الله وسمعتها الملائكة وتحدثوا بها، ومسترق السمع هم الشياطين.

وفي صحيح البخاري (٣٢١٠، ٣٢٨٨، ٥٧٦٢) عن عائشة -ﵺ- مرفوعاً: «إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».

فظاهر هذا أنهم لا يسمعون كلام الملائكة الذين في السماء الدنيا وإنما يسمعون كلام الملائكة الذين في السحاب. قاله في «الشرح». قال في «إبطال التنديد»: وليس كما قال، فإن هذا الحديث إنما دلَّ على أنهم يسمعون من الذين في السحاب، وسماعهم منهم لا ينفي سماعهم من الذين في السماء الدنيا بل سماعهم منها دل عليه دليل آخر، وقد قال تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحجر:١٧-١٨]، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات:١٠]، وقال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن:٨-٩]، والشهب إنما يُرمى بها من السماء لا من السحاب، فالحق أن يقال إنهم كما يسمعون من ملائكة السماء، فكذلك يسمعون من ملائكة السحاب، ولا تنافي بين الأمرين».

قولـه: «ومسترق السمع هكذا.. وصفه سفيان بكفه» أي وصف ركوب بعضهم فوق بعض، وسفيان: هو ابن عيينة الهلالي، أبو محمد الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ فقيه إمام حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة.

قولـه: «فحرَّفها» بحاء مهملة وراء مشددة وفاء.

قولـه: «وبدَّد» أي فرَّق بين أصابعه.

قولـه: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته» أي يلقي الشيطان الفوقاني المستمع الكلمة التي سمعها إلى الشيطان الذي تحته وهكذا «حتى يلقيها آخرهم على لسان الساحر أو الكاهن».

قوله: «فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه» والشهاب النجم الذي يُرمى به مسترق السمع، وهو لا يقتله. لما روى ابن جرير عن ابن عباس: فأتبعه شهاب ثاقب.

قال: لا يقتلون بشهاب ولا يموتون ولكنها تحرقهم من غير قتل وتخبل وتخدج من غير قتل، وهذا يدل على أن الرجم بالنجوم كان قبل المبعث، لما روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي عن معمر عن الزهري عن علي بن حسين عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ جالساً في نفر من أصحابه فرُمي بنجم فاستنار، فقال: «ما كنتم تقولون إذا كان هذا في الجاهلية ؟ » قالوا: نقول يُولد عظيم، أو يموت عظيم. فقال: «إنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا إذا قضى أمراً سبَّح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلون حملة العرش فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخطف الجن السمع فيرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق لكنهم يحرفونه ويزيدون فيه». قال معمر: قلت للزهري: كان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، أرأيتَ وأنَّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً، قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث رسول الله ﷺ. وفيه: الرد على المنجِّمين الذين ينسبون الحوادث التي تقع في الأرض إلى الكواكب؛ لما في الرمي بها من الدلالة على أنها مسخرة لما خلقت له، لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة، أي يكذب الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألقاها إليه وَليُّه من الشياطين مائة كذبة، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة ويخبر بالجميع وليَّه من الإنس فيفتتن

الإنسُ بالإنسيِّ الساحر أو الكاهن ويفتتان بوليِّهما من الشياطين ويقبلون ما جاؤوا به من الصدق والكذب لكونهم قد يصدقون فيما يأتون به من خبر السماء.

قولـه: «فيُقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا» فيصدِّقون بكونهم قد يصدقون بعض الأحيان كما في الصحيح عن عائشة -رضي الله عنها-، قلت: يا رسول الله، إن الكهان كانوا يحدثونا بالشيء فنجده حقاً. قال: «تلك الكلمة التي يخطفها الجني فيقذفها في أُذن وليّه ويزيد فيها مائة كذبة». أخرجه البخاري (٥٧٦٢، ٧٥٦١)، ومسلم (٢٢٢٨). وفيه: ذكر استراق الشياطين وصفة ركوب بعضهم بعضاً وإرسال الشهب، وأنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أُذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه، وكون الكاهن يصدق في بعض الأحيان وكونه يكذب معها مائة كذبة وأنه لم يصدق كذبه «إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء» وكونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها. وفيه: قبول النفوس للباطل؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة. قاله المصنف -رحمه الله-. وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه كله حق، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة:٤٢].

وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها: إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، خلافاً للأشاعرة والجهمية ونفاة المعتزلة. قاله في «فتح المجيد».

قولـه: «وعن النواس بن سِمعَان » - بكسر السين - بن خالد الكلابي، ويقال الأنصاري صحابي، ويقال: إن أباه صحابي أيضاً «قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر» . والإرادة صفة من صفاته -عز وجل-، وهي نوعان: إرادة شرعية دينية، فتكون هي المحبة، وإرادة كونية قدرية فتكون هي المشيئة.

قولــه: «تكلم بالوحي» فيه التصريح بأن الله يتكلم بالوحي فيوحيه إلى جبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

ففيه: الرد على الأشاعرة في إنكارهم كلام الرب تعالى وزعمهم أن القرآن عبارة عن كلام الله.

قولــه: «أخذت السموات منه رجفة» هو برفع رجفة على أنه فاعل، أي أصاب السموات منه رجفة أي ارتجفت، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: إذا قضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمراً رجفت السموات والأرض والجبال وخرَّت الملائكة كلهم سجداً.

قولــه: «أو قال: رِعدَة شديدة» شكٌّ من الراوي.هل قال النبي ﷺ رجفة أو قال رعدة وهو بفتح الراء - «خوفاً من الله -عَزَّ وَجَلَّ-» يعني أن ارتجافها وارتعادها ناشئ عن خوفها من الله تعالى، فالسموات تخاف الله بما جعل فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾ [الإسراء:٤٤]. وفي البخاري (٣٥٧٩) عن ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال:«كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل».

قولــه: «فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سُجّداً» أي يحصل لهم الأمران: الصعق وهو الغشي، والسجود هيبة وتعظيماً لربهم وخشية لما سمعوا من كلام الله تعالى وتقدس.

قولــه: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» لأنه مَلَك الوحي.

وفيه: فضيلة جبريل -عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

قولــه: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد» وفيه: إثبات صفة الكلام والإرادة.

قولــه: «ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مرَّ بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير» فله العلو المطلق سبحانه علو القدر وعلو القهر وعلو الذات.

قولـه: «فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله -عَزَّ وَجَلَّ-»

وتمامه «من السماء والأرض»، وقد بيَّض المصنف لتمام الحديث ومن رواه.

وقد رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣٠/ ٨٠).وابن أبي حاتم قاله في «الشرح».

وفيه: ارتجاف السموات لكلام الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

وأن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأن الغشي يعم أهل السموات كلهم وأنهم يخرون لله سجداً، وأن أول من يرفع رأسه جبريل، وسبب سؤال الملائكة وتفسير قولـه: «قال الحق وهو العلي الكبير».

وأن جبريل ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأنه يجيب الملائكة بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا، وأنه يقول لأهل السموات كلهم، وإثبات الصفات خلافاً للأشعرية المعطلة. قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد، الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم، الذي تصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة، وترجف منه المخلوقات، الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته، وملكه وعِزِّه وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعاً إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته؛ لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يُجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، فكيف يُجعل المربوب رباً، والعبد معبوداً؟ أين ذهبت عقول المشركين؟! سبحان الله عما يصفون. قاله في «فتح المجيد».

باب (١٧) الشفاعة

قولــه: «باب الشفاعة»:

الشفاعة هي إعانة الطالب والمشفوع إليه في المطلوب حتى يصير كل منهما معه شفعاً بعد أن كان وتراً، فكل من أعان غيره على أمر فقد شفعه فيه، فإن أعنتَ على بر وتقوى كانت شفاعة حسنة، وإن أعنتَ على إثم وعدوان كانت شفاعة سيئة. والبر ما أُمرتَ به، والإثم ما نُهيتَ عنه، والله تعالى وتر لا يشفعه أحدٌ، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله إليه وحده لا شريك له بوجه.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله- [الفتاوى ١٤/ ٤١٤]: «والشفاعة سببٌ من الأسباب التي يرحم الله بها من يرحم من عباده، وأحق الناس برحمته أهل التوحيد والإخلاص له، فكل من كان أكمل في تحقيق إخلاص «لا إله إلا الله» علماً وعقيدة وعملاً وبراءة وموالاة ومعاداة كان أحق بالرحمة».

قال: «وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة في الصحيحين والسنن والمسانيد». انتهى.

* وشروطها: إذنه تعالى، ورضاه. * وموانعها: الشرك بالله.

* ومستحقها: الموحِّد. * والمالك لها: هو الله -عز وجل-.

* وأنواعها: ستة. فيما ذكر العلامة ابن القيم -رحمه الله-:

الأول: الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أولي العزم من الرسل حتى تنتهي إلى النبي ﷺ وهي الشفاعة لإراحتهم من موقف القيامة، وهذه خاصة بالنبي ﷺ لا يشركه فيها أحد.

الثاني: شفاعته لأهل الجنة في دخولها.

الثالث: شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع: شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم أن يخرجوا منها، والأحاديث بها متواترة، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبَدَّعُوا من أنكرها أي: نسبوهم إلى البدعة.

الخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم، وهذه لم ينازع فيها أحدٌ وكلها مختصة بأهل الإخلاص.

السادس: شفاعته في بعض الكفار من أهل النار حتى يخفّف عنهم العذاب، وهذه خاصة بأبي طالب وحده» .انتهى.

قوله : « وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام:٥١] .

يقول تعالى: وأنذر يا محمد به، أي: بالقرآن. قاله ابن عباس.

الذين يخافون... وهم أهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله شفيعاً بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله وحده، ولم يلتفتوا إلى أحدٍ سواه فيما يرجونه أو يخافونه.

والإنذار هو الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها، وهذه نذارة خاصة أمره الله تعالى أن ينذر الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾ أي: ليس لهم من دونه ولي يتولاهم، ولا شفيع من عذابه يوم القيامة،﴿ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ في هذه الدار فيعملون عملاً ينجيهم الله به من عذابه يوم القيامة. والتقوى: أن تجعل بينك وبين النار وقاية بأن تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله . وأما النذارة العامة: ففي قولـه تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام:١٩] وغيرها .

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ بعد قوله: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾» قل يا محمد: أو لو كان الشفعاء الذين اتخذوهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون؟

وشيئاً: نكرة في سياق النفي تعم كل شيء، أي لا يملكون شفاعة ولا غيرها ولا يعقلون؛ لأنهم إما أموات غير أحياء وما يشعرون أيّان يُبعثون، أو جماد لا تعلم شيئاً ولا تعقل.

ثم قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أي هو المالك لها. وهذا إنكار منه تعالى على المشركين في اتخاذهم الشفعاء من دونه مع كونهم لا يملكون شفاعة ولا غيرها، فليس لمن يطلبونها منه شيء منها وإنما تطلب ممن يملكها وهو الله -عز وجل- دون ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥] .

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فقال تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

والإذن نوعان: إذن بمعنى المشيئة والخلق. وإذن بمعنى الإباحة والإجازة.

فمن الأول: قوله في السحر ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢] أي: بمشيئته وقدره وإلا فهو لم يبحْ السحر.

وكذا قوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ [آل عمران:١٦٦] من القتل، والجراح، والتمثيل، فبإذن الله، فهو خالق أفعال الكفار والمؤمنين.

والنوع الثاني: بمعنى الإباحة والإجازة ومنه:

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

وقوله: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٥] .

فإن هذا يتضمن إباحته لذلك، وإجازته، ورفع الحرج عن فاعله مع كونه بمشيئته وقضائه. فقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

هو هذا الإذن الكائن بقدره وشرعه، ولم يرد بمجرد المشيئة والقدر.انتهى ملخصاً من كلام شيخ الإسلام –رحمه الله–.

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم:٢٦]. قال أبو حيان: «كم» خبرية، ومعناها التكثير وهي في موضع رفع بالابتداء والخبر «لا تغني»، وإذا كانت الملائكة لا تغني شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه أي يرضاه أهلاً للشفاعة فكيف تشفع الأصنام لمن عبدها ؟.

قال ابن كثير: «وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه –عز وجل– أنه لا يتجاسر أحدٌ على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما جاء في حديث الشفاعة: «آتي تحت العرش فأخرّ ساجداً فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل يُسمع، واشفع تُشفع». الحديث. أخرجه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

وقول الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].وقد تقدّم الكلام على هذه الآية.

وفيه: معرفة تفسير الآيات. قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله: «قال أبو العباس»: هو شيخ الإسـلام وعلم الهداة الأعـلام أحمد بن تيمية.

«نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه أو يكون عوناً لله ولم يبقَ إلا الشفاعة فبيَّنَ أنها لا تنفع إلا لمن أذِنَ له الرب كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي مُنتفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده لا يبدأ بالشفاعة أولاً، ثم يُقال لـه: ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسلْ تُعط، واشفع تُشفع».

وقال ابن القيم -رحمه الله-: «وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها قطعاً، يعلم من تأمّله وعرفه أن من اتخذ من دون الله ولياً فمثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل لديه من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الخصال الأربع: إما مالكاً لما يريده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً له وظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى: الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك وهي الشفاعة بإذنه، فهو الذي يأذن للشافع، وإن لم يأذن له لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، وكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها.». انتهى ملخصاً.

وقال أيضاً: «ومن أنواع الشرك: طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم.

وقال شيخ الإسلام: «وهذا الموضع افترق الناس فيه ثلاث فرق: طرفان ووسط، فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب كالنصارى ومبتدعة هذه الأمة أثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن، والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعة نبينا ﷺ في أهل

الكبائر من أمته بل أنكر طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه، كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه.

فأنكروا الشفاعة بقولـه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤]، وبقولـه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر:١٨].

وأما سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة فأثبتوا ما جاءت به السنة عن نبي الله ﷺ من شفاعته لأهل الكبائر من أمته وغير ذلك من أنواع شفاعاته وشفاعة غيره من النبيين والملائكة، وقالوا: إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحدٌ، وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غير وشفاعته والصدقة عنه والصوم عنه في أصح قولي العلماء كما ثبتت به السنة الصحيحة وما كان في معنى الصوم. وأما من علَّق قلبه بأحد المخلوقين يرجوه ويخافه فهذا من أبعد الناس عن الشفاعة، فشفاعة المخلوق عند المخلوق تكون بإعانة الشافع للمشفوع لـه بغير إذن المشفوع عنده، بل يشفع إما لحاجة المشفوع عنده وإما لخوفه منه، فيحتاج أن يقبل شفاعته، والله غني عن العالمين كلهم فما من شفيع إلا من بعد إذنه فله ﷺ شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد، وشفاعات يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين لكن ما له فيها أفضل مما لغيره، فإنه ﷺ أفضل الخلق وأكرمهم على ربه -عَزَّ وَجَلَّ-، وله من الفضائل التي ميّزه بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه ومن ذلك المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون». انتهى.

قولـه: «وقال له أبو هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه». وهذا الحديث رواه البخاري (٩٩).

وفيه: «وشفاعتي لمن قال: لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه، ولسانه قلبه».

وشاهده: ما رواه مسلم (١٩٩) عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة – إن شاء الله – من مات لا يشرك بالله شيئاً».

قوله: «قال شيخ الإسلام: فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقتها: أن الله سبحانه هو الذي يتفضّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذِن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود».

قوله: «فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك وتلك منفية مطلقاً، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص». انتهى كلامه –رحمه الله–.

وقال أيضاً: «والإخلاص محبة الله وإرادة وجهه».

وفيه: معرفة صفة الشفاعة المنفية، والشفاعة المثبتة، وذكر الشفاعة الكبرى وهي المقام المحمود، وصفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً بل يسجد، فإذا أُذن له شفع، ومن أسعد الناس بها، وأنها لا تكون لمن أشرك بالله، وبيان حقيقتها. قاله المصنف.

باب (١٨) قول الله تعالى:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾

قولـه: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية [القصص:٥٦]».

أراد المصنف –رحمه الله– بهذه الترجمة: الرد على عُبّاد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والأولياء أنهم ينفعون ويضرون فيسألونهم مغفرة الذنوب وتفريج الكروب وهداية القلوب، ويعتقدون أن لهم التصرف بعد الموت على سبيل الكرامة، فإذا عرف الإنسان معنى هذه الآية المترجم بها ومن نزلت فيه تبيَّن له أن رسول الله ﷺ الذي هو أفضل الخلق عند الله وأعظمهم جاهاً عنده حرص واجتهد في هداية عمه أبي طالب في حال حياته وعند موته فلم يستطع ذلك ولم يقدر عليه، ثم استغفر له بعد موته فلم يغفر له بل نهاه الله عن ذلك.

قال الزجَّاج: أجمع المسلمون على أن هذه الآية نزلت في أبي طالب.

قولـه: «في الصحيح » أي الصحيحين.

«عن ابن المسيب» وهو سعيد بن المسيب المخزومي القرشي، أحد العلماء الأثبات والفقهاء الكبار الحفَّاظ العبَّاد، اتفقوا على أن مراسيله أصح المراسيل. قال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

قولـه: «عن أبيه » وأبوه المسيب صحابي، وكذا جده حَزَن صحابي، استشهد باليمامة.

قال: «لما حضرت أبا طالب الوفاة» أي ظهرت عليه علامات الموت «جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبي أمية وأبو جهل » يحتمل أن يكون المسيب حضر هذه القصة، فإن المذكورين من بني مخزوم، وهو أيضاً مخزومي.

وكانوا يومئذٍ كفاراً فمات أبو جهل على الكفر وأسلم الآخران، وفي هذا جواز عيادة المشرك إذا رُجي إسلامه، وجواز حمل العلم إذا كان فيه مصلحة راجحة على عدمه.

قوله: «فقال النبي ﷺ: «يا عم» منادى مضاف يجوز فيه إثبات الياء وحذفها.

قاله في «الشرح».

قوله: «قل: لا إله إلا الله كلمةً أُحاجّ لك بها عند الله» أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤). أي قل هذه الكلمة لأنه يعرف معناها وما دلَّت عليه من البراءة من كل معبود سوى الله، فلو قالها في تلك الحال لنفعته؛ لأنه لا يقولها إلا عن اعتقاد لمعناها وما دلت عليه.

وفيه: معرفة تفسير قوله «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه من يدعي العلم، وأن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال الرجل: قل لا إله إلا الله، فقبَّح اللهُ مَنْ أبو جهلٍ أعلمَ منه بأصل الإسلام. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: «كلمة» بالنصب على أنه بدل من لا إله إلا الله.

ويجوز رفعها على احتمال لمبتدأ. قاله القرطبي.

قوله: «أُحاجّ لك بها عند الله» هو بتشديد الجيم من المحاجَّة جواب الأمر، أي أشهد لك بها عند الله. وفيه: دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فلو قالها نفعته وإن لم يعمل شيئاً غير ذلك.

قوله: «فقالا له» أي أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية.

«أترغب عن ملة عبدالمطلب» ذكَّراه الحُجَّة الملعونة التي يتعلق بها المشركون الأولون والآخرون وهي تقليد الآباء والكبراء، وأخرجا الكلام مخرج الاستفهام مبالغة في الإنكار لعظمة هذه الحجة عندهم، ولذا اكتفيا بها في المجادلة مع مبالغته ﷺ وتكراره، فلأجل وضوحها عندهم اقتصرا عليها. قاله المصنف -رحمه الله-.

و«ملة عبدالمطلب » هي عبادة الأوثان والشرك بالله في إلهيته «فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاد، فكان آخر ما قال» الأحسن فيه الرفع على أنه اسم «كان » وجملة «هو » وما بعدها الخبر «هو على ملة عبدالمطلب». وقد رواه الإمام أحمد بلفظ: أنا على ملة عبد المطلب فغيره الراوي استقباحاً للفظ المذكور؛ لأنه لو حكاه بلفظه لأوهم عود الضمير إلى المتكلم وهو من التصرفات الحسنة. قاله الحافظ ابن حجر.

قوله: «وأبى أن يقول لا إله إلا الله» قال الحافظ ابن حجر: «هذا تأكيدٌ من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب».

وفيه: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه، ومضرّة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف. قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله: «فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْـه عنك». وفي رواية مسلم:«أَمَا والله لأستغفرن لك». قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، والحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار .

قوله: « فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية»

أي: ما ينبغي لهم ذلك، وهو خبر بمعنى النهي.

والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب، فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله فأنزل الله بعد قوله: « لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك» يفيد ذلك ، وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسباباً أُخر، فلا منافاة ؛ لأن أسباب النزول قد تتعدّد.

قال الحافظ ابن حجر [الفتح ٧/ ١٩٥]: «ويظهر أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره، يوضح ذلك ما يأتي في التفسير، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١١٣] الآية.

ونزل في أبي طالب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].
كلُّه ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويضعف ما ذكره السهيلي أنه رأى في بعض كتب المسعودي أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيحين». انتهى.

وفيه: تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى. قالـه الحافظ ابن حجر.

قولـه: «وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾

قال ابن كثير: [التفسير ٦/ ٢٤٥-٢٤٦]: «يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: إنك يا محمد ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ والله يهدي من يشاء». والمنفي هنا هداية التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله وحده وهو القادر عليه.

فنفى عنه هذه الهداية، وأثبت له هداية الدعوة والبيان في قولـه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى:٥٢].

وفيه: جِدُّه ﷺ ومبالغــته في إسلام عمِّه وكونه استغفر له فلم يغفر له، بل نُهي عن ذلك. قاله المصنف -رحمه الله-. وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: «مات أبوطالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً، وتوفيت خديجة -رضي الله عنها- بعد موت أبي طالب بثمانية أيام، ومن حكمة الرب سبحانه وتعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبيِّن لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون ما سواه، فلو كان عند النبي ﷺ الذي هو أفضل خلقه وأكرمهم عليه من هداية القلوب، وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب ونحو ذلك شيء لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطُه ويحميه ويؤويه، وناله

بسببه من الأذى ما ناله، وحُصر في الشعب سنوات، وقاطعته قريش من أجله، وكان ينشد الأشعار في الذَّبِّ عنه ومدحه والثناء عليه.

وفي قصة وفاة أبي طالب المروية في الصحيحين البخاري (٤٧٧٢)، ومسلم (٢٤).

وحرص النبي ﷺ على إسلامه فلم يسلم بل مات على ملة عبدالمطلب التي هي عبادة الأوثان والشرك بالله ونزل في حقه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦].

واستغفار النبي ﷺ له فلم يغفر له بل نهى عن ذلك وأنزل الله في النهي عنه قولـه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣].

الرد على الرافضة الذين يزعمون إسلام أبي طالب.

وعلى الشيخ أحمد زيني دحلان الذي ألَّف لهم كتاباً في إسلامه سماه «أسنى المطالب في إسلام أبي طالب» مع ما ورد في قصة وفاته وما نزل في ذلك من الآيات، وما تظاهرت به الأحاديث من أن له نعلان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، نسأل الله السلامة والعافية بمَنِّه وكرمه، ونعوذ به من زيغ القلوب ورين الذنوب وعمى البصائر.

باب (١٩) ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

قوله: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»:

أراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة أن يبيِّن أن الغلو في الصالحين يكون سبباً للخروج من الدين، فإن الشيطان يخرج الغلو فيهم في قالب محبتهم وأنه من الدين الذي يقرّبهم إلى الله تعالى، ويثابون عليه.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء:١٧١].

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، والغلو هو الإفراط في التعظيم بالقول والفعل والاعتقاد، أي لا تجاوزوا الأمر المشروع في الدين ولا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله وهي العبودية إلى المنزلة التي لا تنبغي إلا لله، والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فإنه عام يتناول جميع الأمة تحذيراً لهم أن يفعلوا كفعل اليهود والنصارى، وبسبب الغلو وقع الشرك في العبادة في هذه الأمة.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: ومن تشبَّه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم...

قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحيهم.

قوله: «وفي الصحيح» أي: صحيح البخاري، «عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح:٢٣].

قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت».

قال القرطبي [التفسير ١٨/٣٠٨]: «وإنما صور أوائلهم الصور ليستأنسوا بهم ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها». انتهى.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون: «يا أكثم، رأيتُ عمرو بن لحي بن قمئة بن خندق يجر قُصْبَه في النار، فما رأيتُ رجلاً أشبه برجل منك به ولا به منك». فقال أكثم: أتخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غيَّر دين إبراهيم، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، وحمى الحامي». أخرجه الحاكم (٤/ ٦٠٥)، وقال: صحيح على شرط مسلم.ووافقه الذهبي. وقال الألباني: هو حسن فقط. الصحيحة (٤/ ٢٤٣-٢٤٤).

والأنصاب: المراد بها الأصنام المصورة على صورهم المنصوبة في مجالسهم.

و قوله: «حتى إذا هلك أولئك» أي الذين نصبوها ليكون أشوق لهم إلى العبادة وليتذكروا برؤيتها أفعالهم.

قوله: «ونُسِيَ العلمُ» أي المعرفة بحالها وما قصده من صورها وغلب الجهَّال الذين لا يميِّزون بين التوحيد والشرك، وذهب العلماء الذين يعرفون ذلك عُبدت وقالوا: ما عَظَّم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله فعبدوهم، فهذا هو السبب في عبادة هؤلاء الصالحين وهو رجاء شفاعتهم عند الله.

قوله: «وقال ابن القيم» هو العلاّمة المحقق محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، قال السخاوي: «العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة، مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة».

«قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم». فتبيَّن أن مبدأ الشرك بالصالحين هو الغلو فيهم وهو أول شرك حدث في الأرض.

قال شيخ الإسلام: «الغلو في الأمة في طائفتين: طائفة من ضلاَّل الشيعة الذي يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين».

وفيه: معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين، وأول شيء غُيِّر به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم، وقبول النفوس للبدع مع كون الشرائع والفطر تردها، وأن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين. والثاني: فعل أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

وفيه: معرفة تفسير الآية التي في سورة نوح ومعرفة جبلة الإنسان في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد، وفيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدعة سبب الكفر ومعرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل وأنها أحب إلى الشيطان من المعصية؛ لأن المعصية يتاب منها والبدعة لا يُتاب منها، ومضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح ومعرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها ومعرفة عظم شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

ومنها - وهي أعجب -: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، والتصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة، وظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك، والتصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجود العلم ومضرة فقده، وأن سبب فقد العلم موت العلماء. قاله المصنف -رحمه الله- .

قولـه: «وعن عمر -رضي الله عنه- » وهو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، ولي الخلاف عشر سنين ونصفاً فامتلأت الدنيا عدلاً وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر وأنفقت كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحى. واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

قولـه: «أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»».

الإطراء: هو مجاوزة الحد في المدح والكذب فيه. قاله أبو السعادات.

وقولـه: «إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسوله» أخرجاه أخرجه البخاري (٣٤٤٥) و (٦٨٣٠)، ومسلم (١٦٩١). أمرهم رسول- ﷺ- أن لا يتجاوزوا هذا القول، أي صفوني بما وصفني به ربي في قولـه ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقولـه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقولـه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣] .

فمنزلة العبودية أخصّ أوصافه - ﷺ-.

وفيه: البيان العظيم في قولـه: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، فصلوات الله وسلامه عليه فقد بلغ البلاغ المبين. قاله المصنف -رحمه الله-.

فأبى المشركون إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه. وعظّموه بما نهاهم عنه وحذّرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارى في غلوّهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عدُّه. قاله في «فتح المجيد».

قولـه: «وعن ابن عباس » رضي الله عنهما «قال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو». هذا الحديث رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عباس قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «القطْ لي حصى » فلقطتُ له سبع حصيات هن حصى الخذف فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «أمثال هؤلاء فارمُوا، وإياكم والغلو... » الحديث.

أخرجه أحمد (١/ ٢١٥، ٣٤٧)، والنسائي (٥/ ٢٦٨، ٢٦٩)، وابن ماجه (٣٠٢٩).

وصححه الألباني في الصحيحة (١٢٨٣).

قال شيخ الإسلام: «هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأقوال والأعمال».

وفيه: القاعدة الكلية وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يؤول إليه. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «ولمسلم (٢٦٧٠) عن ابن مسعود » -رضي الله عنه- «أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون». قالها ثلاثاً». قال في «النهاية» [٥/ ٦٣]:«المتنطعون: المتعمقون الغالون في الكلام المتكلمون بأقصى حلوقهم، مأخوذ من النطع وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استُعمل في كل تعمق قولاً وفعلاً».

قال النووي: «فيه كراهة التقعُّر في الكلام بالتشدق وتكلُّف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم».

قولـه: «قالها ثلاثاً» مبالغة في التعليم والتحذير. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٢٠) ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده

قولـه: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبدَ الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده». أراد المصنف -رحمه الله- تعالى بهذه الترجمة أن يبيِّن أنه إذا كانت عبادة الله عند القبور منهياً عنها ومحرمة فكيف إذا عُبد أصحاب القبور، فإن عبادتها هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عندها وسيلة إلى عبادتها، ووسائل الشرك محرمة.

قولـه: «وفي الصحيح» أي الصحيحين أخرجه البخاري (٤٢٧) و(٤٧٤) و(١٣٤١) و(٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨). «عن عائشة -رضي الله عنها- أن أم سلمة» وهي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى أرض الحبشة، وفي «الصحيحين» أن أم سلمة وأم حبيبة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ، تُوفيت سنة اثنتين وستين.

قولـه: «ذكرت لرسول الله ﷺ » والكنيسة بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارى وما فيها من الصور.

قولـه: «فقال: أولئكِ» بكسر الكاف خطاب للمرأة.

قولـه: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح» هذا - والله أعلم - شك من أحد رواة الحديث، هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ وفيه التحري في الرواية والرواية بالمعنى. قاله في «الشرح».

قولـه: «بنوا على قبره مسجداً» أي موضعاً للصلاة، «وصوروا فيه تلك الصور» والإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة.

قولـه: «أولئكِ شرار الخلق عند الله» وفيه: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجداً يُعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحَّت نية الفاعل والنهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك. قاله المصنف –رحمه الله–. وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور وتصوير الصور لا سيما وقد ثبت اللعن عليه.

قال البيضاوي: «ولما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً، لعنهم النبي ﷺ ومنع المسلمين عن مثل ذلك، وإنما كانوا شرار الخلق عند الله لبناء المساجد على القبور، والتصوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوروا صورته».

قولـه: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل» هذا من كلام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية –رحمه الله–، ذكره المصنف تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد. قالـه في «فتح المجيد».

قال شيخ الإسلام [الاقتضاء ٢/ ٦٧٤]: «وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله، ولا وقت السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً.

وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادَّة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله». انتهى ملخصاً.

قوله: «ولهما» أي البخاري ومسلم «عنها » أي عن عائشة –رضي الله عنها– «قالت: لما نُزِلَ برسول الله ﷺ » بضم النون وكسر الزاي أي: نزلَ به ملكُ الموت والملائكة الكرام لقبض روحه الشريفة «طَفِقَ» بكسر الفاء أي جعل «يطرح خميصة له على وجهه » والخميصة كساء له أعلام «فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه » وفيه: ما يُلِيَ به ﷺ من شدة النزع. قاله المصنف.

قوله: «فقال وهو كذلك: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة، وهذا يُبيِّن أن من فعل مثل ذلك حلَّ عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى.

وقوله: «يحذِّر ما صنعوا » والظاهر أن هذا مدرجٌ في الحديث من كلام عائشة –رضي الله عنها–؛ لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمَّته عن أن يفعلوا هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى معه ومع الصالحين من أمته. وهذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعله تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ومع الصالحين من أمته قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة واعتقدوه قربةً من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات وما شعروا أن ذلك محادَّة لله ورسوله.

قوله: «ولولا ذلك» أي ما كان يحذر من اتخاذ قبره مسجداً «لأبرز قبره» وجعل مع قبور أصحابه في البقيع.

قولـه: «غير أنه خُشي أن يتخذ مسجداً » بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قُبض فيه، وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة فلم يبرزوا قبره.

قولـه: «ولمسلم عن جندب » بن سفيان البجلي وينسب إلى جده، صحابي مشهور مات بعد الستين -رضي الله عنه- «قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل أن يموت بخمس » أي خمس ليال «وهو يقول: إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليلٌ، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً »، والخليل هو المحبوب غاية المحبة.

قال في «النهاية» [٢/٦٨]: «الخُلَّة - بالضم -: الصداقة والمحبة التي تخلّلت القلب فصارت في خِلاَلَه: أي في باطنه. والخليل: الصديق فَعِيل بمعنى مُفَاعِل، وقد يكون بمعنى مفعول، وإنما قال ذلك لأن خُلَّته كانت مقصورة على حب الله تعالى فليس لغيره فيها مُتَّسع».

قال ابن القيم -رحمه الله- تعالى: «الخُلَّة توحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحَّد حبُّه لمحبوبه وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليلان إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، وأما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة وأن إبراهيم خليل الله ومحمد حبيب الله فمن جهله، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذه خليلاً ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة، ولأبيها، ولعمر بن الخطاب -رضي الله عنهم-، وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين ».

وفيه: ما أُكرم به ﷺ من الخُلّة والتصريح بأنها أعلى من المحبة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذتُ أبابكر خليلاً» وهو عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب الصديق خليفة رسول الله ﷺ وأفضل أصحابه بإجماع من يعتد بقولـه من أهل العلم، مات سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة -رضي الله عنه- وأرضاه.

وفيه: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة والإشارة إلى خلافته؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره، وقد استخلفه في الصلاة بالناس، وغضب لما قيل: يصلي بهم عمرُ في مرضه الذي توفي فيه.

وفيه الردُّ على الرافضة الذين يبخسون الصديق حقه. قاله المصنف -رحمه الله-.

وهم أعظم المتسبين إلى القبلة إشراكاً بعبادة عليٍّ وغيره من البشر. قالـه شيخ الإسلام.

وقد استنبط الإمام مالك -رحمه الله- كفر الرافضة من القرآن من قولـه تعالى في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ﴾ [الفتح:٢٩] قال: من غاظ أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر. ذكره ابن كثير في «تفسيره» [٧/ ٣٦٢]. قال: وقد وافقه طائفةٌ من العلماء.

وفيه: ذكره قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع بل أخرجهما بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة وهم: الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «أَلاَ» حرف استفتاح.

قولـه: «وإن من كان قبلكم» يعني: اليهود والنصارى «كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

قال بعض أهل العلم: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا يخرج على وجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لهم.

والثاني: أنهم يجوِّزون الصلاة في مدافن الأنبياء والسجود في مقابرهم والتوجه إليها حال الصلاة وعبادة الله مبالغة في تعظيم الأنبياء.

والأول: هو الشرك الجلي.

والثاني: الخفي؛ فلذلك استحقوا اللعن». انتهى.

وقال شيخ الإسلام –رحمه الله–: «أما بناء المساجد على القبور فقد صرَّح عامة الطوائف بالنهي عنه للأحاديث في ذلك... إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم تتعيَّن إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين».

وقال ابن القيم –رحمه الله–: «يجب هدم هذه القباب التي بُنيت على القبور؛ لأنها أُسِّسَت على معصية الرسول ﷺ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية..».

قولـه: «فقد نهى عنه في آخر حياته» كما في حديث جندب من قولـه: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»، «ثم إنه لعن – وهو في السياق – من فعله» كما في حديث عائشة من قولـه: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» والصلاة عندها من ذلك أي من اتخاذها مساجد، وإن لم يُبنَ مسجد فيكون المصلي عندها داخلاً في اللعنة، وهو معنى قولـها: «خُشي أن يُتخذ مسجداً».

فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً، وكل موضع قُصدت الصلاة فيه فقد اتُخذ مسجداً، بل كل موضع يصلى فيه يُسمى مسجداً كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً».

قال البغوي في «شرح السنة»: «أراد أن أهل الكتاب لم تُبحْ لهم الصلاة إلا في بيَعهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خَصَّ من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس». انتهى.

وفيه: العبرة في مبالغته ﷺ كيف بيَّنَ لهم هذا أولاً ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم ونهيه عن فعله عند قبره قبل أن يُوجد القبر، وأنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم ولعنه إياهم على ذلك، وأن مراده تحذيره إيانا عن قبره وللعلة في عدم إبرازه وفي معنى اتخاذه مسجداً وأنه قرن بين من اتخذها مساجد وبين من تقوم عليه الساعة فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود -رضي الله عنه- مرفوعاً «إن من شِرار الناس» بكسر الشين، جمع شِرِّير.

قوله: «من تُدركهم الساعة وهم أحياء» أي مقدماتها كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، وبعد ذلك يُنفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها «رواه أبو حاتم في صحيحه».

باب (٢١) ما جاء أنِ الغلو في قبــور الصالحين يصيِّرها أوثانًا تعبد من دون الله

قولـه: «باب ما جاء أن الغُلو في قبـور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله».

الغلو هو: مجاوزة الحد في التعظيم بالقول والفعل والاعتقاد.

قال في التيسير: أراد المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الترجمة أمورا:

الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين.

الثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها.

الثالث: أنها إذا عبدت سميت أوثانا ولو كانت قبور الصالحين.

الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد والأوثان هي المعبودات التي لا صورة لها، كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك. وقيل: الوثن هو الصنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحيح إلا مع التجريد، فأحدهما قد يعني به الآخر، وأما مع الاقتران، فيفسر كل واحد بمعناه.

«روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

مالك هو: الإمام أبوعبدالله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين. مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين وقيل أربع وتسعين. قال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قولـه ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد» قال في التيسير: قد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ.اهـ.

وقد بالغ النبي ﷺ في النهي وتحذير أمته عن اتخاذ القبور مساجد، وأخبر أن الله لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد وقال: «ألا وإن من كان قبلكم - يعني اليهود والنصارى - كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك». ودعا الله بأن لا يجعل قبره وثناً يُعبد، ودلّ الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عُبد لكان وثناً، ودلَّ على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها.

قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدُّوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين فتُصوّر الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرّفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحدٌ من استقبال قبره». انتهى.

وقوله: «اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» هذا الوعيد يدل على تحريم البناء على القبور وتحريم الصلاة عندها وأن ذلك من الكبائر، وفي الحديث تفسير الأوثان وتفسير العبادة، وأنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه وقرن بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وذكر شدة الغضب من الله. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقد عظمت الفتنة بتعظيم القبور وعبادتها كما قال ابن مسعود: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيِّرت قيل: غُيّرت السُّنَة؛ ولخوف الفتنة نهى عمر -رضي الله عنه- عن تتبع آثار النبي ﷺ.

قال ابن وضّاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمرُ -رضي الله عنه- بقطع الشجرة التي بُويع تحتها النبي ﷺ؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلُّون تحتها فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سويد: صليتُ مع عمر -رضي الله عنه- بطريق مكة صلاة الصبح ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلَّى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلّون فيه. فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَع، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل، ومن لا فليمض ولا يتعمّدها.

قوله: «ولابن جرير» وهو إمام المفسرين محمد بن جرير بن يزيد الطبري أبو جعفر، صاحب التفسير والتاريخ، وتفسيره أجل التفاسير وأحسنها.

قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم منه. ولد سنة مائتين وأربعة وعشرين ومات ليومين بقيا من شوال سنة ثلاثمائة وعشر.

قوله: «بسنده عن سفيان» الظاهر أنه ابن سعيد الثوري أبوعبدالله الكوفي، ثقة، حافظ فقيه، إمام عابد، كان له أتباع يتفقهون على مذهبه، مات سنة إحدى وستين ومائة وله أربع وستون سنة.

قوله: «عن منصور» هو ابن المعتمر بن عبدالله السلمي ثقة ثبت فقيه، مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: «عن مجاهد » وهو ابن جبر - بالجيم والموحدة -، أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس وغيره -رضي الله عنهم-، مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان. وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، ووُلد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر -رضي الله عنه-.

قوله: « ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم:١٩] قال: كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره» وفي رواية: فيطعم من يمر به من الناس، فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات. رواه سعيد بن منصور...قاله في «الشرح».

قولـه: «وكذا قال ابن الجوزاء» وهو أوس بن عبدالله الربعي بفتح الراء والباء، مات سنة ثلاث وثمانين «عن ابن عباس كان يلُتُّ السويق للحاج»، وهذا الأثر رواه البخاري في صحيحه.

والشاهد منه للترجمة أنهم غلوا فيه لأجل صلاحه واتخذوه وثناً بتعظيمه وعبادته، وصار من أكبر أوثان أهل الجاهلية.

وفيه: معرفة صفة عبادة اللاَّت التي هي من أكبر الأوثان، ومعرفة أنّه قبر رجل صالح، وأنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور» أي من النساء «والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج». رواه أهل السنن».

وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة، وقيل في تعليل ذلك: إنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة، وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هاني، وقد ضعّفه بعضهم ووثقه بعضهم.

قال علي بن المديني عن يحيى القطان: «لم أرَ أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هاني وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان، قال ابن معين: «لا بأس به؛ ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه». انتهى من «الذهب الإبريز» عن الحافظ المزي.

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ٢٤/٣٤٨-٣٥١]: «وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين: فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: «أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور».

وذكر حديث ابن عباس ثم قال: رجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس في الإسنادين من يُتهم بالكذب، ومثل هذا حجة بلا ريب.

وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي.... ويكفي في الاحتجاج به رواية أهل السنن له، ولم يذكر أحدٌ منهم له علة ولا معارض له».

وقال أيضاً: «وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور، ويؤيده ما في الصحيحين أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز، والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما رُوي عن عائشة -رضي الله عنها- أنها زارت قبر أخيها عبدالرحمن وقالت: لو شهدتك ما زرتك. وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال، ولو كانت كذلك لاستُحبت زيارته سواء شهدته أم لا. وهذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة، وهذا السياق لحديث عائشة. رواه الترمذي من رواية عبدالله بن أبي مليكة عنها يخالف سياق الأثر له عن عبدالله بن أبي مليكة أيضاً أن عائشة -رضي الله عنها- أقبلت ذات يوم من المقابر فقلت لها: يا أم المؤمنين، أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور ؟ قالت: نعم، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها.

أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦)، وعنه البيهقي (٤/ ٧٨)، وقد سكت عنه الحاكم، وقال الذهبي: «صحيح»، وأعلَّه الإمام ابن القيم. انظر: أحكام الجنائز للألباني (ص/ ٢٣٠).

ولا حجة في حديث عائشة، فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت بأن ذلك منسوخ ولم يذكر لها المحتج عليها النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة، يبيّن ذلك قولها: أمر بزيارتها، فهذا يبيِّن أنه أمر بها أمراً يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة، ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها لما زرتك، واللعن صريح في التحريم والخطاب بالأول في قوله: فزوروها، لم يتناول النساء، فلا يدخلن في الحكم الناسخ.

والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لـم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص إذ قد يكون قولـه «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنه محكم كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وكذلك الآخر، ومن العلماء من يقول التشييع كذلك...، ويؤيّده ما في الصحيحـين أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز، وفي هذا الحديث لعن المتخذين على القبور المساجد والسُّرج وهو من فعل أهل الكتاب.

قال أبو محمد المقدسي: «لو صحَّ اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله؛ لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام».

وفيه: لعنه ﷺ زوارات القبور ولعنه من أسرجها. قالـه المصنف –رَحِمَهُ ٱللَّهُ–.

قولـه: «رواه أهل السنن» يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه ولم يروه النسائي.

قاله في «الشرح».

قال ابن القيم [إغاثة اللهفان ١/ ٢١٥]: «اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر».

باب (٢٢) ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك

قولـه: «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدِّه كل طريق يوصل إلى الشرك». الجناب: هو الجانب، قاله في «الشرح».

ذكر الشيخ هذه الترجمة في بيان أن النبي ﷺ حَمَى جانب التوحيد من شرك يبطله، أو بدعة تقدح فيه، أو معصية تنقصه؛ حرصاً على أمته وخوفاً عليهم أن يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من الأمم، فلم يترك طريقاً ولا وسيلة تؤدي إلى الشرك إلا نهى عنها وحذرهم منها، منها: تعظيم القبور والغلو في أصحابها وبناء المساجد عليها وإسراجها، والعكوف والمجاورة عندها، وتحرِّي الصلاة والدعاء والصدقة عندها؛ لا سيما قبره الشريف، فصلوات الله وسلامه عليه.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾»:

يقول تعالى ممتنّاً على المؤمنين إذْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم -عليه السلام- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٩]،.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران:١٦٤].

قال جعفر بن محمد عن أبيه قال: لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية.

وقولـه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يُعنت أمته ويشق عليها، ولذا جاء في الحديث عنه ﷺ «بُعثتُ بالحنيفية السمحة». أخرجه أحمد (٦/ ١١٦، ٢٣٣) من حديث عائشة -رضي الله عنها-، قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص١٨٦): وسنده حسن. وأخرجه أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني في الكبير (٧٨٦٨) من حديث أبي أمامة -رضي الله عنه-.

وفي الصحيح: «إن هذا الدين يسر».

وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم، وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي المؤمنين به، فحرصه على الهداية عام لجميع الأمة، ورأفته ورحمته خاصة بالمؤمنين به.

قال أبو عبيدة: الرأفة أرقّ الرحمة، وفيه: معرفة تفسير آية براءة وإبعاد أمته عن هذا الحمى غاية البعد، وذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً»».

قال شيخ الإسلام: أي لا تعطّلوها من الصلاة فيها، والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحرِّيها عند القبور عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبَّه بهم من هذه الأمة ممن يدّعي الإسلام.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه». البخاري (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧).

وفيه: الحث على النافلة في البيت، وأنه متقرر عندهم أنه لا يُصلَّى في المقبرة. قاله المصنف.

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيداً» وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وفيه: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال، ونهيه عن الإكثار من الزيارة وتعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بَعُد فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب، وكونه تعرض عليه في البرزخ أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه. قاله المصنف -رحمه الله-.

قال شيخ الإسلام [الاقتضاء ١/ ٤٤١]: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد، إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك».

وقال ابن القيم [إغاثة اللهفان ١/ ٢٠٩]: «العيد ما يعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان مأخوذ من المعاودة والاعتياد، فإذا كان اسماً للمكان فهو الذي يقصد فيه الاجتماع، وانتيابه للعبادة أو لغيرها كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة كما جعل أيام العيد فيها عيداً، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر».

وقوله: «وصلُّوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» يشير على أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً.

قال شيخ الإسلام [الاقتضاء ٢/ ٦٥٤]: «ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد عُلم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة». وقال الحافظ محمد بن عبدالهادي [الصارم المنكي (٤١٤)]: «هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يُرتقى بها إلى درجة الصحة».

قوله: «وعن علي بن الحسين» بن علي بن أبي طالب المعروف بزين العابدين، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم -رضي الله عنه-، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح، وأبوه الحسين سبط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة، «أنه» أي علي بن الحسين «رأى رجلاً يجي إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدِّثكم حديثاً سمعته من أبي» الحسين «عن جدي» علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- «عن

رسول الله ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلُّوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم. رواه في المختارة».

قال شيخ الإسلام [الاقتضاء ٢/ ٦٦٠]: «فانظر إلى هذه السُّـنّة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت، الذي لهم في رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم وكانوا لها أضبط».

قولـه: «إنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجة» بضم الفاء وسكون الراء وهي الكُوّة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قولـه: «فيدخل فيها فيدعو، فنهاه» وهذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

وقال شيخ الإسلام: «ما علمت أحداً رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً».

ويدل أيضاً على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد للصلاة منهي عنه ؛ لأن ذلك لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

وكان الصحابة والتابعون -رضي الله عنهم- يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا ولم يكونوا يأتون القبر للسلام لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هو السنة. وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم ؛ بل نهاهم عنه في قولـه «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني»، فبيَّن أن الصلاة تصل إليه من بعد، وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب، إذ كانت عائشة -رضي الله عنها- فيها وبعد ذلك إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع

ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه للسلام ولا للصلاة ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم.

ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً؛ فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبيَّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردَّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بصوت من خارج كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويحدّثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر فيرونه خارجاً من القبر فيظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن أرواح الموتى تجسّدت لهم فرأوها.

وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد لأن ذلك من اتخاذها أعياداً ومن أعظم أسباب الإشراك بأصحابها، وهذه أفتى فيها شيخ الإسلام بمنع السفر لا مجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين، ونقل فيها اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي، ومن مانع لذلك كابن بطة وابن عقيل وأبي محمد الجويني والقاضي عياض، وهو قول الجمهور، نص عليه مالكٌ ولم يخالفه أحدٌ من الأئمة وهو الصواب لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تشدّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً، وجاء في رواية بصيغة النهي فتعيَّن أن يكون للنهي فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد.

قوله: «رواه في المختارة» لأبي عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي. و«المختارة» كتاب جمع فيه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين وتصحيحه في مختارته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. قاله شيخ الإسلام [الاقتضاء ٢/ ٦٥٥].

مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

باب (٢٣) ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قولـه: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»

قال السعدي: مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم.

قال في حاشية كتاب التوحيد: لما ذكر المصنف -رحمه الله- التوحيد وما ينافيه من الشرك، أو ينافي كماله، أو ما يكون وسيلة إلى ما ينافيه، ذكر أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة بعبادة الأوثان.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يامحمد ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾

أي: أعطوا حظاً من العلم ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

قال عمر بن الخطاب: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان. والأثر حسن.

وكذا قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم.

وفي مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٠): الطاغوت هو الطاغي من الأعيان والجبت: هو من الأعمال والأقوال. انتهى. وهذا ضابط دقيق في الفرق بينهما فافهمه.

قولـه: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)﴾

وروي عن ابن عباس قال: لما قدم كعب بن الأشرف اليهودي مكة قالت قريش: ألا ترى إلى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة والسقاية. قال: أنتم خير. فنزل فيهم ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾ [الكوثر:٣]. ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة نحوه.

قلت: وهو أصح عن عكرمة مرسلًا ولا بمرسله استئناسًا.

وفيه: معرفة تفسير آية النساء. ومعرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها، وقولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين.

ومنها: وهي المقصود بالترجمة أن هذا لابد أن يُوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد. قاله المصنف -رحمه الله-. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

قال في الجديد: مناسبة الآية للباب وللتوحيد: حيث دلت الآية على وجود الشرك في أهل الكتاب، وقد ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب ومن ذلك الشرك.

قوله: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾

قال البغوي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ يعني قولهم: لم نرَ أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم ولا ديناً شراً من دينكم.

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ أي ثواباً وجزاءً.

قوله: ﴿عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي هو من لعنه الله وغضب عليه يعني: اليهود، وجعل منهم القردة والخنازير.

قوله: « ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم من عبد الطاغوت أي أطاع الشيطان فيما سوَّل له، وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة، وفيه معرفة تفسير الآية. قاله المصنف.

قال شيخ الإسلام: [الفتاوى ١٤/ ٤٥٥] في قوله ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾: «الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت، فهو فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية.

لكن الأفعال المتقدمة الفاعل فيها هو اسم الله مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم من عبد الطاغوت وهو الضمير في عَبَد، ولم يعد سبحانه لفظ «من» لأنه جعل هذه الأفعال كلها صفة لصنف واحد، وهم اليهود».

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ ممن تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدًا ۝٢١﴾.

حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين، أحدهما: أنهم المسلمون، والثاني: أنهم المشركون. وعلى القولين فهم مذمومون على ذلك؛ لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» - يحذر ما صنعوا -.

رواه البخاري ومسلم.

ولما فعلته اليهود والنصارى جرَّهم ذلك إلى الشرك، وما فعلته اليهود والنصارى ستفعله هذه الأمة. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة كما في حديث أبي سعيد الآتي.

وفيه: معرفة تفسير الآية. قاله المصنف.

قوله: «عن أبي سعيد » سعد بن مالك بن سنان الأنصاري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنّ سَنن من كان قبلكم» بفتح المهملة وقد تضم والفتح أولى. قاله المهلب.

أي: طريق من كان قبلكم «حذوَ القذة بالقذة» بنصب حَذو على المصدر، والقُذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم، أي لتتبعنّ طريقهم في كل ما فعلوه وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذّة السهم القذة الأخرى.

وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة، وقد وقع كما أخبر وهو علم من أعلام النبوة.

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

وقوله: «قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» هو برفع اليهود خبر مبتدأ محذوف أي: أهم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم ؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني.

وقوله: «فمن ؟» استفهام إنكاري، أي: فمن هم غير أولئك؟.

وفي رواية أبي هريرة عند البخاري أنه فسّرهم بفارس والروم، والتفسير ببعض الأمم لا ينفي التفسير بأمة أخرى، إذ المقصود التمثيل لا الحصر. قاله في «الشرح».

قال شيخ الإسلام: «وهذا خرج مخرج الخبر والذمّ لمن يفعله كما كان يخبر عما يكون بين يدي الساعة من الأشراط والأمور المحرّمة».

قوله: «أخرجاه » أي البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم، أخبر ﷺ في هذا الحديث أن كل ما وقع من أهل الكتاب مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها لابد أني قع جميعه في هذه الأمة، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة. وقد وقع كما أخبر ﷺ فاتبع كثير من أمته اليهود والنصارى وفارس والروم في ملابسهم ومساكنهم ولغتهم وإقامة شعائرهم في الأديان والأعياد والعادات والحروب وزخرفة المساجد وتعظيم القبور وبناء المساجد عليها حتى عبدوا الأموات واتخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله وأعرضوا عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والعمل بهما وأقبلوا على كتب الإلحاد ومجلات الخلاعة والمجون والمصورات واستماع الأغاني الخليعة والملاهي وغير ذلك مما هو مشاهد بالعيان، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: «ولمسلم عن ثوبان » مولى رسول الله ﷺ، صحبه ولازمه ونزل الشام بعده ومات بحمص سنة أربع وخمسين -رضي الله عنه-. «أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لـيَ الأرضَ فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُويَ لي منها،

وأعطيتُ الكنزين: الأحمرَ والأبيض، وإني سألتُ ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنَة بعامة، وأن لا يسلِّط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإني ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرَدّ، وإني أعطيتُك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة بعامّة، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضُهم بعضاً». رواه البرقاني في صحيحه.

وزاد: «وإنما أخاف على أُمّتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تعبُد فئامٌ من أمتي الأوثان، وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذّابون كلهم يزعُم أنه نبيٌّ، وأنا خاتم النبيّين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفةٌ من أُمتي على الحق منصورة، لا يضرُّهم من خذلهم ولا مَنْ خالفهم حتى يأتيَ أمر الله تبارك وتعالى».

قوله: «إن الله زوى لي الأرضَ» قال التوربشتي: «زويتُ الشيء جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب، وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره». قال الطيبي: «جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها».

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوي لي منها». قال القرطبي: «وهذا الخبر قد وجد مخبره، كما قال ﷺ، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر وكثير من بلاد السند و الهند والصين، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذا لم يذكر - عليه السلام - أنه أُريَه، ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه».

قولـه: «ما زوي لي منها» يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل وأن يكون مبنياً للمفعول. وفيه: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال. قاله المصنف.

قولـه: «وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض » قال القرطبي: «يعني بهما كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما، وقد قال ﷺ «والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله».

أخرجه البخاري (٦٦٢٩)، ومسلم (٢٩١٩) من حديث جابر بن سمرة.

وعبَّر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة».

وفيه: إخباره بأنه أُعطي الكنزين فوقع كما أخبر. قاله المصنف –رحمه الله–.

وقد وجد ذلك في خلافة عمر، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر.

قولـه: «وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة» هكذا ثبت في أصل المصنف بعامة بالباء وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها، قال القرطبي: «كأنها زائدة؛ لأن عامة صفة للسَنة، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام».

قولـه: «وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم» أي: من غيرهم من الكفار «فيستبيح بيضتهم» قال الجوهري [الصحاح ٣/ ١٠٦٨]: «بيضة كل شيء حوزته، وبيضة القوم ساحتهم». فيكون معنى الحديث أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح ما حازوه من البلاد والأرض، وقيل بيضتهم معظمهم وجماعتهم وإن قلوا.

قولـه: «وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرد » قال بعضهم إذا حكمتُ حكماً مبرماً نافذاً لا يرد بشيء ولا يقدر أحدٌ على رده، كما قال ﷺ: «لا رادَّ لما قضيت ».

قوله: «وإني أعطيتُك لأمّتك أن لا أهلكهم بسنة بعامّة، وأن لا أسلّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم - أي من غيرهم من الكفار - فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها» أي مَن بأقطار الأرض وهي جوانبها. وفيه إخباره بإجابة دعوته في الاثنتين وإخباره بأنه منع الثالثة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قلت: الثالثة: هي أن يجعل بأسهم بينهم. ولم يذكرها المصنف.

وقوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» الظاهر أن حتى عاطفة أو تكون لانتهاء الغاية، أي أن أمر أمته ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، فإذا وجدت هذه الأوصاف فقد يسلط الكفار على جماعتهم ومعظمهم كما وقع، فإن هذه الأمة لما جعل الله بأسها بينها تفرقت جماعتهم واشتغل بعضهم ببعض عن جهاد العدو فاستولى على كثير من بلاد المسلمين، فلا حول ولا قوة إلا بالله. وفيه: إخباره بإهلاك بعضهم بعضاً وسبي بعضهم بعضاً. قاله المصنف.

قوله: «ورواه البرقاني في صحيحه» وهو الحافظ أبوبكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة. قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً لم نرَ في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه كثير التصانيف، صنّف مسنداً ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة، ورواه أيضاً أبوداود بتمامه عن أبي أسماء عن ثوبان.

قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» وهم الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب:٦٧].

وقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١١٩].

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا» أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣). وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أخرجه أبوداود (٤٢٢٥) وغيره.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة» وقد حصل ما أخبر به ﷺ فإن السيف وقع بقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ولم يُرفع، لكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى، وقد يكون مشروعاً كقتال أهل الإسلام لأهل الشرك، وقد يكون ظلماً وبغياً وفيه إخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين» الحي واحد الأحياء وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «وحتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين» والمعنى: أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون بأهل الشرك في السكنى والديانة.

قوله: «وحتى تعبد فِئَامٌ من أمتي الأوثان»- بكسر الفاء مهموز - الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات [النهاية ٣/ ٣٦٤]. وفي رواية أبي داود: «حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان» والوثن يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا﴾ [العنكبوت:١٧]. مع قوله: ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَـٰكِفِينَ ۝٧١﴾ [الشعراء:٧١].

وقولـه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات:٩٥]، وقول النبي ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد» فعُلم بهذا أن الوثن يُطلق على ما عُبد من دون الله من القبور والمشاهد والأصنام وغيرها. وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وفيه: التصريح بوقوع عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة والتنبيه على معنى عبادة الأوثان. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: الرد على عبّاد القبور الذين ينكرون وقوع الشرك وعبادة الأوثان في هذه الأمة لجهلهم بحقيقة التوحيد وما ينافيه من الشرك والتنديد.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخلصة» أخرجه البخاري (٧١١٦)، ومسلم (٢٩٠٦).

قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدونها في الجاهلية.

وفي صحيح مسلم (٥٢) عن عائشة -رضي الله عنها- مرفوعاً: «لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزى».

قوله: «وأنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي».

قال الحافظ ابن حجر: قد ظهر مصداق ذلك في زمن النبي ﷺ فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، ثم خرج في خلافة أبي بكر الصديق طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسجاح التميمية في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة الكذاب في خلافة أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، ويقال إن سجاح تابت، ثم خرج المختار ابن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين فقتل كثيراً ممن باشر ذلك وأعان عليه فأحبه الناس، ثم ادّعى النبوة وزعم أن جبريل -عليه السلام- يأتيه.

ومنهم الحارث الكذاب خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل وخرج في خلافة بني العباس جماعة، وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً فإنهم لا يُحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعواه عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة، وقد أهلك الله من وقع له منهم ذلك وبقي من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجّال الأكبر.

وفيه: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة فوقع كما أخبر، والعجب العجاب خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق.

وفيه: أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وأنا خاتم النبيين » قال الحسن: الخاتم الذي ختم به، يعني آخر النبيين قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، و إنما ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلنّ فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فليكسرنّ الصليب، وليقتلنّ الخنزير، وليضعنّ الجزية» أخرجه البخاري (٢٢٢٢، ٢٤٧٦، ٣٤٤٨)، ومسلم (٢٤٢).

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»: قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم». وقال ابن المبارك وعلي بن المديني وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث».

قال النووي: «يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأول إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله». انتهى ملخصاً مع زيادة فيه.

قاله الحافظ ابن حجر [الفتح ١٣/ ٢٩٥].

وفيه: إخباره ببقاء الطائفة المنصورة والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة، والآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم وأن ذلك الشرط إلى قيام الساعة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن الاجماع حجة لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة»، واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: «حتى يأتي أمر الله» الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة.

وقوله: «تبارك وتعالى» جاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دالٌّ على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دالّ على كمال بركته وعظمتها وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك تعاظم. وقال ابن عباس -رضي الله عنهما-: جاء بكل بركة. قاله ابن القيم.

وكل جملة من هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة، فإن كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر. قالـه في «فتح المجيد».

باب (٢٤) ما جاء في السحر

قولـه: «باب ما جاء في السحر» أي من الوعيد الشديد.

مناسبة الباب: قال السعدي: «وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلَّا بالشرك والتوسل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر، فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره».

والسحر في اللغة: كل ما لطف مأخذه ودق، وأصل السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، وسحره بمعنى: خدعه، وسحره بكلامه: استمإله برقته وحسن تركيبه.

قال ابن قاسم: سمي سحرًا لأنه بأمور خفية لا تدرك بالأبصار، أو لأنه يصرف الشيء عن جهته، وسحره عمل له السحر، وعن الأمر صرفه. وفي الحديث: «إن من البيان لسحرا». أخرجه البخاري (٥١٤٦)، و(٥٧٦٧)، ومسلم (٨٦٩) من حديث ابن عمر.

شبهه به لكون البيان يحصل منه ما يحصل من السحر، وسمي السَّحَرُ سَحَرًا لأنه يقع خفيا آخر الليل.

وتعريف السحر شرعًا: هو عبارةٌ عن عزائمَ ورُقًى وعُقَد يستعملها الساحر بالاستعانة ببعض الشياطين؛ للتأثير في بعض الناس: إما في أبدانهم بالقتل أو المرض، أو الإخلال بعقولهم، أو في التفريق بين الزوجين، أو أحدهما عن الآخر، ونحو ذلك.

والسحر إجمالًا نوعان:

١ - سحر التخييل: وهو «مختص بكل أمر يَخْفَى سببه، ويُتَخَيَّل على غير حقيقته، ويَجْرِي مجرى التمويه والخداع. وهذا النوع من السحر يسحر أعين الناظرين، ولا حقيقة له.

٢ - السحر الحقيقي: وهو ما يؤثر في بدن المسحور، وهو واقعٌ عقلًا وحسًّا، وأثبته أهل السنة خلافًا للمعتزلة.

وقال ابن العربي: «منه ما يفرق بين المرء وزوجه، ومنه ما يجمع بين المرء وزوجه، ويسمى التولة وكلاهما كفر، وحقيقته - يعني السحر - أنه كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى ...». انتهى.

هل للسحر حقيقة؟ الجواب: مذهب جمهور أهل السُّنة والجماعة، أنَّ للسحر حقيقة، وخالف في ذلك المعتزلة. قال ابن قدامة: ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤]. يعني: السواحر اللاتي يعقدن السحر وينفثن في عقدهن.

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليُخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله. وأنه قال لها ذات يوم: «أتاني ملكان فجلس أحدُهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبَّه؟. قال: لبيد ابن الأعصم في مشط ومشاطة وفي جف طَلْع ذكر في بئر ذروان» أخرجه البخاري (٣١٧٥، ٥٧٦٣، ٦٠٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

فالتخييل الذي كان يراه ﷺ ناشئ عن السحر الذي في المشط والمشاطة، وليس هو نفس السحر، ولذا لما استخرجه وأتلف ذهب عنه ما يجده من التخييل.

وقال ابن قاسم: حتى إنه ليخيل إليه ﷺ أنه يفعل الشيء وما يفعله، وإنما هو في جسده الشريف، وظاهر جوارحه الكريمة، لا في عقله وقلبه، فلا يقدح في مقام النبوة.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ﴾: ضمير الفاعل يعود على متعلمي السحر وهم اليهود.

لأن الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن اليهود، والمعنى: لقد علم هؤلاء اليهود في كتابهم التوراة مَنْ الذي اشترى السحر بكتابي، أي: تعلم السحر، واستحبه، ورضي به عوضًا عن شرع الله ودينه.

﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾: الخلاق هو النصيب الوافر من الخير.

أي: ماله يوم القيامة نصيب من الجنة، والمعنيون بذلك الذين يُعلمون السحر من علماء اليهود. والشاهد من هذه الآية قوله: ﴿مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾.

ومناسبة الآية للباب: أنها تدل على تحريم السحر وأنه من الجبت.

وهو كذلك محرم في جميع الشرائع لم يبح في ملة من الملل. قاله في [الشرح].

وفيه: معرفة تفسير آية البقرة. قاله المصنف -رحمه الله-.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أم لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد -رحمهم الله-.

قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء لايضر فلا يكفر.

وقال الشافعي: «إذا تعلم السحر قلنا له: صفْ لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقد أهل بابل من التقرب للكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر». انتهى.

قال في التيسير: وعند التحقيق ليس بين القولين اختلاف.

فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك، بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب ولهذا سماه الله كفرًا

في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾. [البقرة:١٠٢].

قال: وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمي سحرًا فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سِحرًا ولكنه يكون حرامًا لمضرته يعزر من يفعله تعزيرًا بليغًا. انتهى.

«وقولـه تعالى: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾:

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت:الشيطان». رواه ابن أبي حاتم.

قال ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٢٥٢): «إسناده قوي».

وفيه: أن السحر من الجبت. قاله المصنف.

وقد فرق بينهما بفرق دقيق شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٠٠) فقال: فإن الطاغوت هو الطاغي من الأعيان، والجبت: هو من الأعمال والأقوال. انتهى.

وقال ابن القيم في [إعلام الموقعين] (١/ ٤٠) والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع؛ فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله. انتهى.

فالجبت من الأعمال: كعمل السحر والكهانة والشعوذة والرمل والخط.

ومن الأقوال: كالطيرة، والتشاؤم وغيرها.

وقال جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ثم السلمي بفتحتين، صحابي ابن صحابي -رضي الله عنهما-. قولـه: «الطواغيت: كهان» المراد بهذا أن الكهان من الطواغيت لا أنهم الطواغيت لا غير. فهو تفسير له ببعض أفراده.

قولـه: «كان ينزل عليهم الشيطان» أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع.

«في كل حيٍّ واحد»: قال وهب بن منبه: سألتُ جابر بن عبد الله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها. فقال: إن في جهينة واحداً، وفي أسلم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كل حيٍّ واحد، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين. رواه ابن أبي حاتم. والحي: واحد الأحياء، وهي القبائل أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ، فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحرست السماء بكثرة الشهب.

وفيه: معرفة تفسير آية النساء وتفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما، وأن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس. قاله المصنف -رحمه الله-.

ومطابقة أثر جابر للترجمة من جهة أن الساحر طاغوت من الطواغيت إذ كان هذا الاسم يطلق على الكاهن، فالساحر أولى؛ لأنه أشَرُّ وأخبث. قاله في [الشرح].

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا قالوا: يا رسول الله، وما هُنّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتولِّي يومَ الزحف، وقذفُ المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجه البخاري (٢٧٦٦) و(٥٧٦٤)، ومسلم (٨٩).

فقوله: «اجتنبوا» أبلغ في النهي من قوله: «اتركوا»؛ لأنه يتضمن الترك والتباعد عنها. **وقوله**: «السبع» لا ينفي ما زاد؛ لأنه مفهوم عدد، ومفهوم العدد إذا خالفه منطوق قُدم عليه. وقد أخرج الطبري وإسماعيل القاضي وغيرهما بأسانيد صحيحة عن ابن عباس أنه قيل لـه: الكبائر سبع. قال: هن أكثر من سبع وسبع، وفي رواية: هي إلى السبعين أقرب. وفي رواية: إلى السبعمائة.

وقوله: «الموبقات» أي المهلكات، وسميت موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

قوله: «الشرك بالله» بداية من البداءة بالأهم، وهو أن يجعل لله نداً يدعوه أو يرجوه أو يخافه كما يخاف الله -عز وجل-، وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» الحديث.

قوله: «والسحر» وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

قوله: «وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق» بأن تفعل ما يوجب قتلها.

قال في «الشرح»: كقتل المشرك المحارب. فتعقبه في الدر النضيد وقال: وهذه سبقة قلم من الشارح -رحمه الله-، فإن قتل المشرك ليس من قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق؛ لأنه مباح الدم والمال، وليست محاربته أيضاً شرطاً في قتله وإنما المراد قتل المسلم المعصوم الدم لقوله ﷺ: «لا يحلّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله: «وأكل الربا»: أي تناوله بأي وجه. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال ابن دقيق العيد: وهو موجب لسوء الخاتمة.

قوله: «وأكل مال اليتيم» عبر بالأكل لأنه أعمّ وجوه الانتفاع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: «والتولّي يوم الزحف» أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال.

وإنما يكون كبيرة إذا فرَّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال، كما قيد به في قولـه تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ الآية [الأنفال: ١٦].

قولـه: «وقذف المحصنات» القذف في الأصل: الرمي البعيد.

وشرعا: الشتم والعيب والبهتان. والمحصنات: بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن منه. والمراد: العفيفات بأن يُرمين بزنا أو لواط، والغافلات عما رمين به، فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريئ عما بُهت به، و«المؤمنات» أي بالله تعالى احترازاً عن قذف الكافرات فإنه ليس من الكبائر، وإن كانت ذمية فمن الصغائر، لا يوجب الحد. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النور: ٢٣].

وهذا الحديث ذكره المصنف غير معزوّ، وقد رواه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦).

وفيه: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «وعن جندب مرفوعاً: «حدُّ الساحر ضربةٌ بالسيف». رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف » أخرجه الترمذي (١٤٦٠)، والطبراني في الكبير (١٦٦٥)، والحاكم (٤/ ٣٦٠) وفيه إسماعيل بن مسلم المكي وهو ضعيف. وضعفه الألباني وغيره.

هذا الحديث رواه الطبراني في ترجمة جندب بن عبدالله البجلي، قال الحافظ ابن حجر: والصواب أنه غيره. وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جندب الخير أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:.. فذكره. وجندب الخير هو جندب بن كعب صحابي.

وقوله: «ضربة» روي بالهاء والتاء وكلاهما صحيح. وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يُقتل الساحر، وروى ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب بن عبدالله وجندب بن كعب وقيس بن سعد وعمر بن عبدالعزيز.

قلت: وهي آثار صحيحة عنهم. ولم يرَ الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إنْ عمل في سحره ما يبلغ الكفر، وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد، والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

قوله: «وفي صحيح البخاري عن بجالة» بفتح الموحدة بعدها جيم «ابن عبدة» بفتحتين، التميمي العنبري بصري ثقة «قال: كتب عمرُ بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر». وهذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف لكن لم يذكر قتل السواحر، فلعل المصنف أراد أصله لا لفظه.

أصله في البخاري (٣١٥٦)، وأخرجه أبوداود (٣٠٤٣)، وأحمد (١/ ١٩٠، ١٩١).

وفيه: أن الساحر يكفر ووجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده. قاله المصنف -رحمه الله-. وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، قال المصنف: يقتل ولا يُستتاب، وهو المشهور عن أحمد وبه قال مالك؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة، وعن أحمد يُستتاب فإن تاب قُبلت توبته، وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يُستتاب وتُقبل توبته؛ ولذا صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قوله: «وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقُتلت». هذا الأثر رواه مالك في الموطأ. برقم(٨٧١) بإسناد منقطع، لكن قد رواه عبد الرزاق (١٠/ ١٨٠) وابن أبي شيبة (٩/ ٤١٦) و عبد الله بن أحمد في المسائل (١٥٤٣)، وغيرهم بإسناد صحيح. وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين. «وكذا صحّ عن جندب».

باب (٢٥) بيان شيء من أنواع السحر

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر» لما ذكر المصنف السحر وما جاء فيه وأنه كفرٌ، وأنه يجب قتل الساحر، ناسب أن يذكر شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها، حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت منه هذه الأمور من الأولياء، وعدّوها من كرامات الأولياء، وليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يكون ولياً لله؛ لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع، فأولياء الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطناً وظاهراً، ومن كان بخلاف ذلك فليس بمؤمن فضلاً عن أن يكون ولياً لله تعالى، فلو أن الرجل طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى يُنظر متابعته لرسول الله ﷺ وموافقته لأمره ونهيه.

قوله: «قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر» هو المشهور بغندر الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومائتين أو سبع وأربعين ومائتين وله ست وثمانون سنة.

«عن عوف»: هو ابن أبي جميلة بفتح الجيم، العبدي البصري المعروف بعوف الأعرابي، ثقة، مات سنة ست ومائتين. «عن حيان» بالمثناة التحتية «ابن العلاء» ويقال حيان بن مخارق أبو العلاء البصري، مقبول. وبه ضعفو الحديث.

«حدثنا قَطَن» بفتحتين أبو سهل البصري، صدوق «بن قبيصة عن أبيه» قَبيصة بفتح أوله وكسر الموحدة ابن المخارق بضم الميم وتخفيف المعجمة، أبوعبدالله الهلالي، صحابي نزل البصرة.

قوله: «إنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت». قال عوفٌ: العيافة: زجر الطير» وفي «النهاية» [٣/ ٢٩٧]: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها. وهو من عادات العرب وهو كثير في أشعارهم. يقال: عاف يعيف عيفاً، إذا زجر وحدس وظن. وبنو أسد يُذكَرُون بالعيافة ويُوصَفون بها. «والطَّرْق» قال عوف: «الخط يُخط بالأرض». وفي «النهاية» [٣/ ١١١]: الطَّرْق: الضرب بالحصى الذي يفعله النساء، وقيل: هو الخَطُّ في الرمل.

قوله: «والجبت قال الحسن: رنَّةُ الشيطان. إسناده حسن».

تقدم أن فيه حيان بن العلاء وبه ضعفو الحديث.

قوله: «ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه»: أي دون تفسير عوف. وقد روى أبوداود تفسير عوف بسند آخر (٣٩٠٨) وهو صحيح. دون كلام الحسن.

وذكر إبراهيم بن مفلح أن في تفسير بقي بن مخلد أنّ إبليس رنَّ أربع رنات: رنَّة حين لُعن، ورنة حين أُهبط، ورنّة حين وُلد رسول الله ﷺ، ورنة حين أنزلت فاتحة الكتاب. وقال سعيد بن جبير: لـما لُعن إبليس تغيرت صورته عن صور الملائكة، ورنَّ رنة فكل رنة في الدنيا منها إلى يوم القيامة. وهذا الكلام صح عن مجاهد من قوله، وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنَّ إبليس رنّة اجتمعت إليه جنوده. رواه الحافظ الضياء في «المختارة» بإسناد صحيح، وهو موقوف. والرنين: الصوت، وقد رنّ يرن رنيناً. وبهذا يظهر معنى قول الحسن ﵀. وفيه: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت، ومعرفة تفسير العيافة والطرق والطيرة. قاله المصنف.

قوله: «وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم» أي طائفة من علم النجوم، قال في «النهاية» [٤/٤]: قَبستُ العلم واقتبسته إذا تَعلَّمته.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر» المحرم تعلمه.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ٣٥/ ١٩٣]: فقد صرّح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر. وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩].

قوله: «زاد ما زاد» رواه أبوداود. وإسناده صحيح وهو في الصحيح المسند (٦٤٢) لشيخنا الوادعي. أي: كلما زاد من تعلم علم النجوم، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعَبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل. قاله في «فتح المجيد».

وفيه: أنّ علم النجوم من أنواع السحر. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وللنسائي» وهو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب أبوعبد الرحمن صاحب السنن وغيرها، كان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلاثمائة وله ثمان وثمانون سنة -رحمه الله-: «من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر». أخرجه النسائي في المجتبى برقم(٤٠٧٩) وفي الكبرى(٣٥٢٨) وفيه عباد بن ميسرة المنقري لين الحديث، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. وحسنه محققو المسند (٣١/ برقم ١٨٧٨١) مع غيره بما لا يسلَّم لهم.

اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا في كل عقدة حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤]. يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك.

والنفث هو النفخ مع الريق وهو دون التفل.

والنفث فعل الساحر، فإذا تكيّفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العُقدة نفخاً مع ريق ممازج فيخرج من نفَسِه الخبيث نَفَسٌ ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور، فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي. قاله ابن القيم -رحمه الله- [بدائع الفوائد ٢/ ٢٢١].

وفيه: أن العقد مع النفث من أنواع السحر. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك» نص في أن الساحر مشرك، ولا يتأتّى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ ابن حجر عن بعضهم.

قوله: «ومن تعلق شيئاً وُكل إليه» أي من تعلّق قلبه شيئاً بحيث يعتمد عليه وكله الله إلى ذلك الشيء، فمن تعلّق على ربه وإلهه وسيده ومولاه كفاه ووقاه وحفظه وتولاّه، فنعم المولى ونعم النصير، ومن تعلّق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكَلَه الله إلى من تعلّقه، فهلك.

قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العَضْهُ: هي النميمة، القالة بين الناس». رواه مسلم».

والعَضْهُ بفتح المهملة وسكون المعجمة. قال أبو السعادات [النهاية ٣/ ٢٣٠-٢٣١]: «هكذا يروى في كتب الحديث والذي في كتب الغريب «ألا أنبئكم ما العِضَة» بكسر العين وفتح الضاد، وسُمي السحر عَضْهاً لأنه كذب وتخييل لا حقيقة له، قال الزمخشري: أصلها العِضهَة فعلة من العَضْة وهو البهَتُ فحُذفت لامُه كما حُذفت من السَّنَة والشَّـفَة ويجمع على عِضينَ» ثم فسّره بقوله «هي النميمة القالة بين الناس» فأطلق عليها العضة لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً.

ذكره القرطبي في المفهم(٦/ ٥٩٠).

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: «يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة». وقال أبوالخطاب في «عيون المسائل»: «ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس». قال في «الفروع» [٦/ ١٨٠]: «ووجهه أن يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة أشبه السحر، وهذا يُعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله الساحر أو أكثر فيُعطى حكمة تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: إن الساحر إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص وهذا ليس بساحر وإنما يؤثر عمله ما يؤثره السحر فيُعطى حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة». انتهى ملخصاً. وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. قاله في [الشرح].

وقال ابن حزم [مراتب الإجماع ١٥٦]: «اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة، وفيه دليل على أنها من الكبائر».

وفيه: دليل على أنها من السحر. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: «القالة بين الناس» قال ابن الأثير [النهاية ٤/ ١٠٧]: «أي كثرة القول، وإيقاع الخصومات بين الناس بما يُحكى لبعضهم عن بعض».

قوله: «ولهما»: الصواب: البخاري فقط برقم (٥١٤٦) وأما مسلم(٨٦٩) فعن عمار.

«عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من البيان لسحراً»»:

البيان: البلاغة والفصاحة.

قال صعصعة ابن صوحان: صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق، وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب الحق.

قال ابن عبدالبر: «تأوّله طائفة على الذمّ لأن السحر مذموم، وذكر أهل العلم وجماعة أهل الأدب أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان، والأول أصح، والمراد بالبيان الذي فيه تمويهٌ على السامع وتلبيس، وهذا من التشبيه البليغ لكون ذلك يعمل عمل السحر فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق، وفي الحديث: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تخلّل البقرة بلسانها». رواه أحمد وأبوداود. أخرجه أبوداود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٧) وقال: حديث حسن. وصححه الألباني في [الصحيحة] (٨٨٠).

قال في «النهاية» [٢/ ٧٠]: «هو الذي يتشدّق في الكلام ويُفخِّم به لسانه ويلفه كما تلف البقرة الكلأ بلسانها لفاً». انتهى. وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره ويبطل الباطل ويبيّنه فهذا هو الممدوح. وفيه: أن بعض الفصاحة من السحر.

باب (٢٦) ما جاء في الكهان ونحوهم

قوله: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم»: قال في «النهاية» [٤/ ١٨٦]: الكاهن الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الأسرار، فمنهم من كان يزعم أن له تابعاً من الجن ورَئيّاً يُلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصونه بالعرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضالّة ونحوهما».

«والكهّان الذين يأخذون عن مسترق السمع موجودون اليوم لكنهم قليل بالنسبة لما كانوا عليه في الجاهلية؛ لأن الله حرس السماءَ بالشهب». قاله في [الشرح].

وأكثر ما يقع في هذه الأمة: ما يخبر به الجنُ أولياءَهم من الإنس عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة، وقد اغترَّ بذلك كثير من الناس، يظنون المخبرُ لهم بذلك عن الجن وليّاً لله، وهو من أولياء الشيطان. قاله في «فتح المجيد».

قوله: «روى مسلم (٢٢٣٠) في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ» وهي حفصة بنت عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- ذكره أبو مسعود الثقفي؛ لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

قوله: «عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتى عرّافاً» وسيأتي بيان العراف.

قوله: «فسأله عن شيء فصدّقه لم تُقبل له صلاة أربعين يوماً».

قال في «الشرح»: ليس في رواية مسلم «فصدقه».

وظاهر الحديث أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله سواء صدّقه أو شكّ في خبره، فإن في بعض روايات الصحيح «من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاةٌ أربعين ليلة».

قال النووي وغيره: معناه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه. ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العرّاف إعادة صلاة أربعين ليلة. انتهى ملخصاً.

وفي الحديث النهي عن إتيان الكهّان ونحوهم.

قال القرطبي: «يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشدّ النكير وعلى من يجيء إليهم، ولا يغترّ بصدقهم في بعض الأمور ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم فإنهم غير راسخين في العلم، بل من الجهّال بما في إتيانهم من المحذور».

قوله: «وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من أتى كاهناً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ». رواه أبوداود. أخرجه أبوداود (٣٩٠٤)، وغيره وصححه الألباني.

قوله: «وللأربعة، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما عن أبي هريرة ﷺ : «من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقولُ فقد كَفَر بما أُنزلَ على محمد ﷺ» هكذا بيَّضَ المصنفُ لاسم الراوي. وقد رواه الإمام أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً، فعزو المصنف إلى الأربعة ليس كذلك، فإنه لم يروه أحد، وأظنه اتبع في ذلك الحافظ ابن حجر، فإنه عزاه في «الفتح» إلى أصحاب السنن والحاكم فوَهِمَ، ولعلّه أراد الذي قبله. قاله في [الشرح].

أخرجه أحمد (٩٥١٥)، والحاكم (١/ ٨) وعنه البيهقي (٨/ ١٣٥)،وصححه الألباني.

وله شاهد عند البزار كما في الكشف(٣٠٤٥) يصحح به لغيره.

وقوله «من أتى كاهناً» لا تعارض بين هذا وبين حديث «من أتى عرّافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول هو كفر دون كفر. أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين. وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان. قاله في «فتح المجيد».

قال في «الشرح»: «الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيّدة بتصديقه».

وقوله: «فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» قال الطيبي: «المراد بالمنزّل على محمد: الكتاب والسنة». انتهى. وفيه: أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن، والتصريح بأنه كفر. قاله المصنف -رحمه الله-. وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر؟ أو يجب التوقف؟ ولا يقال ينقل عن الملة أو لا ينقل الملة؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد -رحمه الله-.

قوله: «ولأبي يعلى» وهو أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفّاظ، مات سنة سبع وثلاثمائة.

قوله: «بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً» ورواه أيضاً البزار وإسناده على شرط مسلم ولفظه: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ». أخرجه أبو يعلى(٥٤٠٨) والبزار (٢/ ٤٤٣ - كشف الأستار) رقم (٢٠٦٧)، والبيهقي (٨/ ١٣٦)، والطبراني في الكبير (١٠) رقم (١٠٠٠٥) من طرق عن ابن مسعود موقوفًا. وله حكم الرفع، وقد جاء مرفوعًا لكن ذكر الدارقطني في العلل(٨٨٣) و(٩٢٢) أنه غير محفوظ.

وفيه: دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما في ذلك؛ لأنهما يدّعيان لهما علم الغيب وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفر أيضاً. قاله في [الشرح].

قوله: «وعن عمران بن حصين مرفوعاً» إلى النبي ﷺ: «ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تَكهَّن أو تُكهِن له، أو سَحَر أو سُحِر له».

أخرجه البزار كما في الكشف(٣٠٤٤) وفيه ضعف لكن له شاهد يأتي بعده عن ابن عباس وفيه ضعف.وزيادة " من أتى ..." لها عدة شواهد كما تقدم. وصححه لغيره الألباني في [الصحيحة] (٢١٩٥) وصحيح الترغيب (٣/ ١٧٠) رقم (٣٠٤١).

فيه دليل على نفي الإيمان الواجب، وهذا لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر. قاله في «قرة العيون». وفيه: وعيدٌ شديدٌ على أن هذه الأمور من الكبائر، وتقدّم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «من تطيَّر» أي فعل الطيرة «أو تُطيِّر له» أي عملت له الطيرة «أو تَكهَّن» أي عمل الكهانة «أو تُكهِّن له» أي عُملت له الكهانة، «أو سَحَر» أي عمل السحر، «أو سُحِر له» أي عُمل له السحر: فكل من فعل هذه الأمور أو عُملت له فقد برئ منه رسول الله ﷺ، لكونها إما شركاً كالطيرة، أو كفراً كالكهانة والسحر، فمن فعل ذلك أو فُعل له ورضي به فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه. قاله في «فتح المجيد».

قوله: «ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» والذي أُنزل على محمد هو الكتاب والسنة.

قوله: «رواه البزار (٣٠٤٣) بإسناد جيد» والبزار هو: أحمد بن عمر بن عبدالخالق، أبوبكر البزار البصري صاحب «المسند الكبير».

روى عن ابن بشّار وابن المثنى وخلق، مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين. ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤١٨٥) بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله «ومن أتى» إلخ. قاله في [الشرح].

بل حديث ابن عباس فيه زمعة بن صالح ضعيف، لكن تقوى بما قبله كما تقدم.

قوله: «قال البغوي» بفتحتين، وهو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعي، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان،كان ثقة فقيهاً زاهداً، مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة-رحمه الله- **قوله**: «العرّاف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن، والكاهن الذي يخبر عن المغيّبات في المستقبل. وقيل: الذي يُخبر عما في الضمير. وقال أبوالعباس أحمد» ابن عبدالحليم بن عبدالسلام (ابن تيمية) الإمام المشهور -رحمه الله- ورضي عنه -: «العراف: اسم الكاهن والمنجِّم والرمّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق كالحازِر الذي يدعي الكشف».

وقال أيضاً [الفتاوى ٣٥/ ١٧٣، ١٩٣]: «والمنجم يدخل في اسم العرّاف، وعند بعضهم هو معناه، ويدخل في اسم الكاهن عند الخطّابي وغيره من العلماء، وحكى ذلك عن العرب، وعند آخرين هو من جنس الكاهن وأسوأ حالاً منه فيُلحق به من جهة المعنى». وقال الإمام أحمد: العرافة طرف من السحر والساحر أخبث وكل هذه الأمور يُسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما، فمن أتاهم فصدّقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وفيه: معرفة الفرق بين الكاهن والعرّاف. قاله المصنف.

وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوامٌ فادّعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه وادّعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادّعى الولاية واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن.

إذ الكرامة أمرٌ يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها ولا قدرة له عليها بخلاف من يدّعي أنه ولي ويقول للناس اعلموا أني أعلم الغيب، وحسبك بحال الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم- وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم في هذه الدعاوى شيء؟ حاشا وكلا.

قوله: «وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق» . أخرجه عبد الرزاق(١١/ ٢٦) بإسناد صحيح عنه.

وقوله: «ما أَرى» يجوز بفتح الهمزة بمعنى:لا أعلم.ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن.وكتابة أبي جاد وتعلمها لمن يدّعي بها علم الغيب هو الذي يُسمى علم الحرف، وهو الذي جاء فيه الوعيد.

فأما تعلُّمها للتهجي وحساب الجُمل فلا بأس به.

وحروف أبي جاد هي أبجد، هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت، ثخذ، ضظغ.

وحساب الجمل كالتالي: أعطوا لكل حرف رقما؛بحيث يبدؤون بالآحاد،ثم العشرات،ثم المئات،ثم الألف على التوالي؛فتكون المعادلة كالتالي: الألِف = ١ الباء = ٢ الجيم = ٣ الدال = ٤ الهاء = ٥ الواو = ٦ الزاي = ٧ الحاء = ٨ الطاء = ٩ الياء = ١٠ الكاف = ٢٠ اللام = ٣٠ الميم = ٤٠ النون = ٥٠ السين = ٦٠ العين = ٧٠ الفاء = ٨٠ الصاد = ٩٠ القاف = ١٠٠ الراء = ٢٠٠ الشين = ٣٠٠ التاء = ٤٠٠ الثاء = ٥٠٠ الخاء = ٦٠٠ الذال = ٧٠٠ الضاد = ٨٠٠ الظاء = ٩٠٠ الغين = ١٠٠٠. وبهذا الأسلوب يؤرخ كثير.

وقوله: «وينظرون في النجوم» ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتي في باب التنجيم.

باب (٢٧) ما جاء في النُّشرة

قولـه:«باب ما جاء في النُّشرة»: قال في التيسير: لما ذكر المصنف حكم السحرة والكهانة ذكر ما جاء في النشرة، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة، كما سيأتي تفصيله. انتهى.

والنُّشرة: بضم النون كما في القاموس.

قال في النهاية (٥/ ٤٦-٤٧):«النُّشرة ضرب من العلاج والرقية يعالج به من يُظَنُّ أن به مسَّاً من الجن، سُميت نُشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي يُكشف ويُزال». انتهى المراد.

وقال ابن الجوزي في غريب الحديث(٢/ ٤٠٨):«النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر».

قولـه:«عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل عن النشرة فقال:«هي من عمل الشيطان». رواه أحمد بسند جيد و أبوداود».

رواه أبوداود (٣٨٦٨)، وأحمد (٣/ ٢٩٤)، وصححه الألباني.

قولـه:«سُئل عن النشرة» والألف واللام في النشرة للعهد، أي النشرة المعهودة، التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

«وقال أبوداود: سُئل أحمد عنها. فقال: ابنُ مسعودٍ يكرهُ هذا كله».

أراد أحمد أن ابنَ مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً. قاله في فتح المجيد.

قلت: والكراهة في عرف السلف كراهة التحريم. أما النشرة بالتعويذ والرُّقى بأسماء الله وكلامه من غير تعليق، فلا أعلم أحداً كرهه. قاله في [الشرح].

قولـه:«وللبخاري عن قتادة» وهو ابن دِعامَة - بكسر الدال - السدوسي، ثقة فقيه من أحفظ التابعين، قالوا: إنه وُلد أكمه، مات سنة بضع عشر ومائة.

وهو في البخاري معلقًا بصيغة الجزم(باب ٤٩ من كتاب الطب) ووصله غيره كالطبري في تهذيب الآثار كما في تغليق التعليق (٥/ ٤٩) وإسناده صحيح.

قولـه:«قلت لابن المسيب» وهو سعيد بن المسيَّب.

قولـه:«رجلٌ به طِبٌّ» بكسر الطاء، أي: سحر. يقال: طُبَّ الرجلُ بالضم إذا سُحر، ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنباري في كتاب الأضداد (٢٣١): الطب من الأضداد، يقال لعلاج الداء طب والسحر من الداء يقال له طب.

قولـه:«أو يُؤَخَّذُ» بفتح الواو مهموزة وتشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة، أي يحبس عن امرأته فلا يصل على جماعها، والأُخذة بضم الهمزة: الكلام الذي يقولـه الساحر.

قولـه:«أيُحَلّ عنه؟ » بضم الياء وفتح الحاء، مبني للمفعول.

قولـه:«أو يُنشَّر» بتشديد المعجمة «قال: لا بأس به» يعني أن النشرة لا بأس بها«لأنهم يريدون بها الإصلاح» أي إزالة السحر ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يُحمل على نوع من النشرة لا يُعلم أنه سحر.

قولـه:«ورُوي عن الحسن» وهو ابـن أبي الحسن واســـمه يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه إمام من خيار التابعين، مات سنة عشر ومائة -رحمه الله- وقد قارب التسعين.

«أنه لا يحل السحر إلا ساحر».

هذا الأثر رواه ابن الجوزي في«جامع المسانيد» بدون سند.

قوله:«قال ابن القيم» -رَحِمَهُ اللَّهُ-«النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: حَلٌّ بسحرٍ مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمَلُ قولُ الحسن، فيتقرّب الناشر والمنتشرُ إلى الشيطان بما يحبّ، فيبطُلُ عملُه عن المسحور.

والثاني: النُّشْرة بالرُّقية والتعوّذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز».

ومما جاء في صفة النشرة الجائزة ما ذكر في كتاب وهب بن منبه أنه يُؤخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيُدق بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حُبس عن أهله.

قلت: ذكره معمر عنه كما في المصنف(١١/ ١٣). وهذا الفعل جائز، وأفتى به العلامة ابن باز.

وفيه: النهي عن النشرة، والفرق بين المنهي عنه والمرخّص فيه مما يزيل الإشكال.

قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

باب (٢٨) ما جاء في التطير

قوله:«باب ما جاء في التطير» أي من النهي عنه والوعيد فيه.

التطيُّر: مصدر تطيَّر يتطيَّر تطيُّراً، والطِّيَرة - بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تُسكن - اسم مصدر من تطيَّر طيرة كما يقال: تخيَّر خيَرة، ولم يجيء في المصادر على هذه الزنة غيرها، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وهو الشيء المكروه من قول أو فعل أو مرئي. قاله النووي.

وكان ذلك يصدّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر. قال المدائني: سألتُ رُؤبة بن العجاج. قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاّك مياسره، والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن التطير منافٍ للتوحيد من وجهين:

«الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

والثاني: أنه يحجم ويستجيب لهذه الطيرة ويدع العمل»

فلما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب لكونها من إلقاء الشيطان ووسوسته وتخويفه ذكرها المصنف -رحمه الله- في كتاب التوحيد تحذيراً منها.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾» .

ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله عن آل فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ أي الخصب والسعة والعافية كما فسره مجاهد وغيره.

﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: نحن الجديرون والحقيقون بها ونحن أهلها.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: بلاء وقحط.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ فيقولون هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا شؤمهم.

فقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: طائرهم ما قضى عليهم وقدر لهم. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إن أكثرهم جُهّال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ هذا خبر من الله تعالى عن المرسلين وما أجابوا به أصحاب القرية في قولهم: ﴿قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

والمعنى - والله أعلم -: حظكم - وما نابكم من شر- معكم؛ بسبب كفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا بل ببغيكم وعدوانكم، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم﴾ أي: راجع عليكم. فالتطيُّر الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنَّا ذكّرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: إن ذكّرناكم تطيرتم بنا.

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمّهم الله تعالى به ومقتهم. وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطيّر، وأخبر أنه شرك، كما سيأتي في أحاديث الباب. قاله في فتح المجيد.

وفيه: التنبيه على قولـه: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم ﴾.

قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله:«وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر» أخرجاه. أخرجه البخاري برقم (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).

زاد مسلم:«ولا نوء» برقم(٢٢٢٠)(١٠٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وزاد مسلم:«ولا غول» برقم(٢٢٢٢) لكن عن جابررضي الله عنه.

قال أبو السعادات في النهاية(٣/ ١٧٤):«العدوى: اسم من الإعداء كالرَّعـوى، يقال: أعداه الداء، يُعديه إعداءً إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء».

وقال غيره: من عدوى هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره، والمنفي نفس سراية العلة أو إضافتها – أي السراية – إلى العلة، والأول هو الظاهر.

قاله في فتح المجيد. وفيما قاله نظر؛ فإن المنفي إضافة السراية إلى العلة على ما يعتقده أهل الجاهلية لا نفس سراية العلة.

وفي رواية لمسلم: (٢٢٢١)(١٠٤) أن أبا هريرة كان يحدث بحديث: «لا عدوى» ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال:«لا يُورَدُ ممرض على مصح» أخرجه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١) وأمسك عن حديث: «لا عدوى» فراجعوه وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن يعترف به.

وقد روى حديث:«لا عدوى» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك [خ ٥٧٥٦ وم٢٢٢٤] ، وجابر بن عبدالله [م ٢٢٢٢]، والسائب بن يزيد [م٢٢٢٢(١٠٣)]، وابن عمر [خ٥٧٧٢ وم٢٢٢٥/ ١١٦] وغيرهم.

وفي بعض روايات هذا الحديث: «وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»

أخرجه البخاري تعليقاً (٥٧٠٧)، وأحمد ووصله (٢/ ٤٤٣) وهو صحيح.

وقد اختلف العلماء في ذلك: وأحسن ما قيل فيه: أن قوله «لا عدوى» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى.

وأن هذه الأمور لا تعدي بطبعها، وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك المرض؛ ولهذا قال:«فر من المجذوم كما تفر من الأسد»، وقال:«لا يُورَد ممرض على مصح»، وقال في الطاعون:«إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه» أخرجه البخاري (٣٤٧٣) ومواضع، ومسلم (٢٢١٨-)، وكل ذلك بتقدير الله تعالى، ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً:«لا يعدي شيء» قالها ثلاثاً. فقال أعرابي: يا رسول الله: إن النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها. فقال رسول الله:«فمن أجرب الأول، لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، خلق الله كل نفس، وكتب حياتها، ومصائبها، ورزقها». أخرجه أحمد (١/ ٤٤٠)، والترمذي (٢١٤٤). قال الألباني: صحيح. انظر: [الصحيحة] (١١٥٢).

فأخبر الرسول ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره. والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر الظاهرة إذا كان في عافية منها كما أنه يُؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء وفي النار مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر، فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم والقدوم على بلد الطاعون فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، والله -سبحانه وتعالى- خالق الأسباب ومسبباتها لا خالق غيره ولا مقدر سواه. وأما ما خفي منها فلا يشرع اتقاؤه واجتنابه بل ذلك من الطيرة المحرمة فإنها سوء ظن بالله بغير سبب محقق، وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضائه وقدره فقوية النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتماداً على الله ورجاءً منه أن لا يحصل به ضرر ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك.

وعلى هذا يُحمل الحديث الذي رواه أبوداود والترمذي أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة ثم قال: «كل باسم الله، ثقةً بالله وتوكلاً عليه».

أخرجه أبوداود (٣٩٢٥)، والترمذي (١٨١٨) وقال: هذا حديث غريب من حديث جابر، وأخرجه ابن ماجه (٣٥٤٢)، قال الألباني: ضعيف. انظر: الضعيفة (١١٤٤). وقد أخذ به الإمام أحمد، وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان - رضي الله عنهم -.

أثر عمر له طرق منها عند ابن سعد في الطبقات (٤/ ١١٨) وهو صحيح عنه.

وأثر ابن عمر عن ابن أبي شيبة(٨/ ١٢٩) وفيه رجل مبهم.

وأثر سلمان عند ابن أبي شيبة (٨/ ١٢٩) وهو صحيح عنه.

قوله: «ولا طيرة» قال ابن القيم –رحمه الله–: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً أي: لا تطيروا. والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه، وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة كقوله ﷺ: «الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار». أخرجه البخاري (٢٨٥٨) وأطرافه، ومسلم (٢٢٢٥).

قال ابن القيم –رحمه الله–: «إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاث ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها، وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان الشر على وجهه فكذلك الدار والمرأة والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر، والسعود والنحوس لا خالق غيره، ولا مقدّر سواه».

قولـه:«ولا هامة» بتخفيف الميم على الصحيح، قال الفرّاء: الهامة طير من طير الليل كأنه يعني البومة. قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري. فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قولـه:«ولا صَفَرَ» بفتح الفاء، روى أبو عبيد في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال: هي حية تكون في البطن تصيب الماشية والناس وهي أعدى من الجرب عند العرب. وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلّونه المحرم ويحرّمون صفر مكانه وهو قول مالك.

وروى أبوداود عن محمد بن راشد عن من سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

أخرجه أبوداود (٣٩١٥)، وقال الألباني: صحيح مقطوع.

قال ابن رجب في لطائف المعارف (٧٤): ولعل هذا القول أشبه الأقوال وكثير من الجهال يتشاءم بصفر وربما ينهي عن السفر فيه والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة. نقله في التيسير.

وفيه: نفي العدوى والطيرة ونفي الهامة والصفر. قاله المصنف –رحمه الله–.

وما زالت هذه العادات السيئة سارية في الناس مثل التشاؤم بصفر وربما نهوا عن السفر فيه، وحتى إن منهم من لا يكاد يذكر صفر إلا ويضيف إليه لفظة الخير نظراً لما قام بقلوبهم من هذه الأمور، ومثل تشاؤمهم بشوال في النكاح خاصة لما قيل من أن طاعوناً وقع فيه مات منه كثير من العرائس فتشاءموا به.

وقد صحّ عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: تزوجني رسول الله ﷺ في شوال وبنى بي في شوال. فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟ أخرجه مسلم (١٤٢٣).

وكانت تستحب أن يدخل على نسائه في شوال، وتزوج النبي ﷺ أم سلمة في شوال أيضاً، وهذا منه ﷺ مخالفة لما عليه أهل الجاهلية.

قوله:«وزاد مسلم: ولا نوء» والنوء واحد الأنواء، وهي: منازل القمر، وسيأتي الكلام عليه في باب الاستسقاء بالأنواء.

قوله:«ولا غُول» هو بالضم اسم وجمعه أغوال وغيلان.

قال أبو السعادات في النهاية(٣/ ٣٥٤):«الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم أي تُضِلُّهم عن الطريق وتُهلكُهم فنفاه النبي ﷺ وأبطله».

وفي كلام صاحب النهاية أيضًا أن المنفي ليس وجود الغول بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، أو يكون المعنى بقوله: «لا غول» أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه. فلم يرد بنفيها عدمها. ويدل لذلك حديث أبي أيوب:«كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ». أخرجه الترمذي (٢٨٨٠) وقال: حسن غريب. وأحمد (٥/ ٤٢٥)، قال الألباني: صحيح.

قوله:«ولهما» أي البخاري ومسلم.

«عن أنس بن مالك رضي الله عنه» قال: قال رسول الله ﷺ:«لا عدوى ولا طيرة».

وتقدم الكلام على العدوى والطيرة أول الباب.

قوله:«ويعجبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال:«الكلمة الطيبة».

أخرجه البخاري (٥٧٥٦) و(٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٢٤).

قال أبو السعادات في النهاية (٣/ ٣٦٤): «الفأل مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر يقال: تفاءلت بكذا وتفألت على التخفيف والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمزة تخفيفاً».

قال الحليمي: «وإنما كان يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن بالله، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله على كل حال».

وقال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ص٥٩٢: «ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة والفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك».

قوله: «ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر».

هكذا وقع في نسخ كتاب التوحيد وصوابه: عروة بن عامر.

كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما وهو مكي اختلف في نسبه فقال أحمد: عروة بن عامر القرشي. وقال غيره: الجهني. واختلف في صحبته أيضاً فقال الماوردي: له صحبة. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: «ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفألُ، ولا تردُّ مسلماً»

أخرجه أبوداود (٣٩١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٤). قال الألباني: ضعيف.

قال ابن القيم -رحمه الله- في مفتاح دار السعادة (٥٩٣): «أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها، ففصّل بين الطيرة والفأل لما بينهما من الامتياز والتضاد ونفع أحدهما ومضرة الآخر». انتهى.

وقوله ﷺ:«أحسنها الفأل» وفي رواية:«خيرها الفأل» مع أن الطيرة كلها لا خير فيها؛ لأن أفعل التفضيل في ذلك إنما هو في القدر المشترك بين الشيئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ. قاله الحافظ ابن حجر. وفيه: أن الفأل ليس من الطيرة بل مستحب، وتفسير الفأل. قاله المصنف.

قوله:«ولا ترد مسلماً» وهذا تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله:«فإذا رأى أحـدُكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت» أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع السيئات بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات، والحسنات هنا النعم، والسيئات: المصائب. ففيه: نفي تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة.

قوله:«ولا حول ولا قوة إلا بك» والحول التحول والانتقال من حال إلى حال، أي: لا تحول من حال إلى حال ولا قوة على ذلك إلا بالله وحده، ففيه: التبرئ من الحول والقوة إلا بالله سبحانه، وهذا هو توحيد الربوبية وهو دليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة. وفيه: ذكر ما يقوله من وجد شيئاً من ذلك. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله:«وله» أي أبي داود عن «ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً:«الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا.. ولكن الله يذهبه بالتوكّل». ورواه الترمذي وصححه وجعل آخره من كلام ابن مسعود». ورواه ابن ماجه وابن حبان ولفظ أبي داود: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك» ثلاثاً.

أخرجه أبوداود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠). قال الألباني: صحيح. انظر: غاية المرام (٣٠٣).

وهذا صريح في تحريمها، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غير واحد من أصحاب أحمد.

وقال ابن مفلح [الآداب الشرعية ٣/ ٣٦٢]: «الأوْلَى القطع بتحريمها؛ لأنها من الشرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟».

قال: «ولعلّ مرادهم - يعني الأصحاب - بالكراهة التحريم».

قلت: وما قاله هو موجب النصوص والقواعد تقتضيه؛ لأن الأحكام الخمسة لا تُؤخذ إلا عن الله ورسوله، وقد قام الدليل الموجب للتحريم، فتعيّن القول به وحمل كلام من أطلق الكراهة عليه بلا تردد.

قوله: «وما منا إلا.. » قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: «في الحديث إضمار، والتقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. قال بعضهم: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام. ومنه الحديث: «ثلاث لا يسلم أحدٌ منهن: الطيرة، والحسد، والظن» قيل فما نصنع؟ قال: «إذا تطيّرت فامضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ، وإذا ظننت فلا تحقق». أخرجه أحمد (١١/ ٦٢٣) رقم (٧٠٤٥) الرسالة، وحسّنه المحقق. والحديث فيه عبدالله بن لهيعة. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٨٢).

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكّل» يعني إذا خطر عارض التطير فتوكلنا على الله وسلّمنا الأمر إليه ولم نعمل بذلك الخاطر غفره الله ولم يُؤاخذنا به. وفيه: أن الواقع في القلب من ذلك مع كراهته لا يضر بل يُذهبه الله بالتوكّل. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: أن الطيرة من الشرك الأصغر لأنها لو كانت من الأكبر لما أذهبه إلا التوبة منه.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»: قال ابن القيم في [مفتاح دار السعادة (٥٨١)]: «وهو الصواب، فإن الطيرة نوع من الشرك».

قولـه:«ولأحمد من حديث عبدالله بن عمرو» بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد، وقيل أبو عبدالرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرة على الأصح بالطائف.

قولـه:«من ردته الطيرة عن حاجته» فمنعه ما رأى وما سمع عما أراده «فقد أشرك»

أخرجه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وصححه الألباني في السلسلة [الصحيحة] (١٠٦٥).

لأنه لم يخلص توكّله على الله بالتفاته إلى غيره مما يخامر قلبه من الخوف فيكون شركاً بهذا الاعتبار.

قولـه:«قالوا: فما كفّارة ذلك. قال:«أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك». وفيه: تفويض الأمور إلى الله تعالى تقديراً وتدبيراً وخلقاً.

قولـه:«ولا إله غيرك» أي: لا معبود بحق سواك، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه ولم يلتفت إليه واستمر على فعل ما عزم عليه توكلاً على الله وتفويضاً إليه كفَّر الله عنه ما وقع في قلبه من ذلك، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره. وفيه: التصريح بأن الطيرة شرك، وتفسير الطيرة المذمومة، وذكر ما يقوله من وجد ذلك. قاله المصنف –رحمه الله– .

قولـه:«وله» أي الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ، قال ابن معين: قتل يوم اليرموك.

وقال غيره: وقتل يوم مرج الصفر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة.

وقال أبوداود: قُتل بدمشق، كان عليه درع النبي ﷺ.

قولـه:«إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك»

أخرجه أحمد (١/ ٢١٣)، وإسناده ضعيف. انظر طبعة الرسالة.

هذا الحـــديث رواه الإمام أحمـــد مـن حديث الفضل بن عباس قال: خرجتُ مع النبي ﷺ يوماً فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضنته. فقلت: يا رسول الله تطيرتُ. قال: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردّك». وفي إسناده انقطاع بين مسلمة راويه والفضل.

وهذا حدُّ الطيرة المنهي عنها، فهي ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده أو يمنعه منه.

وأما الفأل الذي كان يُحبه ﷺ ففيه نوع بشارة فيُسرّ به العبد ولا يعتمد عليه، فافهم الفرق. ومن شرط الفأل أن لا يقصده.

باب (٢٩) ما جاء في التنجيم

قولـه:«باب ما جاء في التنجيم» التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على الحوادث الأرضية. قاله شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في الفتاوى(٣٥/ ١٩٢).

واعلم أن التنجيم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه. قاله في قرة العيون.

وقال الخطابي في معالم السنن(٤/ ٢٣٠):«علم التنجيم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكائنات والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر وتغير الأسعار وما في معنى ذلك من الأمور التي يزعمون أنهم يدركون معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها واجتماعها وافتراقها، ويدّعون أن لها تأثيراً في السفليات، وأنها تجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكّم على الغيب وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به لا يعلمه سواه». انتهى.

ولا ريب في تحريم ذلك، واختلف المتأخرون في تكفير القائل بذلك، وينبغي القطع بكفره؛ لأنها دعوى لعلم الغيب الذي استأثر الله بعلمه بما لا يدل عليه.

قولـه:«قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلقَ اللهُ هذه النجومَ لثلاث: زينةً للسماء، ورُجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها. فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبَه، وتكلَّف ما لا علمَ له به». هذا الأثر علّقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم، وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم، وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم، ولفظه:

قال: إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يُهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين، فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به. وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة، من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ولعمري ما من نجم إلا يُولد فيه الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من الغيب، ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته وعلّمه أسماء كل شيء». انتهى.

قال في قرة العيون:« وقول قتادة هذا يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده».

قلت: بل علم التنجيم كان معروفاً في زمن الجاهلية، يدل على هذا حديث أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال:«أربع في أمتي من أمر الجاهلية.. ». مسلم (٩٣٤). وذكر منها الاستسقاء بالنجوم، أي نسبة المطر إلى النوء، وحديث زيد بن خالد الجهني الذي فيه:«أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر» أخرجه البخاري (٨٤٦)، (١٠٣٨) و(٤١٤٧) و(٧٥٠٣)، ومسلم (٧١)، وحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ:«من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبوداود وإسناده صحيح.

وقول ابن عباس في الذين يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق.

وقولـه:«خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين» كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

قال في فتح المجيد: وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا.

وقولـه:«وعلامات يُهتدى بها» أي دلالات على الجهات لا على الحوادث كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]

أي لتعرفوا بها جهة قصدكم، وليس المراد أنه تهتدي بها في علم الغيب كما يزعمه أهلُ التنجيم. وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾. [النحل: ١٥-١٦]

روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قولـه ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض ثم استأنف فقال: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ انتهى بمعناه.

وقولـه:«فمن تأوّل فيها غير ذلك» أي زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ حيث زعم شيئاً ما أنزله الله به من سلطان وأضاع نصيبه من كل خير؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه، وفيه الحكمة في خلق النجوم، والردّ على من زعم غير ذلك. قاله المصنف -رحمه الله- . وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بالنهي عن التنجيم كحديث ابن عباس الذي رواه أبوداود أن النبي ﷺ قال:«من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد».

قولـه:«وَكَرِهَ قتادة» وهو ابن دعامة السدوسي«تعلُّمَ منازل القمر، ولم يرخّص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما». وحرب: هو ابن إسماعيل الكرماني الفقيه من أجلة

أصحاب الإمام أحمد، روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وغيرهم.

وله مصنفات جليلة منها: كتاب المسائل التي سأل عنها أحمد وغيره، مات سنة ثمان ومائتين. ومنازل القمر هي الثمانية والعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منزلة منها كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]

يسقط في المغرب كل ثلاثة عشرة ليلة منها منزلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق.

«ورخّص في تعلُّمها» لمعرفة الأوقات الإمام «أحمد وإسحاق» بن إبراهيم بن مخلد، أبو يعقوب الحنظلي النيسابوري، المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم، قال الإمام أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، روى عنه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو عن أحمد أيضاً، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين. وفيه: ذكر الخلاف في تعلّم المنازل. قاله المصنف.

قال الخطابي في معالم السنن(٤/ ٢٣٠):«أما علم النجوم الذي يدرك بطريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نُهي عنه، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبّروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني بها الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته».

قوله:«وعن أبي موسى» عبدالله بن قيس بن سليم بن حَضَّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - الأشعري، صحابي جليل، مات سنة خمسين رضي الله عنه.

قوله:«قال رسول الله ﷺ:«ثلاثة لا يدخلون الجنة»

أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٩)، وابن حبان (١٣٨٠، ١٣٨١)، والحاكم (٤/ ١٤٦).

قال الألباني: ضعيف، انظر: الضعيفة (١٤٦٣).

هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها، وقالوا أمرّوها كما جاءت.

ومن تأوّلها فهو على خطر من القول على الله بلا علم. وأحسن ما يُقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن الملة فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذّبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته. قاله في فتح المجيد.

وكأن المصنف -رحمه الله- يميل إلى هذا قاله في [الشرح].

قولـه:«مدمن الخمر» أي المداوم على شربها.

قولـه:«وقاطع الرحم» يعني: القرابة. قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

قولـه:«ومصدق بالسحر» أي مطلقاً ومنه التنجيم لحديث:«من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

وفيه: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل. قاله المصنف رحمه الله.

وهذا الحديث رواه أحمد وابن حبان في صحيحه، ورواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح. وأقره الذهبي، وتمامه:«ومن مات وهو مدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة» نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهل النار ريح فروجهن.

باب (٣٠) ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قوله:«باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء» أي من الوعيد، والاستسقاء نسبة مجيء المطر إلى الأنواء جمع نوء وهي منازل القمر الثمانية والعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة منها منزلة كما قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

يسقط في المغرب كل ثلاث عشرة ليلة، منها منزلة مع طلوع الفجر وتطلع أخرى مقابلتها في ذلك الوقت من المشرق، ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة.

وإنما سُمي نوءً لأنه إذا سقط القارب ناء الطالع أي نهض وطلع، وذلك النهوض هو النوء، وبعضهم يجعل النوء السقوط كأنه من الأضداد.

وقال أبو عبيد: ولم يسمع في النوء أنه سقوط إلا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها.

وقال الأصمعي: إلى الطالع منها.

مقصود الترجمة: بيان حكم الاستسقاء بالأنواء وأنه من الكفر بالله تعالى الذي ينافي التوحيد، وقد يكون كفرًا أكبر، أو أصغر بحسب الحال.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن نسبة نزول المطر إلى النوء باعتقاد أن له تأثيرًا في نزوله يُعَدُّ شركًا أكبر مخرجًا من الملة، وكذلك نسبة نزول المطر إلى النوء بجعله سببًا في ذلك- من دون اعتقاد التأثير- يعدُّ شركًا أصغر؛ لأنه تعلقٌ للقلب بغير الله والتفاتٌ عنه إلى غيره.

وعلاقة الباب بما قبله: أَنَّ الاستسقاء بالأنواء نوعٌ من أنواع التنجيم.

قال الفوزان: وبين هذا الباب والذي قبله عمومٌ وخصوص: فـ هذا الباب يُعَدُّ نوعا من أنواع الباب الذي قبله، وهو (باب ما جاء في التنجيم)، فالباب الأول عام في كل ما يعتقد في النجوم من الكفر والضلال والباطل من استسقاء وغيره، وهذا الباب خاص بمسألة واحدة، وهي الاستسقاء بالنجوم.

ونسبة المطر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ - نسبة إيجاد: أي أَنَّ هذه الأنواء هي الموجدة للأمطار، فهذا شركٌ أكبر.

٢ - نسبة سبب: أي أَنَّ هذه الأنواء سببٌ في حصول الأمطار، فهذه من الشرك الأصغر.

٣ - نسبة وقت: أي أَنَّ هذه الأنواء وقتها يناسب وقت حصول الأمطار، فهذا ليس بشرك، ولكن يكره التلفظ بقول: مطرنا بنوء كذا ولو على إرادة هذا المعنى.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾».

روى الإمام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ﴾ يقول شكركم.

﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾: تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وبنجم كذا وكذا».

أخرجه أحمد (٨٤٩)، والترمذي (٣٥٢٦) وحسَّنه، والحديث ضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي (ص/ ٤٢٠-٤٢١) رقم (٦٤٩).

وهذا أولى ما فسرت به الآية. رُوي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف -رحمه الله- بالآية. قاله في [الشرح]

وقال ابن القيم -رحمه الله- [التبيان في أقسام القرآن ١/ ٤١٨]: «أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به. يعني القرآن».

قال الحسن: «تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون».

قال: «وخسر عبدٌ لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب».

والآية تشمل المعنيين. قاله في [الشرح].

وقال ابن القيم: «وأظهر القولين أنه قَسَمٌ بمواقع هذه النجوم التي في السماء؛ لأن اسم النجم عند الإطلاق ينصرف إليها، وأنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم في آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية».

وفيه: معرفة تفسير آية الواقعة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وعن أبي مالك» الحارث بن الحارث «الأشعري» الشامي صحابي تفرد بالرواية عنه أبوسلام، وفي الصحابة أبومالك الأشعري اثنان غير هذا.

«أن رسول الله ﷺ قال: «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن.. »:

أي: ستفعلها هذه الأمة مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المحرمة، فيجب على كل مسلم أن يجتنبها.

والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث، سُموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاءت به الأنبياء والمرسلون فهو جاهلية. قاله في [الشرح].

وقال شيخ الإسلام [الاقتضاء ١/ ٢٠٥]: «أخبر ﷺ أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمّاً لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذمٌّ لها.

ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذمِّ، وهذا كقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وذلك يقتضي المنع من مشابهتم في الجملة».

ولشيخنا -رحمه الله- مصنف لطيف فيما خالف فيه رسولُ الله ﷺ أهلَ الجاهلية بلغ مائة وعشرين مسألة. قاله في فتح المجيد.

قولـه: «الفخر بالأحساب»: أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم وذلك جهلٌ عظيم إذ لا كرم إلا بالتقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولأبي داود عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّةِ الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمنٌ تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خُلق من تراب، ليدعُنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجُعلان التي تدفع النَّتَنَ بأنفها».

أخرجه أبوداود (٥١١٦)، والترمذي (٢/ ٣٣١)، وأحمد (٢/ ٣٦١، ٥٢٤)، وقال الترمذي: حسن صحيح. وحسّنه الألباني في غاية المرام برقم (٣١٢).

قولـه: «والطعن في الأنساب» أي ذمّها وعيبها، ولمَّا عيَّرَ أبوذر رجلاً بأمه، قال له النبي ﷺ: «أعيّرتَهُ بأُمِّه؟ إنك امروٌ فيك جاهلية» متفق عليه. البخاري (٣٠) و(٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١). فدلَّ على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن الرجل مع فضله وعلمه ودينه قد يكون فيه بعض هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام -رحمه الله- [الاقتضاء ١/ ٢٢٠]

قولـه: «والاستسقاء بالنجوم» أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم.

وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة..

قولـه: «والنياحة» أي رفع الصوت بالندب على الميت وضرب الخدود وشق الجيوب؛ لأنها تسخُّط لقضاء الله وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد الوارد فيها. فأما البكاء من غير نياحة وندب وشق جيب فحسن ولا ينافي الرضاء بقضاء الله. قاله شيخ الإسلام.

قولــه:«وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها» فيه: أن التوبة تكفِّر الذنب وإن عظُم، وهذا مجمعٌ عليه في الجملة ويكفِّر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب ودعاء المسلمين بعضهم لبعض وبالشفاعة بإذن الله وعفو الله عن من شاء ممن لا يشرك به شيئاً.

قولــه:«تُقام يوم القيامة وعليها سربالٌ من قطران ودرعٌ من جرب».

أخرجه مسلم (٩٣٤).

قال القرطبي:«السربال: واحد السرابيل وهي الثياب من سرابيل أهل النار، يعني يلطخن بالقطران حتى يكون اشتعال النار في أجسادهن أعظم ورائحتهنّ أنْتَن. وروي عن ابن عباس أن القطران: النحاس المذاب، والدرع: قميص المرأة وليكون ألمهن بسبب الجرب أشد».

وفيه: معرفة الأربع التي من أمر الجاهلية وذكر الكفر في بعضها، وأن من الكفر ما لا يخرج من الملة ووعيد النائحة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولــه:«ولهما» أي البخاري(٨٤٦) (١٠٣٨) (٤١٤٧) (٧٥٠٣) ومسلم(٧١).

قولــه: «عن زيد بن خالد الجهني» صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة، قال:«صلَّى لنا رسول الله ﷺ» أي صلى بنا، فاللام بمعنى الباء.

قولــه:«صلاة الصبح بالحديبيَة» بتخفيف يائها وقد تُثقّل.

قولــه:«على إِثْـر» بكسر الهمزة وسكون الثاء: وهو ما يعقب الشيء.

قولــه:«سماء كانت من الليل» أي مطر، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قولــه:«فلما انصرف» من صلاته إلى المأمومين كما يدل عليه.

قولــه:«أقبل على الناس» ويحتمل أنه أراد السلام.

قولـه:«فقال: هل تدرون». لفظ استفهام ومعناه التنبيه.

وفي النسائي:«ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟ » وهذا من الأحاديث القدسية.

وفيه: إخراج العالم للمتعلِّم المسألة بالاستفهام عنها لقولـه:«أتدرون ماذا قال ربكم؟ ». قاله المصنف.

قولـه:«قالوا: اللهُ ورسوله أعلم» وفيه: حسن الأدب للمسؤول إذا سُئل عمّا لا يعلم وجب عليه أن يكل العلم إلى عالمه، وذلك يجب.

قولـه:«قال: أصبح من عبادي» الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى: «مؤمن وكافر».

قولـه: «فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته» والفضل والرحمة صفتان لله تعالى، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسول الله من صفات الذات كالحياة، والعلم. وصفات الأفعال؛ كالرحمة التي يرحم بها عباده، كلها صفات لله قائمةٌ بذاته، ليست قائمة بغيره، فتفطَّن لهذا، فقد غلط فيه طوائف. قاله في فتح المجيد.

قولـه:«فذلك مؤمنٌ بي» لأنه نسب الفعل إلى فاعله، والنعمةَ إلى المنعم بها «كافر بالكوكب».

قولـه: «وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمنٌ بالكوكب» حيث جعل للنوء تأثيراً في إنزال المطر؛ لأنه شرك في الربوبية، والمشرك كافر.

وفيه: معرفة قولـه:«أصبح من عبادي مؤمن بي كافر» بسبب نزول النعمة والتفطن للإيمان في هذا الموضع والتفطن للكفر في هذا الموضع. قاله المصنف.

قولـه: «ولهما» أي البخاري ومسلم «من حديث ابن عباس بمعناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدقَ نوءُ كذا وكذا». أخرجه مسلم(٧٣) ولم يخرجه البخاري.

وفيه: التفطّن لقوله: «لقد صدق نوءُ كذا وكذا».

قولـه: «فأنزل الله هذه الآية ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾»: هذا قسم من الله -عَزَّوَجَلَّ- يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء، وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧]. فتكون (لا) صلة، لتأكيد النفي فتقدير الكلام: ليس الامر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة بل هو قرآن كريم. ومواقع النجوم قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية، ومواقعها نزولها شيئاً بعد شيء. وقال مجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومشارقها. واختاره ابن جرير.

وقولـه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾.

قال ابن كثير [[التفسير] ٧/ ٥٤٤]: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعظّمتم الْمُقسَم به عليه.

قولـه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ هذا هو المقسم عليه وهو القرآن أي إنه وحي الله وتنزيله وكلامه لا كما يقول الكفار إنه سحر، أو كهانـة، أو شعر، والكريم البهي الكثير الخير العظيم، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله.

قال الأزهري: «الكريم: اسمٌ جامعٌ لما يُحمد، والله تعالى كريمٌ جميلُ الفعال، وإنه لقرآن كريم: يُحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة».

قولـه: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾ أي: معظم محفوظ موقر. قاله ابن كثير.

قال ابن القيم: «اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة.

وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾. [عبس: ١٣-١٦]، ويدل على هذا قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسّونه.

وقوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ قال ابن عباس: الكتاب الذي في السماء.

وفي رواية: ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ يعني: الملائكة.

وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون، فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس، واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم ورجّحه.

وقال ابن زيد: «زعمت قريشٌ أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾. [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

قال ابن كثير [[التفسير] ٨/ ٢٢]: «هذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله».

وقال البخاري في «صحيحه»: «في الآية لا يجد طعمه إلا من آمن به».

قال ابن القيم [التبيان في أقسام القرآن ١/ ٤١٠]: «هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقّاً وأنزله على رسوله وحياً». وقال آخرون: لا يمسه إلا المطهرون من الجنابة والحدث ولفظ الآية خبر، ومعناه الطلب، والمراد بالقرآن ههنا المصحف، واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ أن الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: «أن لا يمس القرآنَ إلا طاهر». أخرجه مالك في الموطأ (٣١٧) مرسلاً، وعبدالرزاق في المصنف (١/ ٣٤١)، والدارمي (٢٢٧٨)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٤٨٥). وصحّحه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني أيضاً في صحيح الجامع (٢/ ١٢٨٤) رقم (٧٧٨٠).

باب (٣١) قول الله تعالى

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية.

مقصود الترجمة: بيان أن المحبة هي أحد أنواع العبادة، بل هي من أصول العبادة؛ ومن ثم من أحب مع الله غيره يكون قد أشرك بالله تعالى شركًا أكبر مخرجًا عن الملة، ويمكن أن يُعَنْوَن لهذا الباب بـ (باب الشرك في المحبة).

أقسام المحبة: المحبة قسمان: مشتركة، وخاصة: فالمشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء ونحو ذلك.

الثاني: محبة رحمة وإشفاق، كمحبة الوالد لولده.

الثالث: محبة أنس وألفة، وهي محبة المشتركين في صناعة، أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضًا. فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق.

القسم الثاني: المحبة الخاصة: التي لا تصلح إلَّا لله، ومتى أحب العبد بها غيره كان شركًا لا يغفره الله. وهي محبة العبودية، المستلزمة للذل، والخضوع والتعظيم.

وقد ذكر شيخ الإسلام بواعث حب الله وأنها تكون في شيئين:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب؛ لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه

قولـه: «باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية .

لما كانت محبة الله سبحانه هي أصل دين الإسلام فبكمالها يكمل وبنقصها ينقص توحيد العبد، نبَّه المصنف على ذلك بهذه الترجمة بالآية. قاله في فتح المجيد.

قال ابن كثير في الآية [التفسير] ١/ ٤٨٠: «يذكر تعالى حال المشركين في الدنيا وما لهم في الآخرة من العذاب والنكال حيث جعلوا لله أنداداً أي أمثالاً ونظراء يحبونهم كحب الله، أي ساووهم بالله في المحبة والتعظيم». انتهى.

وهذا اختيار شيخ الإسلام في الآية، ثم بيَّن تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم وإنما ذُمُّوا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها كمحبة المؤمنين له كما أخبر الله عنهم وهم في النار، وأنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾. [الشعراء: ٩٧-٩٨]، ومعلوم أنهم ما سوّوهم به في الخلق والربوبية وإنما سوّوهم به في المحبة والتعظيم.

والأنداد جمع ند وهو العَدْل والمثيل والنظير، ويشمل كل معبود من دون الله

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]» قال ابن كثير [التفسير] ٤/ ١٢٤: «أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ﴾: أي: انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه». وفيه: معرفة تفسير آية براءة والوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه. قاله المصنف -رحمه الله-.

ومناسبة الآية للباب: أن فيها وجوب محبة الله ورسوله، ووجوب تقديم محبتهما ومحبة ما يحبانها، كما دلت على تحريم تقديم حب شيء من متاع الدنيا على حب الله ورسوله؛ لأن الحب من أصل العبادة، وصرفه لغير الله شركٌ.

قولـه: «وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«لا يؤمن أحدُكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». أخرجاه. البخاري (١٥)، ومسلم (١٤).

وقولـه: «لا يؤمن» أي لا يكون آتياً بالإيمان الواجب عليه، فدلّ على أن من لم يكن الرسول أحب إليه من ولده ووالده بل ومن نفسه فهو من أصحاب الكبائر إن لم يكن كافراً. وفيه: أن الأعمال من الإيمان، لأن المحبة عمل القلب وأن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازماً لها فإنها محبة لله ولأجله تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها. وفيه: وجوب تقديم محبته ﷺ على النفس والأهل والمال، وأن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام. قاله المصنف -رحمه الله-.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله- [الكلام على حقيقة الإسلام (٢٨١)]:«وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكوا لشَكُّوا، ولو أُمِرُوا بالجهاد لما جاهدوا، إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، فهؤلاء إن عُوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتُلوا بمن يُدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق». انتهى.

قولـه: «ولهما» أي البخاري ومسلم «عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:«ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

أخرجه البخاري (١٦) (٢١) (٦٠٤١) (٦٩٤١)، ومسلم (٤٣).

ثنّى الضمير لتلازم المحبتين«وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يـكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٠/٢٠٦]:«أخبر ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العباد لله، وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة وتفريغها ودفع ضدها، فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وتفريغها: أن يحب المرء لا يحب إلا لله، ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار». انتهى.

ويجب معرفة الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله، فمن أحب مخلوقاً كما يحب الله فقد جعله نداً لله، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه، وأما من كان الله أحب إليه مما سواه وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله هو أنفع الأشياء، والفرق بين هذين من أعظم الأمور.

قولـه: «وفي رواية [للبخاري (٦٠٤١)]: لا يجد أحدٌ حلاوة الإيمان حتى.» إلى آخره»:

قال النووي: «معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمّل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا».

وفيه: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان، وقد لا يجدها. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «وعن ابن عباس» -رضي الله عنهما-«قـال: من أحـب في الله، وأبـغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنالُ ولايةُ الله بذلك، ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان - وإن كثرت صلاتُه وصومُه - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامّةُ مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً». رواه ابن جرير. قلت: لم أجده عند الطبري في تفسيره. وقد أخرجه ابن المبارك في الزهد برقم(٣٥٣) وفيه ليث مختلط.

قوله: «من أحب في الله» أي أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

قوله: «وأبغض في الله» أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته وإن كان أقرب قريب إليه.

قوله: «ووالى في الله» أي والى أولياءه.

قوله: «وعادى في الله» أي عادى أهل معصيته وإن كان أقرب قريب، وجاهد أعداءه، ونصر أنصاره، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه، فمستقل ومستكثر ومحروم.

قوله: «فإنما تُنال ولاية الله بذلك» أي توليه لعبده. ولاية بفتح الواو لا غير الأخوة والنصرة والمحبة، وبالكسر الإمارة والمراد هنا الأول. قاله في فتح المجيد.

قوله: «ولن يجد عبدٌ طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك» أي حتى يحب في الله ويبغض في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً: «من أحب لله وأبغض لله، وعادى لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان» رواه أبوداود. (٤٦٨١) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٠٣٤) رقم (٥٩٦٥).

وفيه معرفة أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ولا يجد أحدٌ طعم الإيمان إلا بها. قاله المصنف -رحمه الله- .

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا»: هذا في زمن ابن عباس -رضي الله عنهما- فكيف لو رأى مؤاخاة أهل زماننا على الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: «وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» يعني أنه إذا ضعف داعي الإيمان أحب دنياه وإيثار ما يهواه على ما يحبه الله ورسوله وذلك غير نافع لهم بل يضر في العاجل والآجل، فالله المستعان. وفيه: فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

قاله المصنف -رحمه الله- .

قوله: «وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ قال: المودة». هذا الأثر روا عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

وقوله: «المودة» أي التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال العلامة ابن القيم -رحمه الله- [الرسالة التبوكية (٥٧)] في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦]

«فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادَّعوا أنهم على طريقتهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم فيتبرؤون منهم يوم القيامة فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله. وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء يوالي لهم ويعادي لهم ويرضى لهم ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة يراها يوم القيامة حسرات عليه إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله». انتهى ملخصاً.

وفيه: معرفة تفسير ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾. قاله المصنف -رحمه الله- .

باب(٣٢) قول الله تعالى

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

مقصود الترجمة: بيان وجوب تعليق الخوف والخشية بالله وحده، والحذر من صرفهما للمخلوقين، وبيان أَنَّ صرف ذلك لغير الله تعالى هو عين الشرك.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أَنَّ الخوف عبادة من العبادات التي لا تكون إلا لله فمن صرفها لغيره كان ذلك شركًا مناقضًا للتوحيد.

ثم مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله على وجه الخصوص: هي أَنَّ العبادة تقوم على عمودين: وهما عمودا المحبة والخوف، فلما ذكر المصنف في الباب السابق موضوع المحبة؛ ناسب أن يذكر هنا الخوف، فهذا الباب يُعَدُّ مكملًا لما قبله.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمرٌ لهم أن يقصروا خوفهم عليه فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده ورضيه منهم، فالخوف من أفضل مقامات الدين وأجلّها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى.

قال ابن القيم -رحمه الله- [إغاثة اللهفان ١/ ١٣٠]: «ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم ولا يأمروهم بمعروف ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم.

قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم، فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، فدلت الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان».

وقال أيضاً [طريق الهجرتين (٣٦٢)]:«الخوف عبودية القلب فلا يصلح إلا لله كالذلّ والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب».

والخوف من حيث هو ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر: وهو أن يخاف من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] الآية.

وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦].

فعُبّاد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من بعض الناس، وهذا محرّم.

الثالث: الخوف الطبيعي، كالخوف من عدو أو سبع فهذا لا يُذم.

وفيه: معرفة تفسير آية آل عمران، وأن إخلاص الخوف لله من الفرائض، وذكر ثواب من فعله وذكر عقاب من تركه. قاله المصنف –رحمه الله–.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية» .

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها بالطاعة والعمل الصالح إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم وأخلصوا له الخشية دون ما سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين.

قوله: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

قال ابن عطية: «يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه».

قال في «قرة العيون»: «لأن النفع والضر إنما يكون بمشيئته وإرادته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

وقوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾:

قال ابن عباس: «إن أولئك هم المهتدون، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة». وقال محمد بن إسحاق: «وعسى من الله حق».

وفيه: معرفة تفسير آية براءة. قاله المصنف -رحمه الله-

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قال ابن القيم -رحمه الله- [إغاثة اللهفان ٢/ ١٨٩]: «أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة أنه إذا أُوذيَ في الله جعل فتنة الناس وهي أذاهم أو نَيْلهم له بالمكروه وهو الألم الذي لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في الفرار منه وتركه السبب الذي يناله به كعذاب الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان وتحمّلوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته فرَّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم ففرّ من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله». انتهى. وإنما حمل ضعيف البصيرة على أن جعل فتنة الناس

كعذاب الله هو الخوف منهم أن ينالوه بما يكره، وذلك من جملة الخوف من غير الله، وهذا وجه مطابقة الآية للترجمة. قاله في [الشرح]

وفيه: معرفة تفسير آية العنكبوت. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: الخوف من مداهنة الخلق في الحق، والمعصوم من عصمه الله. قاله في فتح المجيد.

قولـه: «وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ من ضُعْف اليقين أن تُرضيَ الناس بسخط الله، وأن تحمدَهم على رزق الله، وأن تذمَّهُم على ما لم يُؤتك الله، إن رزق الله لا يجرُّه حرصُ حريـص، ولا يردُّهُ كراهيةُ كاره».

هذا الحديث رواه أبونعيم في الحلية، والبيهقي وأعله بمحمد ابن مروان السدي. وقال: ضعيف. وفيه أيضاً عطية العوفي ضعيف ومدلس.

ومعنى الحديث صحيح وتمامه:«وأن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط».

قولـه: «إن من ضُعف اليقين» الضُعف بالضم ويحرك ضد القوة، والضَّعف بالفتح في الردى، وبالضم في البدن، واليقين كمال الإيمان. قال ابن مسعود: اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان. رواه أبونعيم في الحلية والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاً.

أخرجه أبونعيم في الحلية (١٠/ ٤١)، والبيهقي (١/ ١٥٢-١٥٣) في شعب الإيمان، بلفظ«إن من ضعف اليقين.. ». قال الألباني:«موضوع». انظر: الضعيفة (١٤٨٢).

قولـه: «أن ترضي الناس بسخط الله» أن تُؤثر رضاهم على رضى الله وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته، ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب، ويفرِّج الكروب، ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله ووفقه لمعرفته

ومعرفة إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته. قاله في فتح المجيد.

وقال ابن رجب -رحمه الله-: «فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدّم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أو كيف يرضى التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب».

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله» أي على ما وصل إليك من أيديهم بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، والله تعالى هو الذي كتبه لك ويسّره لك، فإذا أراد أمراً قيّض له أسباباً، ولا ينافي هذا حديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» أخرجه الترمذي (٢٠٢١) من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن، والإمام أحمد (٧٩٣٩) (١٣/ ٣٢٢) الرسالة، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٦٠١) (٢/ ٨٢٢).

لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم لحديث: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه» الحديث. أخرجه أبوداود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧). قال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود (١/ ٣١٤) رقم (١٤٦٨).

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم، فلو قدر ساقه إليك، فمن علم أن الله سبحانه هو المنفرد بالعطاء والمنع بمشيئته وإرادته وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب لم يسأل حاجته إلا منه وحده، ولم يمدح مخلوقاً على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

وفيه: أن اليقين يضعف ويقوى، وعلامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاثة. قاله المصنف.

وفيه: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وإلا لم تكن هذه الثلاث من ضعفه وأضدادها من قوته. قاله في [الشرح] .

قولـه: «وعن عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس؛ رضي الله عنه ، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله؛ سخط الله عليه وأسخط عليه الناس». رواه ابن حبان في صحيحه. أخرجه ابن حبان (١/ ٥١٠) رقم (٢٧٦)، من طريق الترمذي (٢٤١٤)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢/ ٢٨٨).

قولـه: «من التمس» أي: طلب.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ٥٢]:«وكتبت عائشة –رضي الله عنها– إلى معاوية، ورُوي أنها رفعته:«من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغْنوا عنه من الله شيئاً» هذا لفظ المرفوع.

ولفظ الموقوف:«من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًّا».

وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين والله كاف عبده.

باب (٣٣) قول الله تعالى

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾

مقصود الترجمة بيان أَنَّ التوكل -الذي هو الاعتماد المطلق- عبادة من العبادات التي تصرف لله تعالى، وصَرْفُه لغير الله تعالى شركٌ أكبر مخرجٌ عن الملة.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: هو أَنَّ التوكل عبادةٌ يجب صرفها لله وحده، والتوكل على غير الله يعد قدحًا في التوحيد، بل نقضًا له، ووقوعًا في الشرك بالله تعالى.

ومناسبة الباب للأبواب السابقة: أَنَّ المصنف بدأ الباب السابق بالخوف من الله، والذي قبله بمحبة الله، ثم ثَلَّثَ بهذا الباب المتعلق بالتوكل، وهذه الأشياء الثلاثة يجمعها أنها من أعظم أعمال القلوب المرتبطة بعبادة الله تعالى، ولذلك ناسب أن يذكرها متتابعة على هذا النسق.

والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المنافع، ودفع المضار.

قال السعدي - رحمه الله -: «التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده».

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾:

أراد المصنف -رحمه الله- بالترجمة بهذه الآية بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصها لله تعالى، فإن تقديم المعلول يفيد الحصر، أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها. قال الإمام أحمد:«التوكل عمل القلب».

وقال ابن القيم في الآية المترجم بها [طريق الهجرتين (٣٢٧-٣٣٠)]:«جعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه.

والتوكل على غير الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى:

كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة: كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر.

والوكالة الجائزة هي: توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه. لكن ليس له أن يعتمد في حصول ما وكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو بنائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب. قاله في [الشرح]

وفي الآية: أن التوكل من الفرائض وأنه من شروط الإيمان. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .

قال البغوي:«أي خافت وفرقت قلوبهم». وقيل: إذا خُوفوا بالله انقادوا خوفاً من عقابه. قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في الآية أن المنافقين لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آياته ولا يتوكلون على الله ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه.

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أي تصديقاً ويقيناً.

وقد استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أئمة السلف بهذه الآية ونظائرها على أن«الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص».

قال عمير بن حبيب الصحابي: إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه. رواه ابن سعد (٤/ ٣٨١) وإسناده صحيح.

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبوعبيدة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي يعتمدون عليه بقلوبهم مفوضين إليه أمورهم وحده لا شريك له، فلا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يرغبون إلا إليه.

وهذا هو الشاهد من الآية في الترجمة. وفي الآية: وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكُّل على الله وحده.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

قال قتادة:«إقامة الصلاة: المحافظة على مواقيتها، ووضوئها، وركوعها، وسجودها، وتلاوة القرآن فيها، والتشهد والصلاة على النبي ﷺ فيها، هذا هو إقامتها».

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: الإنفاق مما رزقهم الله يشمل إخراج الزكاة. وسائر الحقوق للعباد من واجب ومستحب. قال قتادة: «فأنفقوا مما أعطاكم الله، فإنما هذه الأموال عوار وودائع عندك يا ابن آدم أوشكتَ أن تفارقها».

وهذه الأعمال الخمسة مستلزمة لباقي الواجبات، فلذا اقتصر عليها.

وفيه: معرفة تفسير آية الأنفال. قاله المصنف –رحمه الله– .

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾:

أي كافيك وكافي أتباعك، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–.

قال ابن القيم -رحمه الله- [زاد المعاد ١/ ٣٧-٣٨]:«أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك فلا تحتاجون معه إلى أحد، فإن الحسْب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة.

قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢﴾ [الأنفال: ٦٢]، ففرّق بين الحَسْب والتأييد، فجعل الحَسْبَ له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد والتوكل من عباده حيث أفردوه بالحَسْب.

فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولهم ومدح الرب تعالى لهم فكيف يقول لرسولـه«الله وأتباعك حسبك»؟. وأتباعه قد أفردوا الرب تعالـى بالحسْب ولـم يشركوا بينه وبين رسولـه، فكيف يُشرك بينه وبينهم في حسْب رسوله ﷺ؟

هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل». انتهى.

وبهذا يتبيّن مطابقة الآية للترجمة. فإذا كان هو الكافي لعبده وجب أن لا يتوكل إلا عليه ومتى التفت إلى سواه وَكَلَه الله إلى من التفت إليه.

وفيه: معرفة تفسير آية آخر الأنفال. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقولـه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾.

قال ابن القيم -رحمه الله- [زاد المعاد ١/ ٣٨-٣٩]:«﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي كافيه وواقيه.

فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لابد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فهذا لا يكون أبداً.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ أي كافيه.

فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل الله سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبدُ على الله حق توكله، وكادته السمواتُ والأرضُ ومن فيهن لجعل الله له مخرجاً وكفاه ونصره». انتهى.

وفي الآية دليل على فضل التوكل وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار؛ لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه لأنه تعالى رتّب الحكم على الوصف المناسب له فعلم أن توكّله هو سبب كون الله حَسْباً له. ذكره شيخ الإسلام -رحمه الله-.

وفيها: تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجزٌ. وفيه: معرفة تفسير آية الطلاق. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ قالها إبراهيم -عليه السلام- حين أُلقيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾.

رواه البخاري والنسائي». أخرجه البخاري (٤٥٦٣) و(٤٥٦٤).

وفي رواية ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم -عليه السلام- حين أُلقي في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل. رواه البخاري.

وقوله: ﴿حَسْبُنَا الله﴾ أي كافينا فلا نتوكل إلا عليه.

وقوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ أي نعم الموكول إليه، ومخصوص «نعم» محذوف تقديره «هو»، قال ابن القيم [طريق الهجرتين (٣٣١)]: «هو حسب من توكّل عليه وكافي من لجأ إليه وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير، فمن تولّاه واستنصر به وتوكل عليه تولّاه وحفظه، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ١٨٣]:«وما يُروى أن الخليل لما أُلقي في المنجنيق قال له جبريل: سَلْ؟ قال:«حسبي من سؤالي علمه بحالي». ليس له إسناد معروف، وهو باطل.

قولـه: «وقالها محمد ﷺ حين قالوا له:﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ الآية».

وذلك بعد منصرف قريش من أُحُد، لقي أبوسفيان ركباً من عبدالقيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون محمداً عني رسالة. قالوا: نعم. قال: أخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصلهم. فمرَّ الركبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبوسفيان. فقال:«حسبنا الله ونعم الوكيل» أي: نعم من توكل عليه المتوكلون. ومخصوص (نعم) محذوف تقديره: «نعم الوكيل الله». قاله في [قرة العيون]. فألقى الله الرعبَ في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة بمن معه، ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين -عليهما السلام- في الشدائد. قاله المصنف -رحمه الله- تعالى. وجاء في الحديث:«إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا حسبنا الله ونعم الوكيل». رواه ابن مردويه.

أصل القصة صحيحة جاءت من طرق مرسلة كما في «موسوعة التفسير المأثور»(٥/ ٦٩٧).

باب(٣٤) قول الله تعالى

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

مقصود الترجمة: الإشارة إلى أهمية جمع العبد المؤمن بين الخوف والرجاء؛ ذلك لأن ترك الخوف من الله يؤدي إلى أمن مكره، وترك الرجاء يؤدي إلى القنوط من رحمته تعالى، وكلاهما ينافيان كمال التوحيد.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هو أن عدم الخوف والرجاء المؤدي إلى أمن مكر الله والقنوط من رحمته ينافي كمال التوحيد وينقصه.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أراد المصنف -رحمه الله- بالترجمة بهذه الآية أن يبيِّن أن أهل القرى المكذبين للرسل إنما حملهم على ذلك الأمن من مكر الله بهم وعدم خوفهم منه، فالأمن من مكر الله من أعظم الذنوب المنافية لكمال التوحيد، ودليل على ضعف الإيمان، فمن أمن مكر الله لم يُبال بما ترك من الواجبات وما فعل من المحرمات لعدم خوفه من الله، فيجب على الإنسان في هذه الحياة أن يجمع بين الخوف والرجاء، ولهذا عقب الآية التي ترجم بها بقوله: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فلا يغلب عليه الرجاء حتى يوجب له الأمن من مكر الله، ولا يغلب عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله بل يتساوى خوفه ورجاؤه.وهذا مقام الأنبياء والصدِّيقين كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ولهذا يقال الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للطائر.

وأما عند الموت والانتقال إلى الدار الآخرة فيغلب الرجاء. كذا قال بعضهم.

ودليل ذلك حديث جابر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ- قبل موته بثلاث أيام يقول:«لا يموتن أحدكم إلا وهو يُحسِن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ».

أخرجه مسلم (٢٨٧٧).وقال إبراهيم بن يزيد النخعي: كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته لكي يُحسِن ظنَّه بربه.

قال الشيخ صالح آل الشيخ: «والتحقيق: أن ذلك على حالين:

الأولى: إذا كان العبد في حال الصحة والسلامة فإنه إما أن يكون مسددًا مسارعًا في الخيرات، فهذا ينبغي أن يتساوى في قلبه الخوف والرجاء، فيخاف ويرجو، لأنه من المسارعين في الخيرات. وإذا كان في حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان، فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتى ينكفّ عن المعصية.

الحال الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف فإنه يجب أن يُعظِّم جانب الرجاء على الخوف..».انتهى.

وقد جاء في الحديث الصحيح:«إذا رأيتَ الله يعطي العبدَ من الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج».أخرجه أحمد.

قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

قال الحسن البصري:«من وُسِّع عليه فلم يرَ أنه يَمكر به فلا رأي لـه، ومن قُتِر عليه فلم يرَ أنه ينظر لـه فلا رأي له».

وقال قتادة: «بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً إلا عند سلوتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون».

وقال إسماعيل بن رافع: «من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة». رواه ابن أبي حاتم. كما في الدر المنثور (٣/ ٥٠٧).

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم ويُملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، وهذا هو معنى المكر والخديعة. ذكره ابن جرير بمعناه.

وفيه: معرفة تفسير آية الأعراف. قاله المصنف -رحمه الله- .

وقوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦]:

القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلا الأمرين ذنبٌ عظيم ينافي كمال التوحيد.

ومعنى الآية: أن الملائكة لما بشّرت إبراهيمَ بإسحاق ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾. الذي لا ريب فيه .

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤-٥٥] أي: الآيسين.

فقال -عليه السلام-: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾.

قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله:

﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قوله: «وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

هذا الحديث رواه البزّار (١٠٦) وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر، قال ابن معين: ثقة. وليّنه أبو حاتم قلت: قال فيه : لين الحديث، حديثه حديث الشيوخ، ومعناه قلة حديثه مع لينه.

وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً. فقد روي عن ابن مسعود نحو ذلك.

ثم ساقه من طريق الطبري بسنده.. عن أبي الطفيل قال: قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله واليأس من روح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله. وقال بعد:...ثم رواه من طرق عدة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود. وهو صحيح إليه بلا شك. قلت: فلعله يشهد للمرفوع.

قولـه: «الشرك بالله» بدأ به من باب البداءة بالأهم فالأهم، وهو أكبر الكبائر، قال ابن القيم -رحمه الله-: «الشرك بالله هضمٌ للربوبية، وتنقُّص للإلهية، وسوء ظن برب العالمين سبحانه».

قولـه: «واليأس من روح الله» أي قطع الرجاء والأمل من الله، فيما يخافه ويرجوه وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته. قاله في فتح المجيد.

قولـه: «والأمن من مكر الله» أي الأمن من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان - نعوذ بالله من ذلك - وذلك جهلٌ بالله وبقدرته، وثقةٌ بالنفس وعجب بها. قاله في [الشرح]. وهذه الثلاث من أكبر الكبائر، وهي كثيرة جداً. وإنما ذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله وبُعدها عن الخير، وقد وقع فيها كثيرٌ من الناس قديماً وحديثاً، نسأل الله العافية. قاله في [قرة العيون].

وضابط الكبيرة: ما قاله المحقّقون من العلماء أنها: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام [الفتاوى ١١/ ٦٥٢]: أو نفي الإيمان. وزاد في فتح المجيد: من برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: ليس منا من فعل كذا وكذا.

قولـه: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوْح الله. رواه عبدالرزاق».

قال في[الشرح]:«ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح». وقد تقدم الكلام على ما جاء في حديث ابن مسعود فأغنى عن إعادته. وفيه: شدة الوعيد فيمن أَمِنَ مكر الله، وشدة الوعيد في القنوط. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب(٣٥) من الإيمان بالله الصبرُ على أقدار الله

قولـه: «باب من الإيمان بالله الصبرُ على أقدار الله»:

مقصود الترجمة: بيان وجوب الصبر على أقدار الله – سبحانه وتعالى –، وأَنَّ ذلك من كمال التوحيد، كما أن الجزع والتسخط وعدم الصبر ينافي كمال توحيد الله تعالى.

ومراد المصنف بالأقدار هنا:

الأقدار المؤلمة لا الملائمة؛ لأن الأقدار الملائمة لا تحتاج إلى صبرٍ.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: ظاهرة كما تقدم وهو أن الصبر على الأقدار من كمال التوحيد والجزع منافٍ لكماله.

وأما موافقة الباب للباب الذي قبله: فالمصنف ذكر في الباب السابق الأمنَ من مكر الله والقنوطَ من رحمته المنافيين لكمال التوحيد مشيرًا بذلك إلى الخوف والرجاء اللذين هما من كمال التوحيد؛ فناسب هنا أن يذكر الصبر على أقدار الله الذي هو من كمال التوحيد أيضًا، ليشير بذلك إلى أن الجزع منافٍ لكمال التوحيد.

قال الإمام أحمد –رحمه الله–: ذكر الله الصبرَ في تسعين موضعاً من القرآن.

واشتقاقه من صُبِـر: إذا حُبس ومُنع.

قال ابن القيم [المدارج ٢/ ١٥٦]: الصبر حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكّي والتسخّط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما.

والصبر ثلاثة أنواع: صبرٌ على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبرٌ على أقدار الله.

وقال –ﷺ–:«ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر». متفق عليه.

أخرجه البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠)، ومسلم (١٠٥٣).

قولــه: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[التغابن:١١]

وقبلها ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي بمشيئته وإرادته وحكمته.

قولــه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾:

قال ابن عباس: يهد قلبه لليقين؛ فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. هذا تفسير الإيمان في الآية. وفي الآية: بيان أن من ثواب الصبر هداية القلب.

قال ابن كثير [[التفسير] ٨/ ١٣٧]:«أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله تعالى هدى الله قلبه وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدىً في قلبه ويقيناً صادقاً، وقد يخلف عليه في الدنيا ما كان أخذه أو خيرًا منه».

وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

وقولــه:﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيهٌ على أن ذلك إنما يصدر عن علمه تعالى المتضمن لحكمته، وذلك يوجب الصبر والرضى.

قولــه: «قال علقمة: هو الرجلُ تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلِّم»

هذا الأثر رواه ابن جرير وغيره. وإسناده صحيح.

وفي هذا دليلٌ على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ يعني: يسترجع يقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون).

وفيه: معرفة تفسير آية التغابن، وأن هذا من الإيمان بالله. قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ-.

وفي الآية: أن الصبر سبب لهداية القلب، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها.

وفيها: إثبات القدر. قاله في [الشرح].

قوله: «وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال:« اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعنُ في النسب، والنياحةُ على الميّت». أخرجه مسلم (٦٧).

أي من أعمال أهل الكفر وعادتهم وأخلاق الجاهلية، وهما خصلتان مذمومتان محرمتان فى الشرع. قال ابن الجوزي: وفي المراد بالكفر وجهان: أحدهما: أن يكون كفر النعمة، فإن من طعن في نسب غيره فقد كفر بنعمة الله عليه بسلامته من ذلك الطعن، ومن ناح على ميت فقد كفر نعمة الله عليه إذ لم يكن هو الميت.

والثاني: أن يكون المعنى: أنهما من أفعال الكفار لا من خلال المسلمين.

قوله: «الطعن في النسب» أي عيبه، ويدخل فيه أني قال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه. وفيه: أن الطعن في النسب من أمر الجاهلية. قاله المصنف –رحمه الله– .

قوله: «والنياحة على الميت» أي رفع الصوت بالندب وتعداد فضائله؛ لما فيه من التسخط على قدر الله المنافي للصبر، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وفيه: دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة. قاله في [الشرح]

قوله: «ولهما» أي البخاري ومسلم «عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: « ليس منا من ضرب الخدود وشقّ الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية».

أخرجه البخاري (١٢٩٤) و(١٢٩٧) و(١٢٩٨) و(٣٥١٩)، ومسلم (١٠٣).

وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة؛ لما في هذه الأمور من التسخط المنافي للصبر، وقد تأوّل بعضهم قوله:«ليس منا» أي ليس من أهل طريقتنا، وليس المراد إخراجه من الإسلام، وفائدة إيراده بهذا اللفظ المبالغة في الردع عن مثل ذلك.

وروي عن سفيان بن عيينة والإمام أحمد وغيرهما من أهل العلم أنهم كرهوا الخوض في تأويلـه، ويرون أن يمسك عن ذلك ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر.

وقال شيخ الإسلام على حديث: «من غشنا فليس منا»:

أخرجه ابن حبان (١١٠٧) وصححه الألباني. انظر: [الصحيحة] رقم (١٠٥٨).

«ليس المراد أنه كافر كما تأوّلته الخوارج، ولا أنه ليس من خيارنا كما تأوّلته المرجئة، ولكن المضمر يطابق المظهر، والمظهر هم المؤمنون المستحقون للثواب السالمون من العذاب، والغاش ليس منا؛ لأنه متعرض لعذاب الله وسخطه». انتهى.

قوله: «من ضرب الخدود» أي: أو بقية البدن، وإنما خصّ الخدّ لأنه الفأل.

قوله: «وشقّ الجيوب» والمراد كمال فتحه. قاله الحافظ ابن حجر.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام [الاقتضاء ١/ ٢٠٤]: «هو ندب الميت». وقال ابن القيم: «الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية للأنساب ومثله التعصب للمذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي عليه، فكل هذا من دعوى الجاهلية، وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء على الميت لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «تدمع العين، ويحزن القلبُ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٠/ ٤٧]: «البكاء على الميت على وجه الرحمة حسن مستحب، ولا ينافي الرضاء بقضاء الله، بخلاف البكاء عليه لفوات حظه منه». انتهى. وفيه: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

قال المصنف –رحمه الله–.

قولـه: «وعن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:«إذا أراد الله بعبده الخيرَ عجّل له العقوبةَ في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يُوافي به يوم القيامة»».

أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٤٥)، والحاكم (١/ ٣٤٩). قال الألباني:«صحيح». انظر: صحيح الجامع (١/ ١١٨) رقم (٣٠٨).

قولـه: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا»: أي على ذنوبه إذا صبر فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافى به يوم القيامة. وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٠/ ٤٨]:«المصائب نعمة؛ لأنها مكفّرة للذنوب، ولأنها تدعو إلى الصبر فيثاب عليها، ولأنها تقتضي الإنابة إلى الله والذل، فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، ومعلوم أن هذا من أعظم النعم ولو كان الرجل من أفجر الناس، فلابد أن يخفف الله عنه عذابه بمصائبه». فالمصائب نعمة ورحمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاص أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتُلِيَ بفقر أو مرض حصل له من الجزع والسخط والنفاق ومرض القلب والكفر الظاهر، أو ترك الواجبات، أو فعل المحرمات ما يوجب له ضرراً في دينه بحسب ذلك، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة كانت في حقه نعمة دينية.

قولـه: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يُوافِـي به يوم القيامة» وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوب بحتى مبني للفاعل أي لا يجازى بذنبه في الدنيا حتى يجيء يوم القيامة موفر الذنوب فيُستوفى ما يستحقه من العذاب. وفيه: معرفة علامة إرادة الله بعبده الخير وإرادته بعبده الشر. قاله المصنف -رحمه الله- .

قلت: وفيه إثبات الإرادة لله -عز وجل-، وهي نوعان: إرادة شرعية دينية، وإرادة كونية قدرية، فالسعيد من أراد منه تشريعاً ما أراد به تقديراً، والشقي من أراد به تقديراً ما لم يرد منه تشريعاً. قاله شيخ الإسلام -رحمه الله-.

وفيه: التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله: «وقال ﷺ:«إن عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السُّخط». حسنه الترمذي.

رواه الترمذي(٢٣٩٦) بسند الحديث الذي قبله، ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، ورواه ابن ماجه (٤٠٣١). وحسنه الألباني

وقوله: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء» بكسر العين وفتح الظاء فيهما، ويجوز ضمها مع سكون الظاء، أي من كان ابتلاؤه أعظم كان جزاؤه أعظم. وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يُثاب عليها مع تكفير الخطايا، ورجّح العلاّمة ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح كالصبر والرضى والاستغفار فإنه حينئذ يُثاب على ما تولد منها.

قوله: «وأن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». حسّنه الترمذي، ولهذا سُئل النبي ﷺ في حديث سعد: أي الناس أشد بلاء؟ قال:«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٣)، والترمذي (٢٤٠٠)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، وصححه الألباني في[الصحيحة] رقم (١٤٤).

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم، الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجةٍ أو تفريج كربة.

وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يُحصى. قاله في فتح المجيد.

قوله: «فمن رضي فله الرضى» أي من الله. «ومن سخط» بكسر الخاء.

«فله السخط» أي من سخط على الله فيما قضاه وقدّره، فله السخط أي من الله.

وكفى بذلك عقوبة، وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة، والرضى والسخط صفتان وصف الله بهما نفسه في كتابه، ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. وقد يستدل بهذا الحديث من يرى وجوب الرضى كابن عقيل، واختار القاضي عدم الوجوب، ورجّحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام:«ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه.. قال: وأما ما يُروى: من لم يصبر على بلائي ولم يرضَ بقضائي فليتخذ رباً سوائي. فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ». انتهى.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١١/ ٢٦٠]:«وأعلى من ذلك – أي من الرضا – أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها». انتهى. وفيه: علامة حب الله تعالى للعبد، وتحريم السُّخط وثواب الرضا بالبلاء. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب (٣٦) ما جاء في الرياء

قولـه: «باب ما جاء في الرياء»: أي من النهي والتحذير. وأنه شرك ينافي كمال التوحيد، والرياء مشتق من الرؤية.

والمراد: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيُحمد صاحبها.

والفرق بين الرياء والسمعة أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة، والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر ويدخل في ذلك التحدث بها عمله. قاله بن حجر.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: هو أَنَّ الرياء من الشرك الأصغر، وغرض الكتاب الحقيقي تبيين التوحيد وحقيقته، وبيان ما يناقضه من الشرك الأكبر والأصغر.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠].

يقول تعالى لنبيه ﷺ: قل يا محمد للناس إنما أنا بشر مثلكم - أي في البشرية - وليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء بل ذلك لله وحده.

وقولـه: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ﴾ أي معبودكم واحد لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي من كان يخشى البعث في الآخرة.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ٦/ ٤٨٨]: «أما اللقاء فقد فسّره طائفةٌ من السلف والخلف بما يقتضي المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته - سبحانه وتعالى - يوم القيامة.. ».

وذكر الأدلة على ذلك.

وقولـه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: قال ابن القيم –رحمه الله– [الداء والدواء (١٣٦)]: «العمل الصالح هو السالم من الرياء، المقيد بالسنة». وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله والمرسلين قبله هو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾[الأنبياء: ٢٥].

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلاهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم لما اشتدت غربة الدين ونُسي العلم بدين المرسلين.

قولـه: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾. «أحداً» نكرة في سياق النهي تعم كل أحدٍ، سواء كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو غيرهم. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

وفيه: معرفة تفسير آية الكهف. قاله المصنف.

وفيها: دليل على الشهادتين، وتسمية الرياء شركاً، والتصريح بأن الشرك الواقع من المشركين إنما هو في العبادة، والرد على من قال: أولئك يستشفعون بالأصنام ونحن نستشفع بصالح. قاله في [الشرح]

قولـه: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه». رواه مسلم» (٢٩٨٥).

ولابن ماجه (٤٢٥٥) «فأنا منه بريئ وهو للذي أشرك». وهي زيادة حسنة.

قال الطيبي: الضمير المنصوب في قولـه: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قلت: وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة.

قال ابن رجب:«واعلم أن العمل لغير الله أقسام: تارة يكون رياءً محضاً كحال المنافقين الذين يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في فرض الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدّى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة. وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وأما إذا كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير اختلاف، وإن استرسل معه فهل يُحبط عمله أم لا ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن وغيره». انتهى ملخصاً. وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل مرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج على تجديد نية. انتهى.

وفيه: الأمر العظيم في ردّ العمل الصالح إذا خالطه شيء لغير الله وذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى، وأن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً أن النبي ﷺ قال:«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجّال؟ » قالوا: بلى. قال: «الشرك الخفي يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل». رواه أحمد.

أخرجه أحمد (٣/ ٣٠)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، والحاكم (٤/ ٣٢٩)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٥٠٩) رقم (٢٦٠٧).

وفي الباب عند ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لبيد قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:«أيها الناس إياكم وشرك السرائر» قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال:«يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه، فذلك شرك السرائر». أخرجه ابن خزيمة رقم (٩٣٧) وإسناده صحيح.

قوله: «الشرك الخفي» سماه خفياً لأنه عمل قلب لا يعلمه إلا الله، ولأن صاحبه يظهر أنه لله وقد قصد غيره أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله، ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله وكذا المتابعة، وعن شدّاد ابن أوس رضي الله عنه قال: كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر. رواه الطبراني (٧١٦٠)، والحاكم (٤/ ٣٢٩) وصححه ووافقه الذهبي.

قال ابن القيم [المدارج ١/ ٣٣٤]:«وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله وقصده». انتهى.

وقوله: «كيسير الرياء» فدلّ على أن كثيره أكبر. قاله في [الشرح]

وفي الحديث: شفقته ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجّال. قاله في فتح المجيد.

وفيه: خوفه ﷺ على أصحابه من الرياء، وأنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يُزيّنها لما يرى من نظر رجل إليه. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب (٣٧) من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قوله: «باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا» أي عمله الصالح الذي يتقرب به إلى الله تعالى.

وأراد المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة: بيان أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه. قاله في فتح المجيد.

والفرق بين هذا الباب والذي قبله أنه في هذا إنما أراد بالعمل الصالح الذي يتقرّب به إلى الله عرضاً من الدنيا، وفي الذي قبله إنما أراد مراءاة الناس ليثنوا عليه، وكلاهما مشرك خاسر وعمله حابط؛ لأنه لم يُرِدْ بعمله وجه الله والدار الآخرة.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

قال ابن عباس: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي مالها.

﴿نُوَفِّ﴾ أي: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ لا ينقصون، ثم نسختها .

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] الآية.

رواه النحاس في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له. وفيه: جويبر متروك.

وقولـه: ثم نسختها أي: قيّدتها أو خصّصتها فلم تبق الآية على إطلاقها، فإن السـلف كانوا يسمون التقييد والتخصيص نسخاً وإلا فالآية محكمة.

قال الضحاك: من عمل صالحاً من أهل الإيمان من غير تقوى عجل له ثواب عمله في الدنيا. واختاره الفراء. قال ابن القيم:«وهذا القول هو الراجح». انتهى.

وقد سُئل المصنف عن هذه الآية فأجاب بما حاصله: ذُكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم، فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله من صلاة وصدقة وإحسان ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد به ثواب الآخرة وإنما يريد به أن يحفظ الله ماله وينميه، أو حفظ أهله وعياله، ولا همّة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب، وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف وهو الذي ذكر مجاهد أن الآية نزلت فيه وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً مثل أن يحج لمال يأخذه، أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر هذا النوع أيضاً في تفسير هذه الآية.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له لكنه على عمل يُكَفِّره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا تصدقوا أو عبدوا الله أو صاموا ابتغاء وجه الله، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم. فهذا النوع قد ذكر في هذه الآية عن أنس ابن مالك وغيره. وكان السلف يخافون منها». انتهى ملخصاً.

وفيه: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة ومعرفة تفسير آية هود. قالـه المصنف -رحمه الله-.

وفي الآية أن الشرك محبط للأعمال، وأن إرادة الدنيا وزينتها بالعمل كذلك، وأن الله يجازي الكافر بحسناته في الدنيا، وكذلك طالب الدنيا، ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة، وشدة الوعيد على ذلك، والفرق بين الحبوط والبطلان. قاله في [الشرح]

قولـه: «وفي الصحيح» - أي صحيح البخاري -«عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ«تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شِيك فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يشفع». أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧).

قولـه: «تعس» بكسر العين، ويجوز الفتح، أي سقط والمراد هنا هلك، قالـه الحافظ ابن حجر، قال: وهو ضد سعد أي شقي. وقال أبو السعادات [النهاية ١/ ١٨٦]:«يُقال تعس إذا عثَر وانكَبَّ لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك».

وقولـه: «عبد الدينار» هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قولـه: «تعس عبد الدرهم» وهو من الفضة قدره الفقهاء بالشعير وهو زنة خمسين حبة شعير وخُمسا حبة.

قولـه: «تعس عبدالخميصة» قال أبو السعادات [النهاية ٢/ ٧٦]:«هي ثوب خز أو صوف مُعْلَم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعْلَمة».

وقولـه: «تعس عبد الخميلة» بفتح الخاء المعجمة. قال أبو السعادات [النهاية ٢/ ٧٦]:«الخمل والخميلة: القطيفة، وهي ثوب له خَمْل من أي شيء كان».

وقوله: «تعس وانتكس» قال الحافظ:«أي عاوده المرض». وقال أبو السعادات [النهاية ٥/ ١٠١]:«أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة؛ لأن من انتكس في أمره فقد خاب وخسر».

وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» قال أبو السعادات [النهاية ٢/ ٤٥٥]:«أي إذا شاكته شوكة فلا يقدر على انتقاشها وهو إخراجها بالمنقاش».

قال شيخ الإسلام [الفتاوى١٠/ ١٨٠-١٩٠]:«سمّاه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، وذكر فيه ما هو دعاء وخبر وهو قوله:«تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عَبَد المالَ، وقد وصف بأنه: «إن أُعطي رضي وإن منع سخط»، كما قال تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[التوبة: ٥٨].

فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً برياسة أو بصورة أو نحو ذلك من أهواء نفسه إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له إذ الرق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده.

وهذه الأمور نوعان: فمنها ما يحتاج إليه العبد كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد فهذا ينبغي له أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً لها معتمداً على غير الله فيها فلا يبقى معه حقيقة العبودية، ولا حقيقة التوكل على الله بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقولـه ﷺ:«تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة».

وهذا عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله فإن الله إذا أعطاه إياها رضي وإن منعه إياها سخط، وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسولـه، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان». انتهى ملخصاً.

وفيه: تسمية المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة، وتفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط. وقولـه:«تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش» قالـه المصنف -رحمه الله-، والمراد أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يُدعى عليه بما يسؤوه في العواقب ومن كانت هذه حاله فلابد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه. قاله في فتح المجيد.

قولـه: «طوبى لعبد» قال أبوالسعادات [النهاية ٣/ ١٢٨]:«طوبى اسم الجنة، وقيل: شجرة فيها».

وقولـه: «آخذ بعنان فرسه في سبيل الله» أي في جهاد المشركين.

قولـه: «أشعث رأسه» بنصب أشعث صفة لعبد غير مصروف للوصف، ووزن الفعل، ورأسه مرفوع فاعل، أي: شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعُّم بالادّهان وتسريح الشعر.

وقولـه: «مغبرّة قدماه» بالجر صفة ثانية لعبد. وفيه: فضل إصابة الغبار في سبيل الله. قاله في [الشرح]

وقولـه: «إن كان في الحراسة» بكسر الحاء أي حماية الجيش عن أن يهجم عليهم العدو«كان في الحراسة» أي قام بواجبها غير مقصر فيها.

قولـه: «وإن كان في الساقة» أي مؤخّر الجيش«كان في الساقة» أي صار فيها ولزمها. وقال ابن الجوزي:«المعنى أنه خامل الذكر، لا يقصد السمو، فأي موضع اتفق له كان فيه». وقال غيره:«المعنى ائتماره لما أُمر، وإقامته حيث أُقيم لا يفقد من مقامه». وفيه: فضل الحراسة في سبيل الله. قاله في [الشرح]

وقولـه: «إن استأذن لم يُؤذن لـه» أي إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يُؤذن له؛ لأنه ليس له جاه ولا منزلة عندهم.

قولـه: «وإن شَفَعَ» أي عندهم «لم يُشفَّع» بفتح الفاء مشدداً أي: لم تقبل شفاعته.

وفيه: ترك حب الرياسة والشهرة وفضل الخمول والتواضع. قالـه الحافظ ابن حجر [الفتح ٦/ ٨٣].

وفيه: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات. قالـه المصنف –رحمه الله– .

باب (٣٨) من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّم فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

قولـه: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرّم فقد اتخذهم أرباباً من دون الله»: لما كانت العبادة هي طاعة الله تعالى بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله -ج-. نبَّه المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ- بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعة، فلا يُطاع أحدٌ من الخلق إلا إذا كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله، وإلاّ فلا تجب طاعة أحد استقلالاً.

فمقصود الترجمة: بيان أَنَّ التحليل والتحريم حقٌّ لله تعالى وحده دون ما سواه؛ وبالتالي فإن من نصب نفسه محللًا أو محرمًا بلا شرعٍ من الله، فقد جعل نفسه ربًّا وشريكًا معه، ومن أطاعه في ذلك فقد جعله ربًّا وإلهًا مع الله، وهذا شرك الطاعة.

وأما **قولـه:** ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]

قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء، وهما روايتان عن أحمد.

قال ابن القيم:«والتحقيق أن الآية تعمّ الطائفتين، فإنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله، فكان العلماء مبلغين لأمر الله ورسولـه، والأمراء منفّذين له فتجب طاعتهم تبعاً لطاعة الله ورسولــه، وفي الحديث:«إنما الطــاعة في المعروف» تقدم تخريجه، وقال ﷺ:«على المرء السمع والطاعة ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» أخرجه البخاري (٢٩٥٥، ٧١٤٤)، ومسلم (١٨٣٩).

قولـه: «وقال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-:«يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبوبكر وعمر».

ذكره بهذا اللفظ شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٢٠/ ٢١٥) وغيره، ولم نقف عليه مسندًا بهذا اللفظ، إنما وجدناه بلفظ: «أراهم سيهلكون، أقول قال النبي - صلى الله عليه وسلم -، ويقولون نهى أبو بكر وعمر». أو نحوه، أخرجه الإمام أحمد (٣١٨٢) وعبد الرزاق في «المناسك الكبير» (٤٧٦) وإسحاق بن راهويه في «المسند» ـ كما في «المطالب العالية» (١٣٠٦) ـ وغيرهم من طرق. وصحَّح ابن حجر في «المطالب» إسناد «مسند إسحاق».

وانظر: الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد (ص/ ١٢٩).

قولـه: «يوشك» بضم أولـه وكسر الشين المعجمة أي يقرب ويدنو ويسرع. قاله أبو السعادات [النهاية ٥/ ١٦٥].

و**قولـه:** «أن تنزل عليكم حجارة من السماء فتلثغ رؤوسكم، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون قال أبوبكر وعمر؟ » وسبب قول ابن عباس هذا ما رواه الأثرم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: تمتّع رسول الله ﷺ فقال عروة ابن الزبير: نهى أبوبكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: إنهم سيهلكون، أقول: قال رسول لله ﷺ ويقولون قال أبوبكر وعمر. وهذا هو الشاهد من قول ابن عباس للترجمة، وأبوبكر وعمر - رضي الله عنهما - لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج ويريان أن إفراد الحج أفضل، وأن يفرد الحج بسفر والعمرة بسفر ليكثر تردد الناس إلى البيت، وابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى؛ لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: «بل للأبد». والحديث في الصحيحين. أخرجه البخاري (١٥٦١، ١٧٦٢)، ومسلم (١٢١١).

وكان شيخ الإسلام يقول: فرض على الصحابة فسخ الحج إلى العمرة لأمر الرسول ﷺ لهم به، وأما الجواز والاستحباب فللأمة إلى يوم القيامة لكن أبى ذلك ابن عباس وجعل الوجوب للأمة إلى يوم القيامة، وأن فرضاً على كل مفرد وقارن لم يسق الهدي أن يحل ولابد بل قد حلّ وإن لم يشأ. قال ابن القيم: «وأنا إلى قولـه أميل مني إلى قول شيخنا». انتهى.

وإذا كان هذا قول ابن عباس لمن عـارض قولـه الرسول ﷺ بقـول أبي بكر وعمر فماذا يقول فيمن يعارض سـنن الرسول ﷺ بقول شيخه أو إمام مذهبه، فما وافق مذهبه أو قول شيخه قبله وما خالفه ردّه أو تأوّله. وقد قال الشافعي: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد».

وحينئذ فلا عذر لمن استفتي أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام، ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له مَلَكَةٌ يقتدر بها على ذلك، وأن مَنْ بلغه الدليل فلم يأخذ به فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ، فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحدٍ من العلماء كائناً من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها من كتاب ولا سنة. فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقولـه: لا إنكار في مسائل الاجتهاد، وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والإمام أحمد وذلك مجمع عليه. قاله في فتح المجيد.

قولـه: «وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قولـه أن يقع في قلبه شيء من لازيغ فيهلك».

وكلام الإمام أحمد هذا رواه عنه الفضل ابن زياد وأبو طالب.

قوله: «عرفوا الإسناد» أي إسناد الحديث وصحته أي صحة الإسناد، وصحته دليل على صحة الحديث.

وقوله: «يذهبون إلى رأي سفيان» أي الثوري الإمام الزاهد العابد الفقيه كان له أصحاب ومذهب انقرض. وفيه: معرفة تفسير آية النور، وتمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر وتمثيل أحمد بسفيان. قاله المصنف -رحمه الله-، وهذا هو الشاهد من كلام أحمد للترجمة. وقد عمّت البلوى بهذا المنكر الذي أنكره الإمام أحمد، خصوصاً فيمن ينتسب إلى العلم والإفتاء والتدريس، وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع وقد أخطأوا في ذلك.

قوله: «لعله إذا ردّ بعض قوله» أي النبي ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، وهذا تنبيه على أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب الذي هو سبب الهلاك؛ لأن مخالفة أمر الرسول ﷺ مخالفة لأمر الـمُرسل واستخفاف بحق الآمر كما فعل إبليس لعنه الله.

قوله: «عن عدي بن حاتم» بن عبدالله بن سعد بن الحَشرج - بفتح الحاء - الطائي المشهور بالسخاء والكرم، قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة، وكان من متنصرة العرب.

«أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ فقلت له: إنا لسنا نعبدهم.

قال: «أليس يحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه، ويحلّلون ما حرّم الله فتحلّونه؟» فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم». رواه أحمد والترمذي وحسنه.

أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) وحسّنه، وأحمد (٤/ ٢٥٧، ٣٧٨) والحديث صحيح.

وهذا هو الشاهد من الحديث للترجمة. وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، لقوله في آخر الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾. قاله في فتح المجيد.

قال شيخ الإسلام: «فمما أحلّوه مما حرمه الله استحلال لحم الخنزير وإسقاط الختان، والصلاة إلى المشرق، وزيادة الصوم ونقله من زمان إلى زمان، واتخاذ الصور في الكنائس، وتعظيم الصليب، واتباع الرهبانية، قال هذه كلها خالفوا فيها شرع الله الذي بعث به الأنبياء».

وقال أيضاً: «وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف».

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم، فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمّت به البلوى قديماً وحديثاً، في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا.

وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

قاله في فتح المجيد.

وفيه: معرفة تفسير آية براءة، والتنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي، وتغير الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتُسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ثم تغيّرت الأحوال إلى أن عُبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: «وعبادة الأحبار» هي العلم والفقه المؤلَّف على مذاهب الأئمة في كل ما يقولون سواء وافق حكم الله أم لا، بل يصرحون فإنه لا يحل العمل بالكتاب والسنة ولا تلقي العلم والهدى منهما.

وقوله: «حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال» يشير إلى ما يعتقده كثير من الناس فيمن ينتسب إلى الولاية من الضر والنفع، ويسمون ذلك الولاية والسر وهو الشرك.

وقوله: «ثم تغير الأحوال» إلى أن عُبد من ليس من الصالحين كاعتقادهم فيمن ينتسب إلى الولاية من الفساق والمجاذيب.

وقوله: «وعبد» بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين كاعتقادهم العلم في أناس من جهلة المقلدين. قاله في [الشرح].

باب (٣٩) قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ۦ (٦٠)﴾ الآيات.

مناسبة الباب: هذا الباب له صلة قوية بما قبله؛ لأن ما قبله فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، وهذا فيه الإنكار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسوله.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الآيات.

قال ابن كثير [[التفسير] ٢/ ٣٠٥]:«هذه الآية ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا».

وفيه: معرفة تفسير الآية وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت. قاله المصنف.

قوله:﴿يَزْعُمُونَ﴾ يدل على أنهم كذبة، فلا يجتمع الإيمان مع إرادة الحكم والتحاكم إلى الطاغوت.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا﴾: مَنْ تحاكم إلى الطاغوت قد يكون بإرادته طائعًا مختارًا راغبًا في ذلك غير كاره له، وقد يكون بغير إرادته، بأن يكون مجبرًا لا اختيار له، كارهًا لذلك، فالأول المريد هو الذي ينتفي عنه الإيمان، والإرادة شرط؛ لأن الله جل وعلا ساقها مساق الشرط، فهذا ضابط مهم، وشرط في نفي أصل الإيمان عمن تحاكم إلى الطاغوت.

قوله: ﴿وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ﴾ أي بالطاغوت، فالكفر بالطاغوت ركن التوحيد فلا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «الطاغوت ما تجاوز به العبد حدّه من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسولـه، أو يعبدونه دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملت أحوال الناس معها رأيت أن أكثرهم ممن أعرض عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت ومتابعته». انتهى.

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠﴾:

تضمنت هذه الآية أربعة أمور: الأول: أنه من إرادة الشيطان يعني التحاكم إلى الطاغوت. الثاني: أنه ضلال. الثالث: تأكيده بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ قال ابن القيم: « هذا دليل على أن من دُعي إلى التحاكم إلى الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين.

قوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم وهو بمعنى يعرضون، لأن مصدره صدوداً

فما أكثر من اتصف بهذا الوصف خصوصاً من يدّعي العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسولـه إلى أقوال من يخطئ كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قولـه، ويجعلون قولـه المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به فصار المتبع لسنة الرسول ﷺ بين أولئك غريباً». انتهى.

وقولـه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ .

قال ابن القيم: المصيبة فضيحتهم إذ أنزل القرآن بحالهم، ولا ريب أن المصائب التي تصيبهم بما قدمت أيديهم في أبدانهم وقلوبهم وأديانهم بسبب مخالفة الرسول أعظمها مصائب القلب والدين، فيرى المعروف منكراً، والهدى ضلالاً، والرشاد غيّاً، والجود باطلاً، والصلاح فساداً، وهذا من المصيبة التي أصيب بها في قلبه.

وقولـه: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ :

أي المداراة والمصانعة وتوفيقاً بين الخصمين.

وقولـه: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾

قال ابن كثير [[التفسير] ٢/ ٣٤٧]:«أي هذا الضرب من الناس هم المنافقون، والله أعلم بما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك».

وقولـه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾:

قال ابن القيم:«أمر الله رسولـه ﷺ فيهم بثلاثة أشياء:

أحدها: الإعراض عنهم إهانة لهم وتحقيراً لشأنهم وتصغيراً لأمرهم لا إعـراض متـاركـة وإهمال، وبهذا يعلـم أنها غير منسوخة.

والثاني: قولـه: ﴿وَعِظْهُمْ﴾ وهو تخويفهم عقوبة الله وبأسه ونقمته إن أصروا على التحاكم إلى غير رسولـه وما أُنزل عليه.

والثالث: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ أي: يبلغ تأثيره إلى قلوبهم، ليس قولاً ليناً لا يتأثر به المقول لـه... فهو قول يبلغ به مراد قائله من الزجر والتخويف، وهذا القول البليغ يتضمن ثلاثة أمور:

أحدها: عظم معناه وتأثر النفوس به.

الثاني: فخامة لفظه وجزالته.

الثالث: كيفية القائل في إلقائه إلى المخاطَب، فإن القول كالسهم والقلب كالقوس الذي يدفعه وكالسيف والقلب كالساعد الذي يضرب به». انتهى.

قولـه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

قال أبو العالية في هذه الآية: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: لا تعصوا في الأرض لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله، ومناسبة الآية للترجمة أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد في الأرض. قاله في فتح المجيد.

وفيــه: معرفة تفسير آية البقــرة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾. قاله المصنف.

وقولـه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]

قــال أبوبكر بن عــيّاش في الآية: «إن الله بعث محمداً إلى أهل الأرض وهم في فساد فأصلحهم الله بمحمدٍ ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جـاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين فــي الأرض».

وقال ابن القيم [بدائع الفوائد ٣/ ١٧]: «قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسولـه، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، ومن تدبّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض

فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسولـه، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله». اهـ. ملخصاً.

ووجه مناسبة الآية للترجمة:

أن التحاكم إلى غير الله ورسولـه من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسولـه. قاله في فتح المجيد.

وفيه: معرفة تفسير آية الأعراف. قالـه المصنف -رحمه الله-.

وقولـه تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾.

قال ابن كثير [[التفسير] ٣/ ١٢٣]: «ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير والناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات... ، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسولـه، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير».

وفيه: معرفة تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ قالـه المصنف.

وقولـه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ استفهام إنكار.

أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالى، وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وفي الآية التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسولـه فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن وهو الحق إلى ضده من الباطل. قاله في الفتح.

قولـه: (عن عبدالله بن عمرو –رضي الله عنهما– أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح). ضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٤).

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي في كتاب «الحُجّة على تارك المحجَّة» (١/ ٢٣٨) رقم (٢٥)، ط. الجامعة السلفية بإسناد صحيح كما قاله النووي. قال ابن رجب: «تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه.. » فذكرها وتعقّبه بعضهم.

ومعناه صحيح قطعاً، وإن لم يصح إسناده، وأصله في القرآن كثير كقولـه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] الآية قاله في [الشرح]

قولـه: «لا يؤمن أحدكم» أي لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهلـه عليه بدخول الجنة والنجاة من النار.

قولـه: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» الهوى بالقصر ما يهواه وتحبه نفسه، فإن كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه تابعاً لما جاء به الرسول ﷺ فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحوالـه أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كمالـه الواجب، ونزل عنه في درجة الإسلام كما في حديث أبي هريرة «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..» .أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية أو الفسوق فيقال: «مؤمن عاص» أو «مؤمن بإيمانه، فاسق بمعصيته» فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به، والذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن: «الإيمان قولٌ وعملٌ ونية، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية» والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أكثر من أن تُحصى خلافاً لمن قال: «إن الإيمان هو القول»، وهم المرجئة. ومن قال: «هو التصديق» كالأشاعرة،

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق، وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة، ولله الحمد والمنّة.

انتهى ملخصاً من فتح المجيد.

وأما الخوارج الذين يكفِّرون بالذنوب فيخرجون الزاني والسارق من الإسلام ويحكمون بكفره وتخليده في النار. والمعتزلة يقولون ليس بمؤمن ولا كافر، له منزلة بين المنزلتين، ومع ذلك فهو مخلد في النار.

ومناسبة الحديث للترجمة بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم. قاله في فتح المجيد.

قوله: «وقال الشعبي» - بفتح الشين - وهو عامر بن شراحيل الكوفي، أبوعمرو، ثقة مشهور، فقيه فاضل. قال مكحول: ما رأيتُ أفقه منه، عالم أهل زمانه، أدرك خلقاً كثيراً من الصحابة، كان حافظاً علاّمة ذا فنون، كان يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء. عاش بضعاً وثمانين سنة. قاله الذهبي.

قال:«كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خُصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد - لأنه عَرَف أنه لا يأخذ الرِّشوة - وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود - لعلمه أنهم يأخذون الرِّشوة - فاتفقا على أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وهذا صحيح إلى الشعبي لكنه لم يدرك القصة.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرضَ برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله. ». ضعيف جدًا.

وذكر شيخ الإسلام أن عمر ﵁ لما قتل المنافق قال: هكذا أقضي بين من لم يرضَ بقضاء الله وقضاء رسولـه، فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

فقال جبريل: إن عمر فرّق بين الحق والباطل فسُمي فاروقاً». انتهى.

وقد رُويت هذه القصة من طرق متعـددة. قاله في [الشرح].

وفيه: معرفـة تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. وما قاله الشعبي في سبب نزولها.

وتفسير الإيمان الصادق والكاذب، وقصة عمر مع المنافق. قاله المصنف –رحمه الله–.

وفيه: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من صفات المنافقين، ولو كان الدعاء إلى تحكيم إمام فاضل ومعرفة أعداء الله ورسوله ﷺ بما كان عليه من العلم والعدل في الأحكام والغضب لله والشدة في أمر الله كما فعل عمر ﵁ وأن من طعن في أحكام النبي ﷺ أو في شيء من دينه قتل كهذا المنافق بل أولى، وفيها: جواز تغيير المنكر وإن لم يأذن فيه الإمام. قالـه في «الشرح».

وفيها: ما يبيّن أن المنافق يكون أشدّ كراهية لحكم الله ورسولـه من اليهود والنصارى، وأشدّ عداوة منهم لأهل الإيمان كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان وقتل من أظهر الكفر والنفاق. قاله في فتح المجيد.

باب (٤٠) مَنْ جحد شيئاً من الأسماء والصفات

قوله: «باب مَنْ جحد شيئاً من الأسماء والصفات» أي ما حكمه؟

و«مَنْ» اسم شرط، والجواب محذوف تقديره: فقد كفر، لما كان التوحيد الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه نوعين: أحدهما: توحيد في المعرفة والإثبات وهو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه. والثاني: توحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية، وهما متلازمان لا يصح أحدهما بدون الآخر.

نبّه المصنف -رحمه الله- بهذه الترجمة على أن من جحد شيئاً من الأسماء والصفات التي وردت في الكتاب والسنة لم يصحّ توحيده، وإن جحدها كفر.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد ظاهرة؛ ذلك لأن التوحيد لا يحصل إلا بالإيمان بالله، والإيمان بأسمائه وصفاته من الإيمان به.

قال العثيمين: والإنكار قسمان: أولهما: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين، فهو مكذب للكتاب والسنة.

وثانيهما: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:

الأول: أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا لا يُوجب الكفر، ولا يلزم أن يكون مكذبًا.

الثاني: أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية؛ فهذا تكذيب للكتاب والسنة؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبًا.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد:٣٠]. ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾.

ذكر المفسِّرون أن سبب نزول هذه الآية في صلح الحديبية لما أمر النبي ﷺ عليًّا بكتابة وثيقة الصلح، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم» قالوا: لا نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة – وكان مسيلمة قبَّحه الله قد تسمى برحمان اليمامة– فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ أي لا يقرون به.

ووجه مطابقة الآية للترجمة أن الله –عز وجل– سمى جحود اسمه الرحمن الذي هو اسم وصفة كفراً، فدلّ على أن جحود شيء من الأسماء والصفات كفر.

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ أي قل يا محمد رداً عليهم في كفرهم بالرحمن سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ﴾ أي الرحمن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: إليه مرجعي وأوبتي.

فالرحمن اسمه وصفته، فالرحمة وصفه القائم به، فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه الذي دل على كماله تعالى فجحود معناه كجحود لفظه.

وفيه: معرفة تفسير آية الرعد وإن جَحْدَ شيءٍ من الأسماء والصفات كفرٌ. قاله المصنف –رحمه الله–.

قولـه: «وفي صحيح البخـــاري عن علي ﷺ قال: حدِّثوا الناس بما يعرفون»: برقم(١٢٧) زاد آدم بن أبي إياس في كتاب العلم: ودعوا ما ينكرون. قاله ابن حجر، أي: ما يشتبه عليهم فهمه. ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدِّث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولـهم إلا كان لبعضهم فتنة. رواه مسلم.

وقولـه: «أتريدون أن يُكذّب الله ورسوله» وسبب قول عليّ هذا – والله أعلم – ما حدث في خلافته من إقبال الناس على الحديث وكثرة القُصّاص، فيأتون في قصصهم بأحاديث من هذا القبيل لا تُعرف، فربما استنكرها بعض الناس، وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح فيقع بعض المفاسد، فأرشدهم أمير المؤمنين إلى أنهم لا يحدّثون عامة الناس إلا بما هو معروف ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه من بيان حلالـه وحرامه الذي كُلّفوا به علماً وعملاً دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدِّي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب. وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه إلى البدع. والله أعلم.

قولـه: «وروى عبدالرزاق» بن همام الصنعاني، محدّث اليمن، صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن شيخه معمر بن راشـد صاحب الزهري، ومَعْمَر ـ بفتح الميمين وسكون العين – ابن راشد أبو عروة بن أبي عمرو بن راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري يروي عنه كثيراً

«عن ابن طاوس» وهو عبدالله بن طاووس اليماني، قال معمر: أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة وأبوه طاووس ابن كيسان الجَنَدي – بفتح الجيم والنون – الإمام العلم، قيل اسمه ذكوان قاله ابن الجوزي.

«عن ابن عباس» وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، دعا له النبي ﷺ وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل». أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦، ٣٣٥)، والحاكم (٣/ ٥٣٤) وصححه ووافقه الذهبي.

روى عنه أصحابه أئمة التفسير كمجاهد وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وطاووس غيرهم.

«أنه» أي: ابن عباس «رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك. فقال: ما فَرَق هؤلاء؟ » يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس يجدون رقة عند محكمه أي إذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم رقة أي خوف.

«ويهلكون عند متشابهه». أخرجه عبدالرزاق (٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٤٨٥) بسند صحيح.

قال شيخ الإسلام [الفتاوى ١٣/ ٢٩٤-٢٩٥]: «وأما إدخال أسماء الله وصفاته أو بعض ذلك في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله فما أعلم عن أحدٍ من سلف الأمة ولا من الأئمة لا أحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه، ونفى أن يُعلم معناه وجعلوا أسماء الله وصفاته من الكلام الأعجمي الذي لا يفهم معناه، ولا أن الله ينزل كلاماً لا يفهم أحدٌ معناه، وإنما قالوا كلمات الله لها معان صحيحة.

فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يفهموا معناه من الكتاب والسنة وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى فيحمله على غير معناه كما جرى لأهل البدع كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته.

وسبب هذه البدع: جهل أهلها وقصورهم في الفهم وعدم أخذ العلوم الشريعة على وجهها وتلقيها عن أهلها. فالتشابه أمرٌ نسبي إضافي، فقد يكون مشتبهاً بالنسبة إلى قوم بيناً جليّاً بالنسبة إلى آخرين.

وفيه: ترك التحديث بما لا يفهم السامع، وذكر العلة أنه: يفضي على تكذيب الله ورسولـه ولو لم يتعمد المنكر، وكلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك وأنه هلكة.

قاله المصنف –رحمه الله– .

باب (٤١) قول الله تعالى

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النحل:٨٣]

مقصود الترجمة: الحث على التأدب مع جناب الربوبية، وذلك بالاعتراف بنعم الله وشكره على ذلك، والبعد عن الألفاظ الشركية، كنسبة النعم إلى غير الله؛ فإن ذلك من الشرك بالله تعالى، ووجه كونه من الشرك: أنه نوعٌ من الكفر بنعم الله؛ بإضافتها إلى غيره، وإشراكه فيها. والكفر بنعم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيف النعم إلى غير الله لفظًا بلسانه مع اعتقاده بقلبه أنها من الله، وهذا هو المعهود في ذلك، فهذا من الشرك الأصغر.

الثاني: أن ينسب النعم إلى غير الله اعتقادًا منه بأنها من عند غيره تعالى، فهذا من الشرك الأكبر والعياذ بالله.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن من أضاف النعم إلى غير الله فقد جعله شريكًا في الربوبية؛ لأنه جعل السبب كأنه فاعل، ومن جهةٍ أخرى: فإن هذا العبد لم يقم بفريضة الشكر الذي هو عبادة من العبادات وتَرْكُ ذلك منافٍ للتوحيد، فمن الوجه الأول يتعلق الباب بالربوبية، ومن الوجه الثاني يتعلق بالألوهية.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ترجم المصنف -رحمه الله- بهذه الآية ليبيّن أن إنكار النعمة بعد معرفتها كفر كنسبة النعمة إلى غير المنعم بها وهو من الشرك المنافي لكمال التوحيد.

وقد اختلف المفسرون في المراد بالنعمة، فذكر عن سفيان عن السدي يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، قال: محمد ﷺ. ذكره ابن جرير. وإسناده صحيح إليه.

ولا شك أن بعثة محمد ﷺ أعظم نعمة أنعم الله بها على أهل الأرض.

وقال مجاهد في الآية:«النعمة هي المساكن والأنعام وسرابيل الثياب والحديد يعرفه كفار قريش ثم ينكرونه بأن يقولوا هذا كان لآبائنا وورثانه عنهم». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وهو صحيح إليه، واختار هذا القول ابن جرير.

واختار غيره أن الآية تعم ما ذكر العلماء في معناها. وهو الصواب.

قوله: «وقال عون بن عبدالله» بن عتبة بن مسعود أبوعبدالله الكوفي ثقة عابد، مات في سنة عشرين ومائة في الآية «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا» رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم. وفيه ليث بن أبي سليم ضعيف لاختلاطه.

وقال ابن القيم:«ما معناه هذا يتضمن قطع إضافة النعمة عن من لولاه لم تكن وإضفاتها إلى من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عن غيره، وغايته أن يكون جزاء من السبب أجرى الله نعمته على يده، والسبب لا يستقل بالإيجاد، وجعله سبباً هو من نعم الله عليه فهو المنعم بتلك النعمة وهو المنعم بها جعله سبباً من أسبابها، فالسبب والمسبب من إنعامه وهو سبحانه كما قد ينعم بذلك السبب، فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر، وقد يسلبه سببيته وقد يجعل لها معارضاً يقاومها، وقد يرتب على السبب ضد مقتضاه فهو وحده المنعم على الحقيقة».

قوله: «وقال - أبومحمد عبدالله بن مسلم - بن قتيبة» الحافظ، صاحب المصنفات البديعة، ومات سنة سبع وستين ومائتين أو قبلها.«يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

قال ابن القيم: «هذا يتضمن الشرك مع إضافة النعمة إلى غير وليها، فالآلهة التي تُعبد من دون الله أحقر وأذلّ من أن تشفع عند الله، وأقرب الخلق إلى الله وأحبهم إليه لا يشفع عنده إلا من بعد إذنه لمن ارتضاه، والشفاعة عنده بإذنه من نعمه فهو المنعم بالشفاعة وهو المنعم بقبولها وهو المنعم بتأهيل المشفوع لـه، إذ ليس كل أحد أهلاً أن يشفع له، فمن المنعم على الحقيقة سواه؟ ». انتهى.

قولـه: «وقال الإمام أبوالعباس» شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسـلام ابن تيمية الحراني –رَحِمَهُ اللهُ– بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه أن الله قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به، قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاّح حاذقاً ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير». انتهى.

وكلام الشيخ هذا يدل على أن حكم هذه الآية عام في كل من نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا وذلك من أنواع الشرك كما لا يخفى. قالـه في «قرة العيون».

وفيه: معرفة النعمة وإنكارها، ومعرفة أن هذا جار على ألسنة كثير، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة، واجتماع الضدين في القلب. قالـه المصنف –رَحِمَهُ اللهُ– .

قلت: والمراد بالضدين معرفة النعمة وإنكارها.

باب (٤٢) قول الله تعالى

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢].

مقصود الترجمة: تحذير الأمة من الوقوع في بعض الألفاظ المنافية للتوحيد، وهي من الشرك الأصغر، وإن لم يقصد المتكلم بها شركًا أو معنًى باطلًا. مثل قول بعضهم: «ما شاء الله وشئت»، و «لولا الله وفلان»، و «أعوذ بالله وبك»، ونحوها من الألفاظ.

وأراد المؤلف أن يوضح أَنَّ هذه الأمور يلزم أن تُنْسَب لله تعالى وحده. وإن أُضِيفَت إلى غيره: يُؤْتَى بعد ذكر الله بكلمة «ثُمَّ» لبيان المقصود الحق في ذلك.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أنه لَمَّا كان من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصد المتكلم بذلك شركًا؛ نَبَّه المؤلف - رحمه الله - بهذا الباب على ذلك، وبَيَّنَ بعض هذه الألفاظ لِتُجْتَنَب هي وما ماثلها.

وأما علاقة هذا الباب بالباب السابق فهو: أن كِلَا البابين يتعلقان بإضافة أمور إلى غير الله لا تنبغي إِلَّا له سبحانه، إما على سبيل التشريك، أو على سبيل الاستقلال، وكل ذلك من الشرك بالله تعالى أكبر كان أو أصغر.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

ينهى سبحانه وتعالى عباده أن يجعلوا له أنداداً ونظراء يشركونهم معه في عبادته وهم يعلمون أنه لا ند له. وهذه الآية عامة تشمل اتخاذ الأنداد بالشرك الأكبر، وبما دون ذلك من الشرك الأصغر؛ لأن قوله: (أندادًا) نكرة في سياق النهي فتعم جميع أنواع التنديد، والتنديد منه ما هو مخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة.

قوله: «وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله، وحياتِك يا فلان، وحياتي. وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء اللهُ وشئتَ. وقول الرجل لصاحبه: لولا اللهُ وفلان. هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم».

«مناسبة الأثر للباب وللتوحيد: دَلَّ الأثر على أن ابن عباس يرى أن من الشرك الخفي القسم بغير الله كقولك: وحياتك، وكذا تعليق نفع على فعل مخلوق كقولك: لولا الحارس لأتانا اللصوص، وكذلك تعليق نفع على فعل الله ومعه غيره كقولك: لولا الله وفلان لاحترق المنزل». وفيه: معرفة تفسير آية البقرة في الأنداد، وأن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر. قاله المصنف -رحمه الله-.

وهذا الذي ذكره ابن عباس كله من الشرك الأصغر، وهو الجاري على ألسنة كثير من الناس ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك، وهو من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه؛ لكونه أكبر من الكبائر، وهذا من ابن عباس تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى. قاله في فتح المجيد، وهذا هو الشاهد من كلام ابن عباس للترجمة.

قوله: «وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه» قال في «الشرح» صوابه ابن عمر.

كذا أخرجه أحمد وأبوداود والترمذي والحاكم وصححه ابن حبان.

«أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك».

أخرجه أحمد (٢/ ٣٤، ٨٦)، وأبوداود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، وابن حبان (١١٧٧)، وصححه الألباني في [الصحيحة] (٢٠٤٢).

يحتمل أن يكون شكاً من الراوي، ويحتمل أن تكون، أو بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر كما هو من الشرك الأصغر.

ومناسبة الحديث للباب: أن من حلف بغير الله فقد اتخذ المحلوف به ندًّا لله.

قولـه: «وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحبّ إلي من أن أحلف بغيره صادقاً» وهذا لأن الحلف بالله كاذباً من الكبائر، والحلف بغير الله شرك أصغر وهو أكبر من الكبائر، وكلام ابن مسعود هذا رواه الطبراني(٨٩٠٢) وغيره.

وقال شيخ الإسلام:«وإنما رجّح ابن مسعود الحلف بالله كاذباً على الحلف بغيره صادقاً؛ لأن الحلف بالله توحيد، والحلف بغيره شرك، وإن قدر الصدق في الحلف بغير الله فحسنة التوحيد أعظم من حسنة الصدق، وسيئة الكذب أسهل من سيئة الشرك». وفيه: أن الحلف بغير الله شرك، وأنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس. قالـه المصنف -رحمه الله- .

قولـه: «وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبوداود بسند صحيح».

أخرجه أبوداود (٤٩٨٠)، وأحمد (٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨). وهو صحيح بشواهده.

وهذا لأن العطف بالواو يقتضي المساواة لأنها في وضعها لمطلق الجمع بخلاف الفاء، وثم، وتسوية المخلوق بالخالق شرك إن كان في الأصغر- مثل هذا - فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر .

قولـه: «وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: أعوذ بالله ثم بك، قال: ويقول لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا لولا الله وفلان»

وكلام إبراهيم هذا الذي ذكره المصنف رواه عبدالرزاق وابن أبي الدنيا في كتاب«الصمت» عن مغيرة قال: كان إبراهيم يكره أن يقول الرجل.. إلخ.

لأن الواو لمطلق الجمع بخلاف ثم فإنها تقتضي الترتيب.

وفيه: معرفة الفرق بين الواو وثم في اللفظ. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٤٣) ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

قولـه: «باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله» أي من الوعيد؛ لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية، إذ القلب الممتلئ بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك. قاله في [الشرح]. فمقصود الترجمة: التحذير من عدم تصديق الحالف بالله الذي عُلِمَ منه بالتجربة أنه صادق ، ولم يعرف عنه كذب.

قولـه: «عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرضَ فليس من الله»».

رواه ابن ماجه (٢١٣١) بسند حسن. وصححه الألباني في الإرواء (٢٦٩٨).

قولـه: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموماً.

وقولـه: «من حلف بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده وحضّهم عليه في كتابه، قال الله : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

قولـه: «ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرضَ فليس من الله»:

قال ابن كثير: «أي فقد برئ من الله. وهذا عام في الدعاوى وغيرها».

قال في فتح المجيد: «أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفَه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا. وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم أن يقبل منه إذا حلف معتذراً أو متبرئاً من تهمة. ومن حقه عليه: أن يحسن الظن به إذا لم يتبيّن خلافه.

وفيه: النهي عن الحلف بالآباء، والأمر للمحلوف له بالله أن يرضى، ووعيد من لم يرضَ. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٤٤) قول: ما شاء الله وشئتَ

قولـه: «باب قول: ما شاء الله وشئتَ»: أي ما حكم التلفظ بذلك.

وحكمه: أنه تشريك في اللفظ؛ لأنه عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الخالق ﷻ بحرف العطف المقتضي التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه. فإن اعتقد أن المعطوف مساو لله؛ فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه دونه لكن أشرك به في اللفظ؛ فهو أصغر. فمقصود الترجمة بيان حكم قول: «ما شاء الله وشئت»، وأنه من الشرك الأصغر المنافي للتوحيد، وأنَّه من اتخاذ الند مع الله تعالى.

وهذه الترجمة داخلةٌ في الترجمة السابقة: «فلا تجعلوا لله اندادًا»، ولكن أفردها المصنف هنا ببابٍ خاصٍّ؛ لأهميتها، وعموم البلوى بها، وجهل كثير من الناس بخطورتها. مع أن النصوص جاءت بالتحذير منها لفظًا لا معنًى، وهذا من أوضح الأدلة على المنع من ذلك. فإذا عُلِمَ دخول هذه الترجمة في الباب السابق: «فلا تجعلوا لله أندادًا ... الخ الآية» عُلِمَ مناسبة الباب لكتاب التوحيد، ومن ثَمَّ مناسبته للباب السابق أو الأبواب السابقة، إذ التشريك بين الله وبين خلقه في المشيئة من الشرك الأكبر أو الأصغر المنافي لكمال التوحيد الواجب.

قولـه: «عن قُتيلة» بضم القاف وفتح التاء بعدها مثناة تحتية مصغرة، بنت صيفي الجهنية أو الأنصارية، صحابية مهاجرة لها حديث في سنن النسائي واليوم والليلة، وهو هذا الذي ذكره المصنف، وأشار ابن سعد إلى أنه ليس لها غير هذا الحديث «أن يهودياً أتى إلى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء اللهُ وشئتَ،

وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: وربّ الكعبة، وأن يقولوا ما شاء الله ثم شئتَ. رواه النسائي وصححه».

أخرجه النسائي (٣٧٧٣)،وأحمد (٦/ ٣٧١-)، وصححه الألباني في [الصحيحة] (١٣٦).

وهذا نص في أن هذا اللفظ من الشرك لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على تسمية هذا اللفظ شركاً، ونهى النبي ﷺ عن ذلك وأرشد إلى اللفظ الذي لا محذور فيه، وهو قول«ما شاء الله ثم شئت» وإن كان الأولى قول«ما شاء الله وحده»، والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨] الآية وغيرهما.

وفي الحديث والآيات الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه، وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله في كل شيء مما شرعه الله وما يخالفه من أفعال العباد وأقوالهم، فالكل بمشيئة الله وإرادته، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد كما قال تعالى:

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ الآية [الزمر: ٧].

وفيه: أن الحلف بالكعبة شرك لأن النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: إنكم تشركون.

وفيه: فهم الإنسان إذا كان له هوى. قاله المصنف -رحمه الله-.

وفيه: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. قال في«الشرح»: وكثير ممن يدّعي الإسلام لا يعرف الشرك الأكبر، بل يصرف خالص العبادات من: الدعاء، والذبح، والنذر لغير الله، ويظن أن ذلك من الدين. وفيه: قبول الحق ممن جاء به وإن كان عدواً مخالفاً في الدين، وأن الحلف بالكعبة من الشرك الأصغر.

قولـه: «وله عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئتَ. فقال: أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده».

أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٨٨)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٣٤٧)، وابن ماجه (٢١١٧). وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٣٩).

قال ابن القيم -رحمه الله- «ومن الشرك في الألفاظ قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت كما ثبت عن النبي ﷺ أن رجلاً قال له: ما شاء الله وشئت. فقال:«أجعلتني لله نداً؟» هذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: ٢٨] فكيف بمن يقول: أنا متوكل على الله وعليك، وأنا في حسب الله وحسبك، وما لي إلا الله وأنت، وهذا من الله ومنك، وهذا من بركات الله وبركاتك، والله لي في السماء وأنت لي في الأرض، فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل: ما شاء الله وشئت. ثم انظر أيهما أفحش؟

قولـه: «عن الطفيل أخي عائشة لأمها» وهو الطفيل بن عبدالله بن سخبرة صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب، قال البغوي لا أعلم له غيره «قال: رأيتُ» أي فيما يرى النائم «كأني أتيتُ» أي مررتُ «على نفر من اليهود فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله».أي: نعم القوم أنتم لولا ما أنت عليه من الشرك والمسبّة لله بنسبة الولد إليه «قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد» عارضوه بذكر شيء مما في المسلمين من الشرك الأصغر.

«ثم مررتُ بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله. قالوا: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، قال فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، فحمد الله وأثنى عليه» والثناء: هو تكرار المحامد. قاله ابن القيم -رحمه الله-.

«ثم قال: أما بعد فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها». أخرجه ابن ماجه (٢١١٨) بنحوه، وأحمد (٥/ ٣٩٣). وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٢٠٠).

وفي رواية أحمد والطبراني«كان يمنعني الحياء منكم أن أنهاكم عنها».

وهذا الحياء منهم ليس على سبيل الحياء من الإنكار عليهم، بل كان ﷺ يكرهها ويستحي أن يذكرها؛ لأنه لم يُؤمر بإنكارها، فلما جاء الأمر الإلهي بالرؤيا الصالحة أنكرها، ولم يستحِ في ذلك. وفيه: دليل على أنها من الشرك الأصغر، إذ لو كانت من الأكبر لأنكرها من أول مرة قالوها. قاله في [الشرح].

وهذه رؤيا حق أقرها النبي ﷺ وعمل بمقتضاها، فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

قال في فتح المجيد:«وإن كانت رؤيا منام فهي وحي، يثبت بها ما يثبت بالوحي أمراً ونهياً. والله أعلم». وفيه: معنى قوله ﷺ:«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» أخرجه البخاري (٦٩٨٨) ومسلم (٢٢٦٣)من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ومن حديث عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- البخاري(٦٩٨٧) ومسلم(٢٢٦٥). وانفرد به البخاري(٦٩٨٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

باب (٤٥) من سب الدهر فقد آذى الله

قولـه: «باب من سب الدهر فقد آذى الله ﷻ»:

مقصود الترجمة: تقرير أَنَّ الذي يسب الدهر واقعٌ في أذى الله تعالى، والأذى الذي يقصده المصنف هنا يحتمل معنيين:

الأول: أَنَّ الذي يسب الدهر هو في الحقيقة سابٌّ لله تعالى؛ لأن فاعل هذه الأمور ومقدرها هو الله وحده؛ فرجع السب إلى الله تعالى.

والثاني: أَنَّ الساب للدهر إِنْ سَبَّهُ باعتبار أنه فاعل مع الله تعالى، فهذا شركٌ بالله تعالى. ومن هنا تظهر مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد؛ لأن الساب بالمعنى الأول الذي ذكرناه هو سابٌّ لله تعالى، وسب الله مناقضٌ للتوحيد، ومنافٍ له بكل الوجوه، وإن كان السب للدهر بالمعنى الثاني فهو شركٌ واضحٌ في ربوبية الله تعالى مناقضٌ للتوحيد.

ولفظ «الأذى» في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشرك والمكروه. ذكره الخطابي. قال شيخ الإسلام: «وهو كما قال، وهذا بخلاف الضرر، فقد أخبر سبحانه أن العباد لا يضرونه كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، فبيَّن أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه إذا سَبُّوا مقلب الأمور». قاله في [الشرح].

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ﴾ الآية

قال ابن كثير [[التفسير] ٧/ ٢٦٨]: «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾».

قال ابن جرير: «أي ما حياة إلا حياتنا التي نحن فيها، لا حياة سواها تكذيباً منهم للبعث بعد الموت، نموت ونحيا».

قال ابن كثير [[التفسير] ٧/ ٢٦٩]: «أي يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثَـمَّ معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد..».

قال ابن جرير: «أي ما يهلكنا إلا مر الليالي والأيام وطول العمر إنكاراً منهم أن يكون لهم رب يفنيهم ويهلكهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي يتوهمون ويتخيلون. فإن قلت: أين مطابقة الآية للترجمة إذا كانت خبراً عن الدهرية المشركين؟ قلت: المطابقة ظاهرة لأن من سب الدهر فقد شاركهم في سبِّه وإن لم يشاركهم في الاعتقاد. قاله في [الشرح].

الإخبار عن الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللوم، فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده.

الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبه الدهر أن الدهر هو الذي يقلب الأمور إلى الخير والشر، فهذا شرك أكبر؛ لأنه اعتقد أن مع الله خالقًا.

الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده، فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السفه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبه تعود إلى الله سبحانه.

قوله:«في الصحيح» أي صحيح البخاري «عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، أقلّب الليل والنهار».

أخرجه البخاري (٤٨٢٦)، (٦١٨١)، (٧٤٩١). وأخرجه أحمد بهذا اللفظ، وأخرجه مسلم (٢٢٤٦) بلفظ آخر.

قال في «شرح السنة» [١٢/ ٣٥٧]: «ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبُّوا فاعلها، فكان مرجع سبِّهم إلى الله -عَزَّوَجَلَّ-، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها فنهوا عن سب الدهر». انتهى ملخصاً.

وقوله:«أقلّب الليل والنهار» تقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه. وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف وهي قوله: بيدي الأمر.

قوله:«وفي رواية: لا تسبُّوا الدهر فإن الله هو الدهر»: هذه الرواية ذكرها مسلم وغيره. قال الشافعي وأبوعبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»: كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنما سبوا الله سبحانه لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لا أن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال وهذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد. والله أعلم.

وقد تبيَّن بهذا خطأ ابن حزم في عدِّه الدهر من أسماء الله الحسنى، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ صادقين. قاله في [الشرح].

قال ابن القيم -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «وفي مسبّة الدهر ثلاث مفاسد عظيمة:

أحدها: مسبة من ليس أهلاً للسبّ، فإن الدهر خلق مسخر من خلق الله منقاد لأمره متذلل لتسخيره فسابه أولى بالسب والذم منه.

والثانية: أن سبَّه متضمن للشرك فإنما سبّه لظنه أنه يضر وينفع وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وأعطى من لا يستحق العطاء وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأشعار هؤلاء الظلمة الخونة في سبِّه كثيرة جداً، وكثير من الجهَّال يصرِّح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السبَّ منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال التي لو اتبع الحق أهواءهم فيها لفسدت السموات والأرض، فإذا وافقت أهواءهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه، وفي حقيقة الأمر فرب الدهر هو المعطي المانع الخافض الرافع المعز المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء فمسبّتهم مسبة لله -عز وجل-؛ ولهذا كانت مؤذية لله تعالى، فساب الدهر دائر بين أمرين لابد له من أحدهما: إما مسبة الله، أو الشرك به، فإنه إن اعتقد أن الدهر فاعل مع الله فهو مشرك، وإن اعتقد أن الله وحده هو الذي يفعل ذلك وهو يسبّ من فعله فهو سب لله تعالى». انتهى.

وليس من مسبة الدهر وصف السنين بالشدة، لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الآية [يوسف: ٤٨].

وفيه: النَّهيُ عن سبِّ الدهر، وتسميتُه أذىً لله، والتأمل في قوله «فإن الله هو الدهر»، وأنه قد يكون سابًّا وإن لم يقصده بقلبه. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب(٤٦) التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قولـه: «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»

مقصود الترجمة: بيان حكم التسمي بقاضي القضاة ونحوه، كملك الأملاك، أو ملك الملوك. وأن ذلك من شرك الألفاظ؛ ولذلك فهو محرَّمٌ أشد التحريم، وهذه التسمية شركٌ من جانبين:

أولًا: من جانب الربوبية: لأنه شَرَّك غيرَ الله معه في ملكه وسلطانه وأمره.

وثانيًا: هو شركٌ في الأسماء والصفات؛ لأنه إلحادٌ في أسماء الله وصفاته تعالى.

وعلاقة هذا الباب بالذي قبله: أن الباب الذي قبله فيه النهي عن مسبة الدهر؛ لأن ذلك يؤذي الله سبحانه وتعالى. وهذا الباب في النهي عن التسمي بالأسماء الضخمة التي فيها العظمة التي لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى؛ لأن هذا يغيظ الله سبحانه وتعالى، وكلا الأمرين محرم شديد التحريم.

وما حكم تقييد قاضي القضاة بشي معين مثل: قاضي قضاة مصر؟

الجواب: أن هذا جائز، لأنه مقيد.

فإذا قيد بزمان أو مكان ونحوهما، فهو جائز، وتركه أفضل، وما الحكم لو قيد بفن من الفنون، هل يكون جائزًا؟ مقتضى التقييد أن يكون جائزًا كـ(عالم العلماء في الفقه).

وكذا إذا قيد بقبيلة مثل عالم بني تميم، فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف بأن لا يغتر ويعجب بنفسه.

وذكر المصنف -رحمه الله- هذه الترجمة: إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة، قياساً على ما في حديث الباب؛ لكونه شبهة في المعنى فينهى عنه.

قاله في «فتح المجيد».

قولـه:«في الصحيح» أي الصحيحين. البخاري (٦٢٠٩) و(٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله». لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى فهو ملك الأملاك لا مَلِكَ أعظم منه ولا أكبر منه مالك الملك ذو الجلال والإكرام، وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير وهو الله تعالى.

قولـه:«إن أخنع اسم» ذكر المصنف أن معناه أوضع، وهذا التفسير رواه مسلم عن الإمام أحمد عن أبي عمرو الشيباني، قال عياض: معناه أنه أشد الأسماء صغاراً. وبنحو ذلك فسر أبوعبيد، والخانع: الذليل. وخنع الرجل: ذلَّ قاله في [الشرح].

وقولـه:«تسمى» بفتح التاء الفوقية والسين المهملة، أي سمّى نفسه، وقيل بضم الياء التحتية أي يُدعى بذلك ويرضى به.

وقولـه:«لا مالك إلا الله» أي هو الذي يستحق هذا الاسم، ومن تسمّى به فقد كذب وافترى وادّعى ما ليس له فلذا صار أذلّ الناس عند الله يوم القيامة.

قال ابن القيم –رحمه الله– : «المالك المتصرف بفعلـه، والملِك المتصرف بفعله وأمره».

وقولـه:«قال سفيان – هو ابن عيينة – مثل شاهنشاه» قال ابن القيم: «ملك الملوك وسلطان السلاطين»، ومراد سفيان أن الحديث متناول لمثل هذا بأي لسان فلا ينحصر في لفظه بعينه بل ما أدى هذا المعنى فهو داخل في الحديث، هذا معنى كلام الحافظ ابن حجر. قاله في «إبطال التنديد».

قولـه:«وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه» هذه الرواية ذكرها مسلم في صحيحه (٢١٤٣). قاله في [الشرح].

قوله:«أغيظ» من الغيظ وهو مثل الغضب، فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه. والله أعلم. وهذا من الصفات التي تُمرُّ كما جاءت، ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى. قاله في «فتح المجيد».

قوله:«وأخبثه» وهو يدل على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم عنده، وهذا المذكور ينافي كمال التوحيد الذي دلّت عليه كلمة الإخلاص، فيكون فيه شائبة من الشرك، وإن لم يكن أكبر. قاله في «قرة العيون».

قوله:«أخنع» يعني: أوضع. وفيه: النهي عن التسمِّي بِمَلِكِ الأملاك، وأن ما في معناه مثله كما قال سفيان، والتفطن للتغليظ في هذا ونحوه مع القطع أن القلب لم يقصد معناه، والتفطن في أن هذا لأجل الله سبحانه. قاله المصنف –رحمه الله– .

قال ابن حجر في فتح الباري(١٠/ ٥٩٠): «ومن النوادر أن القاضي عز الدين بن جماعة – وكان يقال له: قاضي القضاة – قال: إنه رأى أباه في المنام فسأله عن حاله فقال: ما كان علي أضر من هذا الاسم، فأمر الموقعين أن لا يكتبوا له في السجلات قاضي القضاة بل قاضي المسلمين».

باب (٤٧) احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

مقصود الترجمة: تأكيد وجوب احترام أسماء الله تعالى وتعظيمها، والحذر من امتهانها أو احتقارها، أو تسمية غير الله بها، ولزوم تغيير الاسم لأجل احترام أسماء الله تعالى.

وعلاقة هذا الباب بالذي قبله: أن كلا البابين يتعلقان بالنهي عن تسمية أحد باسم فيه نوع مشاركة لله تعالى في أسمائه وصفاته كقاضي القضاة، وملك الملوك وحاكم الحكام، وأبي الحكم. «فتسمية (ملك الأملاك) مشابهة لتكنيه (أبي الحكم) من جهة أن في كل منهما اشتراكًا في التسمية، لكن فيها اختلاف من جهة أن (أبا الحكم) راجع إلى شيء يفعله هو، وهو أنه يحكم فيرضون بحكمه وذاك (ملك الأملاك) ادعاء ليس له شيء؛ ولهذا كان أخنع اسم عند الله جل جلاله». وعليه فإن «الفرق بين هذا الباب والذي قبله: أن الذي قبله من باب المنازعة ومن باب مشاركة الرب جل وعلا فيما هو خاص به، وهذا أمره عظيم جدًّا. ما هذا فليس من باب المنازعة؛ لأنه قد يكون غير مقصود، وقد يكون لأمر يفعله الفاعل فيسمى باسم مأخوذ من الفعل كما في هذا الحديث، وقد يكون أيضًا عن قصد حسن، ولكنه ما فهم معنى هذا التكني أو هذا التسمي، فيكون غير آثم حتى يطلع على الحكم، فإذا اطلع على ذلك وجب عليه أن يغير الاسم، تعظيمًا لله جل وعلا واحترامًا لأسمائه، فيكون هذا الباب في الخطورة أقل من الباب الذي قبله.

وأما مناسبة الباب لكتاب التوحيد فظاهرة: إذ إن احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم من أجل ذلك من تمام تحقيق التوحيد.

قولـه:«باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك».

قولـه: «عن أبي شُرَيح» بضم المعجمة وفتح الراء وآخره مهملة مصغر. قاله في [الشرح]. واسمه: هانئ بن يزيد الكندي. قالـه الحافظ ابن حجر، وقيل: الحارث الضبابي. قاله المزي. وقيل: خويلد بن عمرو الخزاعي. قاله في «الخلاصة» وجزم به في «قرة عيون الموحدين»، وذكر أنه أسلم عام الفتح، له عشرون حديثاً اتفقاً على حديثين، وانفرد البخاري بحديث وعنه أبوسعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة، قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين، وقيل غير ذلك، والصحيح الأول.

وقد جاء مصرّحاً باسمه في رواية أبي داود من طريق يزيد بن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده عن أبيه هانئ وهو أبوشريح «أنه لما وفد على رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم فدعاه رسول الله ﷺ فقال: «إن الله هو الحَكَم».

أخرجه أبوداود (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٧)، وصححه الألباني.

قال البغوي: «والحَكَم: هو الحاكم الذي إذا حكم لا يرد حكمه، وهذه الصفة لا تليق بغيره سبحانه. قاله في «شرح السنة».

قولـه:«وإليه الحكم» أي الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة، فالحكم في الدنيا بين خلقه بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله وما من قضية إلا ولله فيها حكم، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

قولـه:«فلِمَ تُكنى أبا الحكم؟» والكنية ما صُدِّر بأب أو أم، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم، قال بعضهم: الكنية قد تكون بالأوصاف كأبي الفضائل، وأبي المعالي، وأبي الخير وأبي الحكم، وقد تكون بالنسبة إلى الأولاد كأبي سلمة، وأبي شريح، وإلى ما يلابسه كأبي هريرة، وقد تكون للعَلَمية الصرفة كأبي بكر. ذكره في «الشرح».

قولـه:«قال: إني قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمتُ بينهم فرضي كلا الفريقين». فقال النبي ﷺ: «ما أحسن هذا». الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي - ﷺ- غيَّره.

والمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح كان مرضياً عندهم يتحرَّى ما يصلحهم إذا اختلفوا فيرضون حكمه، وهذا هو الصلح لأن مداره على الرضى لا على الإلزام فكنَّوه أبا الحكم. فأما ما يحكم به الجهلاء من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٤﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه. قالـه في «قرة العيون».

قولـه:«فما لك من الولد؟ » قال: شريح ومسلم وعبدالله. قال: «فمن أكبرهم؟ » قلت: شريح. قال: «فأنت أبوشريح» رواه أبوداود وغيره».

قال في «قرة العيون»: «ومنه: تسمية الأئمة بالحكام فينبغي ترك ذلك والنهي عنه».

وفيما قاله نظر لقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨] .

فسمَّاهم حُكَّاماً فدل على جواز ذلك.

باب (٤٨) من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قولـه:«باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول» أي فقد كفر بذلك لاستخفافه بجناب الربوبية وذلك مناف للتوحيد، ولهذا أجمع العلماء على كفر من فعل شيئاً من ذلك، فمن استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله أو بدينه كفر ولو هازلاً لم يقصد حقيقة الاستهزاء إجماعاً. فمقصود الترجمة: بيان حكم من استهزأ بشيءٍ فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ.

قال شيخ الإسلام: إن سب الله أو سب رسوله كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم أو كان مستحلًا له أو كان ذاهلًا عن اعتقاده.

قولـه:«وقول الله تعـالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾[التوبة:٦٥]: يقـول تعـالى مخاطبـاً لرسـوله محمد ﷺ:﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾أي: المنافقين الذين تكلمـوا بكلمـة الكفـر اسـتهزاء ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي: يعتذرون بـأنهم لم يقصـدوا الاسـتهزاء والتكذيب إنما قصدنا الخوض في الحديث واللعب.

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾

هذه الآية نص في أن المستهزئ بالله، وبالرسول، وبآيات الله جل وعلا –والمقصود بها آيات الله جل وعلا الشرعية، يعني: القرآن– أن هذا المستهزئ كافر، وأنه لا ينفعه اعتذاره بأنه كان في هزل ولعب، بل هو كافر؛ لأن تعظيم الله جل وعلا وتوحيده يوجب عليه أن لا يستهزئ.

قوله:«عن ابن عمر ومحمد بن كعب القرظي وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضُهم في بعض - أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرَّائنا هؤلاء، أرغَبَ بُطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبنَ عند اللقاء- يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القُرّاء -، فقال له عوف بن مالك: كذبتَ، ولكنّك منافق، لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ. فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ - وقد ارتحل وركِبَ ناقته - فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوضُ ونلعب ونتحدَّثُ حديثَ الركبِ نقطَعُ به عناء الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعَة ناقةِ رسول الله ﷺ، وإن الحجارة لتنكبُ رجليه،وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول رسول الله ﷺ:

﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟. ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه».

أخرجه ابن أبي حاتم وابن جرير (١٠/ ١١٩). انظر الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل الوادعي (ص/ ١٢٢-١٢٣).

قوله:«أنه قال رجل» لم أقف على تسمية القائل أبهم اسمه في جميع الروايات التي وقفت عليها إلا أن في بعض الروايات أنه عبدالله بن أبيّ، لكن ردّه ابن القيّم بأن ابن أُبيّ تخلَّف عن غزوة تبوك.

قوله: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء» القرّاء جمع قارئ، وهم عند السلف: الذين يقرؤون القرآن، ويعرفون معانيه، فأما قراءته من غير فهم لمعناه فلا يوجد في ذلك العصر، وإنما حدث بعد ذلك. قاله في [الشرح].

قوله:«أرغب بطوناً» أي أوسع بطوناً، يصفونهم بسعة البطون، وكثرة الأكل «ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء» يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القرّاء، وقد كذب؛ فإن الصحابة هم أحسن الناس اقتصاداً في الأكل وغيره.

بل المنافقون والكفّار أوسع بطوناً وأكثر أكلاً كما صحت بذلك الأحاديث «إن المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء».أخرجه البخاري (٥٣٩٧)، (٥٣٩٤)، ومسلم (٢٠٦٠).

وكذلك المنافقون، وهم أشدّ الناس جبناً وأكذب خلق الله كما وصفهم بذلك في كتابه، وهذا القول الصريح في الاستهزاء. وأما الفعل الصريح فمثل مدّ الشفة، وإخراج اللسان، ورمز العين. قاله في «إبطال التنديد»؛ ولهذا قال له عوف: كذبتَ، ولكنّك منافق. وفيه: المبادرة في الإنكار والشدّة على المنافقين، وجواز وصف الرجل بالنفاق إذا قال أو فعل ما يدل عليه. قاله في [الشرح].

قوله:«لأخبرنّ رسول الله ﷺ» فيه المسألة العظيمة: أن من هزل بهذا فهو كافر، وأن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان، والفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله. قال المصنف -رحمه الله-: «فينبغي معرفة الفرق بين الغيبة والنميمة وبين النصيحة لله ورسوله، فذكر أفعال المنافقين والفساق لولاة الأمور ليزجروهم ويقيموا عليهم أحكام الشريعة ليس من الغيبة والنميمة». انتهى.

قوله: «فوجد القرآنَ قد سبقه» أي جاء الوحي من الله بما قالوه. وفيه: دلالة على علم الله وقدرته وإلهيته، وأن محمداً عبده ورسوله.

قوله: «فجاء ذلك الرجل» قال ابن إسحاق: «وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟

والله لكأنا بكم غداً مقرّنين في الحبال. إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مخشي بن حمير: والله لوددتُ أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة وأنَّا ننقلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه.

وقال رسول الله ﷺ فيما بلغني لعمار بن ياسر: أدرك القوم فقد احترقوا، فسَلْهُم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا. فانطلق إليهم عمار فقال لهم ذلك فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فجعل وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته وهو آخذ بحقبها يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي يتمناه أي بقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ [التوبة: ٦٦].

في هذه الآية مخشي بن حمير فسُمي عبدالرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه، فقُتل يوم اليمامة فلم يُوجد له أثر». انتهى.

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي بهذه المقالة.

وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة، وفيه الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغفلة على أعداء الله، وأن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل. قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي مخشي بن حمير. ويحتمل أعم.

﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أي لا يعفى عن جميعكم، ولابد من عذاب بعضكم.

وفي الآية: دليل على أن الرجل إذا فعل الكفر ولم يعلم أنه كفر لا يعذر بذلك بل يكفر، وعلى أنَّ السابَّ كافر بطريق الأولى. نبَّه عليه شيخ الإسلام.

وفيه: أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به، وأشدّها خطراً إرادات القلوب فهي البحر الذي لا ساحل له.

باب (٤٩) ما جاء في قول الله تعالى

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾

قال السعدي: «مقصود الترجمة: أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكده وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد؛ لأن المؤمن حقا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعُجْب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب».

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه؛ ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله، لكنه زعم أنه مستحق لذلك، وأن ما أعطاه الله ليس محض تفضل، لكن لأنه أهل؛ ففيه نوع من التَّعلِّي والترفع في جانب العبودية.

قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به، وقال ابن عباس: يريد من عندي.

وقوله: « ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾:

قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب.

وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل. وهذا معنى قول مجاهد: أُوتيته على شرف». وليس فيها ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى. قاله في [الشرح].

قال ابن كثير –رحمه الله– [التفسير ٧/ ٢٩٦] في معنى الآية: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾. يخبر تعالى أن الإنسان في حال الضرِّ يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوَّله نعمةً منه طغى وبغى.

وقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لَما يعلم الله من استحقاقي له ولولا أني عند الله حظيظ لما خولّني هذا، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبار.

وفيه: معرفة تفسير الآية، وما معنى قوله: أوتيته على علم عندي. قاله المصنف.

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قد قذِرَني الناس به» بكسر الذال المعجمة أي: كرهني «فمسحه، فذهب عنه قذره، وأُعطي جلداً حسناً، ولوناً حسناً. قال: فأي المال أحبّ إليك؟ قال: الإبل والبقر – شك إسحاق –» أي ابن عبدالله بن أبي طلحة راوي الحديث فأُعطي ناقة عُشَراء» بعين مهملة مضمومة وشين معجمة مفتوحة وبالمد غير منصرف، قال في «تيسير الوصول»: هي الحامل، وقيل: هي التي أتى على حملها عشرة أشهر. «وقال» أي: المَلَك «بارك الله لك فيها. قال فأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك قال: شعر حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه قذره وأُعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأُعطي بقرة حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر به الناس، فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم فأعطي شاة والداً» أي ذات ولد، قال في «التيسير»: الشاة الوالد التي عرف منها كثرة الولد والنتاج «فأنتج هذان» بفتح الهمزة والتاء المثناة فوق أي: صاحب الناقة والبقرة، «ووُلِّد» بتشديد اللام «هذا أي» صاحب الشاة، قال في «تيسير الوصول»: ومعناه اعتنى بها عند الولادة أي: حفظها وقام بمصالحها، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم «ثم إنه» أي المَلَك «أتى الأبرص في صورته وهيئته».

قال ابن القيم في كتاب «الأعلام»: «وهذا ليس بتعريض، وإنما هو تصريح على وجه ضرب المثال وإيهام أني أنا صاحب هذه القصة كما أوهم الملكان داود أنهما صاحبا القصة «فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال» بالحاء المهملة بعدها باء موحدة، أي: الأسباب التي يقطعها في طلب الرزق، ولبعض رواة مسلم: الحيال. بياء تحتية جميع حيلة «في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ به في سفري» من البُلْغة وهي الكفاية: أي أتوصل به إلى مرادي «فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك! ألم تكن أبرصَ يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله -ﷻ- المال. فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابراً. فقال: إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت» أي ردّك الله إلى ما كنت عليه سابقاً من البرص والفقر «قال: فأتى الأقرع في صورته. فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه» أي الأقرع «مثل ما رد عليه» هذا الأبرص «فقال: إن كنت كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت» أي ردّك الله عليك ما كنت عليه سابقاً من القرع والفقر.

«قال: وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فردّ الله إليّ بصري، فخذْ ما شئتَ ودعْ ما شئتَ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله -عَجَلّ-».

هكذا لبعض رواه مسلم، أي لا أشق عليك في الأخذ والامتنان.

ورواية البخاري: «لا أحمدك» بالحاء المهملة والميم: أي على طلب شيء أو أخذ شيء مما تحتاج إليه من مالي، كما قيل: ليس على طول الحياة ندم، أي على فوت طول الحياة «فقال» المَلَك: «أمسكْ عليك مالك، فإنما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك». أخرجاه. أي البخاري (٣٤٦٤) ومسلم(٢٩٦٤).

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر، فإن الأوَلَين جحدا نعمة الله فما أقرَّا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أدَّيَا حقَّ الله فيها؛ فحَلَّ عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله ونسبها إلى المنعم عليه بها وأدَّى حق الله فيها؛ فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لَّما أتى بأركان الشكر وهي: الإقرار بالنعمة، ونسبتها إلى المنعم بها، وبذلها فيما يحب.

قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللهُ- [المدارج ٢/ ٢٤٢]:«أصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضاً، ومن عَرَف النعمة والمنعم بها لكن جحدها لم يشكرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع للمنعم بها ولم يرضَ به وعنه، لم يشكرها أيضاً.

ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي عنه واستعملها في محابه فهذا هو الشاكر لها، فلابد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له». انتهى.

وفيه: معرفة ما هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة. **قالـه المصنف** –رحمه الله–.

باب (٥٠) قول الله تعالى

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

مقصود المصنف من الترجمة يظهر من وجهين:

الوجه الأول: أن من أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وأن لا يُعَبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

الوجه الثاني: بيان تحريم التعبيد لغير الله، وأنه لا يجوز أن يُعبَّد أحد لغير الله، فلا يقال: عبد النبي أو عبد الكعبة أو عبد الحسين وما أشبه ذلك، بل يكون التعبيد لله وحده، كعبد الرحمن وعبد الله ... إلخ.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: بيان أنَّ تعبيد الأولاد وغيرهم لغير الله في التسمية شركٌ في الطاعة وكفرٌ بالنعمة. وهذا منافٍ للتوحيد: إما في أصله، أو في كماله على حسب نوع الشرك المقصود. فإن كان المقصود مجرد التسمية فهذا شرك ينافي كمال التوحيد، أما إن كان المقصود تعبيد التأله لغير الله فإنه شرك أكبر ينافي التوحيد.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٠].

قال ابن القيم في [روضة المحبين (ص: ٢٨٩)]: فالنفس الواحدة وزوجها آدم وحواء واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما.

ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد فأتاهما إبليس فقال إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث ففعلا فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

وقال ابن كثير: «أمّا نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا، وأنّه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك: المشركون من ذريته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فذكر آدم وحواء أولًا كالتوطئة لما بعدهم من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذِكر الشخص إلى الجنس، كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]. ومعلوم أنّ المصابيح -وهي النجوم التي زينت بها السماء- ليست هي التي يُرْمى بها، وإنما هذا استطراد من شخص المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائر في القرآن».

قوله: «قال ابن حزم» وهو عالم الأندلس أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة وله اثنتان وسبعون سنة. «اتفقوا» يعني: أهل العلم «على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله كعبد عمر وعبدالكعبة وما أشبه ذلك» حكى ابن حزم اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبِّد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، خلقهم لعبادته وحده وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبدَ الله ووحّده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقرّ له بربوبيته وأسمائه وصفاته. قاله في «فتح المجيد».

قوله: «حاشا عبدالمطلب» وعبدالمطلب هذا جد رسول الله ﷺ واسمه شيبة الحمد وهو ابن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب.

وقوله: «حاشا عبد المطلب» هذا استثناء من العموم المستفاد من كل، وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيه؛ لأنه لم يعبَّد لغير الله، وإنما أصله من عبودية الرق، وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أخيه شيبة هذا قد نشأه في أخواله بني النجار من الخزرج؛ لأن هاشماً تزوج فيهم امرأة فجاءت منه بهذا الأب، فلما شبَّ في أخواله وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته فقدم به مكة وهو رديفه فرآه أهل مكة وقد تغيّر لونه بالسفر فحسبوه عبداً للمطلب فقالوا: هذا عبد المطلب، فعَلِق به هذا الاسم، فصار لا يُذكر ولا يُدعى إلا به، وقد قال النبي ﷺ: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب». أخرجه البخاري (٢٨٦٤، ٢٨٧٤) وكرره، ومسلم (١٧٧٦). وقد صار معظماً في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده، ووالد رسول الله ﷺ أحد بني عبدالمطلب، وتوفي في حياة أبيه وكان سن أبيه عبدالله حين حملت منه آمنة برسول الله نحو ثمانية عشر عاماً.

قال الحافظ الذهبي [تاريخ الإسلام / السيرة ص/ ٤٩]: «توفي أبوه عبدالله وللنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، وقيل أقل من ذلك، وقيل وهو حمل، توفي بالمدينة وعاش خمسةً وعشرين سنة». قال الواحدي: «وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته».

وتُوفيت أمه آمنة بالأبواء وهي راجعة به من المدينة إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم، وقيل ذلك أربع سنين، فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن توفي جده وللنبي ﷺ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب.

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ١/ ٣٧٨-٣٧٩]: «كان المشركون يعبِّدون أنفسهم وأولادهم لغير الله، فيضيفون فيه التعبيد إلى غير الله من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله، فغيَّر ذلك النبي ﷺ فعبَّدهم لله وحده فسَمَّى جماعة من أصحابه، انتهى ملخصاً.

إذا عُلم هذا، فلا تجوز التسمية بـ: عبدالنبي وعبد الرسول وعبد المسيح وعبد علي وعبد الحسين وعبد الكعبة وعبد الدار وما أشبه ذلك؛ مما فيه تعبيد لغير الله.

وفيه: تحريم كل اسم معبد لغير الله. قاله المصنف -رحمه الله- .

تنبيه: الذين استثنوا عبد المطلب من عموم النهي استثنوه لسببين:

الأول: أن النبي - ﷺ- أقر ذلك ولم يقر غيره.

والثاني: أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها؛ لأن أصله من عبودية الرق.

والصواب: أنه لا وجه لهذا الاستثناء، فلا يجوز أن يسمى أحد الآن عبد المطلب، وإنما يقال عبد المطلب حكاية لشيء مضى وانتهى، وأما بعد الإسلام فلا يجوز أن يسمى أحد بهذه الأسماء .

قولـه: «وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- في الآية قال: لما تغشّاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعانني أو لأجعلن له» أي الولد «قرني أيِّل» بالتثنية والإضافة، والأيِّل: بفتح الهمزة وكسر المثناة التحتية المشددة ذكر الأوعال «فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلنّ ولأفعلنّ» والمعنى أنه «يخوفهما، سمياه عبدالحارث» قال سعيد بن جبير كان اسمه - يعني إبليس في الملائكة - الحارث، وكان مراده أن يسمياه بذلك ليكون قد وجد له صورة الاشتراك به «فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت فأتاهما، فذكر مثل قولـه، فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً، ثم حملت

فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث، فذلك قولـه: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾، رواه ابن أبي حاتم».

هذه القصة التي ساقها المؤلف هنا عن ابن عباس في هذا الأثر باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي -ﷺ-، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبه موضوعة.

الوجه الثاني: أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الثالث: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة، وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الرابع: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفًا ولا عدلًا.

الوجه الخامس: أن في قوله في هذه القصة: «لأجعلن له قرني أيل»: إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أولا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السادس: قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠] بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرؤون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا، فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًا.

«وروى ابن أبي حاتم بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا أن لا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما».

وفيه: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم. قاله المصنف -رحمه الله-.

وذلك أن الله قادرٌ على أن يجعلها غير سوية، أو من غير الجنس، فلا ينبغي للرجل أن يسخط مما وهبه الله كأهل الجاهلية، بل يحمد الله الذي جعلها بشرية سوية.

قوله: «وله -أي ابن أبي حاتم- بسند صحيح عن قتادة قال: جعلا له شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته» أي لكونهما أطاعاه في التسمية بعبد الحارث لا أنهما عبداه، فهو دليل على الفرق بين شرك الطاعة وبين شرك العبادة. وفيه معرفة تفسير الآية، وأن هذا الشرك في مجرد تسميته لم تقصد حقيقتها. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٥١) قول الله تعالى

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

أشار المصنف -رحمه الله- تعالى بالترجمة بهذه الآية إلى الرد على الذين يتوسلون بذوات الأموات، مع أن المشروع التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحات. قاله في «قرة العيون».

أخبر تعالى أن له أسماء وأنها حسنى، أي قد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها ولا أكمل، فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة النقص، فأسماؤه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا يعدل عما سمى به نفسه إلى غيره، كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله إلى ما وصفه به المبطلون.

فعلاقة الباب بكتاب التوحيد: أنه يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات الذي هو أحد أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا الكتاب جامعٌ لهذه الأنواع كلها.

ووجهٌ آخر: وهو تعلق هذا الباب بتوحيد الألوهية؛ إذ إنه يمكن حمل الباب على أن المصنف أراد به الرد على من يتوسل بذوات الأموات، فنبه على التوسل المشروع وهو التوسل بأسماء الله وصفاته، فتكون هذه مناسبة الباب لكتاب التوحيد من وجهٍ آخر.

وقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ ودعاؤه بها نوعان: دعاء ثناء وعبادة، ودعاء طلب ومسألة.
فلا يُثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى، كذلك لا يُسأل إلا بها، فلا يُسأل في كل مطلوب إلا باسم يكون مقتضياً لذلك المطلوب فيكون السائل متوسلاً بذلك الاسم، تقول: رب اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن: إنك أنت السميع البصير، ونحو ذلك. قاله ابن القيم -رحمه الله-.

وقولـه ﷺ: «إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» رواه البخاري.
أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

قال ابن حزم: «جاءت في إحصائها أحاديث مضطربة لا يصح شيء منها». انتهى.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: «أما قولـه «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة» فالكلام جملة واحدة. وقولـه: «من أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل. والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينبغي أن يكون له أسماء غيرها، ويدل عليه قولـه ﷺ: «أسألك بكل اسم هو لك، سمَّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك».أخرجه أحمد (٦/ ٢٤٧)، وابن حبان (٢٣٧٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وصحح الحديث ابن تيمية وابن القيم والألباني -رحمهم الله-. انظر: [الصحيحة] رقم (١٩٩).

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسماً: سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه. وقسماً: أنزل به كتابه وتعرف به إلى عباده. وقسماً: استأثر به في علم الغيب عنده، لم يطلع عليه أحداً من خلقه». انتهى.

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾ أي اتركوهم وأعرضوا عن مجادلتهم، قال العوفي «عن ابن عباس – في قوله ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَـٰٓئِهِۦۚ﴾ – يشركون، وعنه سموا اللاّت من الإله، والعزّى من العزيز».

قوله: «وعن الأعمش» وهو سليمان بن مِهران أبومحمد الكوفي، الفقيه ثقة، حافظ ورع، مات سنة مائة وسبع وأربعين وكان مولده سنة إحدى وستين، قال: «يدخلون فيها ما ليس منها» كتسمية النصارى له أباً ونحوه. قاله في [الشرح].

وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

وقال ابن القيم رحمه الله: «الإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت، وهو أنواع:

أحدها: أن تُسمى الأصنام بها كتسمية اللات من الإله ونحوه.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له أباً.

وثالثها: وصفه بما يتعالى عنه ويتقدّس من النقائص كقول أخبث اليهود: إن الله فقير، وقولهم: إنه استراح، وقولهم: يد الله مغلولة.

ورابعها: تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني فيُطلقون عليه اسم السميع البصير الحي، ويقولون: لا سمع له ولا بصر ولا حياة ونحو ذلك.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه – تعالى الله عن قول الملحدين علواً كبيراً – فجمعهم الإلحاد وتفرقت بهم طرقه وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته

عن ذلك كله فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه ولم يجحدوا صفاته ولم يشبهوها بصفات خلقه ولم يعدلوا بها عما أنزلت لفظاً ولا معنى.

بل أثبتوا له الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات فكان إثباتهم بريئاً من التشبيه وتنزيههم خلياً من التعطيل، لا كمن شبَّه حتى كأنه يعبد صنماً، أو عطَّل حتى كأنه يعبد عدماً». انتهى. وفيه: إثبات الأسماء وكونها حسنى، والأمر بدعائه بها وترك من عارض من الجاهلين الملحدين، وتفسير الإلحاد فيها ووعيد من ألحد فيها. قاله المصنف.

فائدة: ما يجري صفةً أو خبراً عن الرب تعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته كالعليم والقدير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض ولابد من تضمنه ثبوتاً كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس وهو الاسم الدالّ على جملة أوصاف لا تختص بصفة معينة نحو المجيد العظيم الصمد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد.

وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغِنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما. فتأمله فإنه من أشرف المعارف. انتهى باختصار.

قاله ابن القيم -رحمه الله- [بدائع الفوائد ١/ ١٥٩].

باب (٥٢) لا يقال السلام على الله

قوله: «باب لا يقال السلام على الله» وجه مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد أن السلام دعاء للمُسَلَّم عليه وهو يستلزم مدعواً ومدعو له، والله سبحانه غنيٌّ عن دعاء الداعي وليس هناك مدعواً سواه، فنُهوا عن السلام عليه تنزيهاً لله وتحقيقاً لجناب التوحيد. والله أعلم.

قوله: «في الصحيح» أي الصحيحين «عن ابن مسعود ﷺ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله من عباده فإن الله هو السلام ولكن قولوا: التحيات لله». أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

هذا الحديث دليلٌ على النهي عن قول: السلام على الله؛ لأن الله هو السلام، أي هو تعالى سالم من كل نقص ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزَّه عن كل عيب ونقص -عَزَّ وَجَلَّ-. قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- [بدائع ٢/ ١٣٧-١٤٢]: «السلام اسم مصدر وهو من ألفاظ الدعاء يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهته الخبرية فيه لا تنافي الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران: أحدهما: أن السلام هنا هو الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ومعنى الكلام نزلت بركته عليكم، فاختير في هذا المعنى من أسماء الله -عَزَّ وَجَلَّ- اسم السلام دون غيره.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، وحق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله فيكون الداعي مستشفعاً إلى الله تعالى متوسلاً إليه به.

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم شيء عند الإنسان أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو السلام الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيَين: أحدهما: ذكر الله.

والثاني: طلب السلامة، وهو مقصود المسلم». انتهى ملخصاً.

ثم أرشدهم إلى ما ينبغي في حقه تعالى وهو قول التحيات لله أي: جميع التعظيمات المستحقة لله تعالى والصلوات أي الخمس أو العبادات كلها، والطيبات أي: من الأعمال الصالحة كلها لله، السلام عليكم أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، تسلِّم على نفسك وعلى كل عبد صالح في السماء والأرض. ففي هذا الحديث بيان الفرق بين تحية الخالق وتحية المخلوق. فتحية الخالق: التعظيم. وتحية المخلوق: السلام الذي هو دعاء له بالسلامة. فالتعظيم بالتحية لا ينبغي إلا لله وحده، فاستبدال بعض الناس السلام في مخاطباتهم بالتحية لا يجوز، فينبغي النهي عن ذلك.

وفيه: معرفة تفسير السلام، وأنه تحية، وأنها لا تصلح إلا لله والعلّة في ذلك، وتعليمهم التحية التي تصلح لله. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٥٣) قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قولـه: «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت» لما كان العبد لا غناء له عن ربه ومغفرته طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: ١٥] نُهي عن قول اللهم اغفر لي إن شئت؛ لما فيه من إيهام الاستغناء عن مغفرة الله ورحمته، وذلك مضادّ للتوحيد. قاله في [الشرح].

قولـه: «في الصحيح» أي الصحيحين «عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت».

أخرجه البخاري (٦٣٣٩)، (٧٤٧٧)، ومسلم (٢٦٧٩).

قال القرطبي: «إنما نهى الرسول ﷺ عن هذا القول لانه يدل على فتور الرغبة وقلة الاهتمام بالمطلوب، وكان هذا القول يتضمن أن هذا المطلوب إن حصل وإلا استغنى عنه. ومن كان هذا حاله لم يتحقق من حاله الافتقار والاضطرار الذي هو روح عبادة الدعاء، وكان ذلك دليلاً على قلة معرفته بذنبه وبرحمة الله. وأيضاً فإنه لا يكون موقناً بالإجابة، وقد قال -عليه السلام- «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل» . أخرجه أبوداود (٣٧٢٥)، وحسّـنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ١٦٤) رقــم (٢٧٦٦).

قولـه: «ليعزم المسألة» قال القرطبي: أي ليجزم في طلبته ويحقق رغبته ويتيقن الإجابة فإنه إذا فعل ذلك دلّ على علمه بعظيم ما يطلب من المغفرة والرحمة وعلى أنه مفتقر إلى ما يطلب مضطـر إليه، وقد وعـد الله المضطر بالإجابة بقولـه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

قوله: «فإن الله لا مُكره له» هذا لفظ البخاري في الدعوات، ولفظ مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنّ أحدُكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم على المسألة في الدعاء، فإن الله صانع ما شاء، لا مُكرِه لـه». قال القرطبي: هذا إظهار لعدم فائدة تقييد الاستغفار والرحمة بالمشيئة، فإن الله تعالى لا يضطره إلى فعل شيء دعاء ولا غير بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولذلك قيّد تعالى الإجابة بالمشيئة في قولـه: ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ [الأنعام: ٤١]، فلا معنى لاشتراط المشيئة بقِيلِه.

وقوله: «فإن الله لا مكره له» بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته وهو كاره لحاجته إليه أو لخوفه أو لرجائه. فالأدب مع الله أن لا يعلِّق مسألته لربه بشيء لسعة فضله وإحسانه وجوده وكرمه. وفيه: النهي عن الاستثناء في الدعاء وبيان العلة في ذلك، وقولـه: «ليعزم المسألة». قالـه المصنف.

قوله: «ولمسلم: «وليُعظِّم الرغبة» هو بالتشديد «فإن الله لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه» عند مسلم برقم (٢٦٧٩). يُقال: تعَاظم زيدٌ هذا الأمر، أي: كبر عليه وعسر، والرغبة يعني: الطُّلبة والحاجة التي يريد، وقيل: السؤال والطلب والتعظيم على هذا بالإلحاح، والأول أظهر. قاله في [الشرح].

وفيه: إعظام الرغبة والتعليل لهذا الأمر. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب (٥٤) لا يقول عبدي وأمتي

قولـه: «باب لا يقول عبدي وأمتي» أي: لما في ذلك من إيهام المشاركة في الربوبية فنُهي عن ذلك أدباً، وحماية لجناب التوحيد. قاله في [الشرح].

فمقصود الترجمة: المنع من قول المسلم: «عبدي» و «أمتي»، وليقل: «فتاي» و «فتاتي»؛ لأن هذا قد يوهم أَنَّ هذا المتكلم هو رب أو إله هذا الفتى أو الجارية، ولو من باب اللفظ من غير قصد؛ إذ الشريعة جاءت بسد الذرائع.

قولـه: «في الصحيح» أي الصحيحين [البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩)].

«عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقلْ أحدكم» هو بالجزم على النهي أي لمملوكه «أطعم ربك» بفتح الهمزة من الإطعام، «وضئ ربك» أمر من الوضوء، وفيهما في هذا الحديث «اسق ربك»، وكأن المؤلف اختصرها، وهذه الألفاظ المنهي عنها وإن كانت تطلق لغةً فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد وسداً لذرائع الشرك، لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره ما يطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ، فينبغي أن يجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك، وأرشدهم إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ فقال: «وليقل سيدي ومولاي» وكذا

قولـه: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي» لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣] .

ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى وأدباً وتحقيقاً للتوحيد، وأرشدهم إلى ما ينبغـــي بقولـه:

«وليقل فتاي وفتاتي وغلامي» وهذا من باب حماية جناب التوحيد، قال الخطّابي: «وسبب المنع أن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد لله تعالى، وترك الإشراك به، فأُمر بترك المضاهاة بالاسم لئلا يدخل في معنى الشرك، ولا فرق في ذلك بين الحر والعبد، وأما من لا تَعبُّد عليه من سائر الحيوانات والجمادات، فلا يكره أن يطلق ذلك عليه عند الإضافة كقوله: «رب الدار والثوب». قاله في [الشرح]. قال ابن مفلح: «وظاهر النهي التحريم، وقد يحتمل أنه للكراهة، وجزم به غير واحد من العلماء».

وفيه: النهي عن قول عبدي وأمتي، ولا يقول العبد لسيده ربي، ولا يُقال له أطعم ربك، وتعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي، وتعليم الثاني قول: سيدي ومولاي، والتنبّه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ. قالـه المصنف -رَحِمَهُ اللهُ-.

باب (٥٥) لا يُرد من سأل بالله

قولـه: «باب لا يُرد من سأل بالله» أي إعظاماً وإجلالاً لله تعالى أن يُسأل به في شيء ولا يجاب السائل إلى سؤاله ومطلوبه. قاله في [الشرح]، أي إنَّ رَدَّه مكروه أو محرم إذا كان المطلوب ليس محرماً ولا مكروهاً؛ لأن رده دليل على عدم إعظام الله.

وعلاقة هذا الباب بكتاب التوحيد: من وجهين:

الوجه الأول: أن في عدم إعطاء من سأل بالله عدم إعظامٍ لله، وعدم إجلالٍ له؛ وذلك يُخلُّ بالتوحيد.

الوجه الثاني: أن الذي صُنِعَ له معروف يكون في قلبه نوع تذلل وخضوع لصانع المعروف، وهذا ينافي التوحيد، وتخليص القلب من ذلك يكون بالمكافأة عليه.

قولـه: «عن ابن عمر –رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه».

أخرجه أبوداود (١٧٦٣، ٥١٠٩)، والنسائي (٥/ ٨٢) وأحمد (٢/ ٦٨، ٩٩، ١٢٧)، وصححه الألباني في [الصحيحة] (٢٥٤) والوادعي في الصحيح المسند.

أي إذا قال السائل أسألك بالله. قال شيخ الإسلام: «وإذا قال السائل أسألك بالله فإنما سأله بإيمانه بالله، وذلك سبب لإعطاء من سأله به».

وفيه: إعطاء من سأل بالله. قاله المصنف. ما لم يكن إثمًا أو قطيعة رحم.

قال في «فتح المجيد»: «ظاهر الحديث النهي عن ردِّ السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل. فيجب إذا سأل السائل ما لَهُ فيه حَقٌّ كبيت المال أن يُجاب، فيُعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً.وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على قدر حالة المسؤول ما لا يضر بعائلته. وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته».

قولـه: «ومـن استعاذ بالله فأعيذوه» أي: تعظيماً لله وتقرباً إليه.

وفيه: إعـاذة من استعاذ بالله. قاله المصنف. ولهذا لما استعـاذت منه الجونيـة قال ﷺ: «لقد عُذتِ بمعاذ، الـحقي بأهلك» أخرجه البخاري (٥٢٥٤).

قال الشيخ ابن باز: «فمن استعاذ بالله شُرع أن يعاذ، إذا لم يكن حقًّا عليه، فإن استعاذ بالله، في إسقاط حق عليه، فلا يُعاذ؛ لأن الله أمر بأداء الحقوق».

قولـه: «ومن دعاكم فأجيبوه» أي من دعاكم إلى طعام فأجيبوه، والحديث أعم من الوليمة وغيرها، وهو يدل على الوجوب، ما لم يكن عليكم في ذلك ضرر ديني أو دنيوي، فإن كان فيها منكر مثلًا لم تجب إجابتها إلا إذا كان المدعو يستطيع إزالته، فتجب الإجابة حينئذ. وفيه: إجابة الدعوة. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه» على إحسانه ليخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالحق؛ لأنك إذا لم تكافئ من صنع إليك معروفاً؛ بقي في قلبك له نوع تألـُّه، فشُرِع قطعُ ذلك بالمكافأة. هذا معنى كلام شيخ الإسلام -رحمه الله-. قالـه في «إبطال التنديد». وفيه: المكافأة على الصنيعة، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافي على الإحسان بالإساءة. قاله في «فتح المجيد».

قولـه: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له» أي إذا لم تقدروا على مكافأته.

وفيه: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

قولـه: «حـتى تُروا» بضم التاء، أي تظنوا، ويحتمل أن تكون مفتوحة بمعنى تعلموا أنكم قد كافأتموه، ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر: «حتى تعلموا»، فتعين الثاني للتصريح به. قاله في «فتح المجيد».

باب (٥٦) لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

قوله: «باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة» أي إجلالاً وإكراماً لوجه الله تعالى أن يُسأل به إلا غاية المطالب وهي الجنة. ومقصود الترجمة: النهي عن السؤال بوجه الله إلا الجنة، وعبر عن النهي بصيغة النفي متابعةً منه للفظ الحديث.

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: أن عدم السؤال بوجه الله إلا في المطالب العالية هو من باب تعظيم صفات الله تعالى الذاتية والفعلية، الذي هو من تعظيم توحيد الأسماء والصفات. وكل ذلك من كمال الأدب والتعظيم لله تعالى.

قوله: «عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبوداود. أخرجه أبوداود (١٦٧١)، وضعَّف إسناده الألباني وغيره.

قوله: «لا يُسأل بوجه الله» روي بالنفي والنهي، وروي بالبناء للمجهول وهو الذي في الأصل، ورُوي بالخطاب للمفرد. قاله في [الشرح].

قوله: «إلا الجنة» كأن يقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أن تدخلني الجنة. وقيل: المراد لا تسألوا الناس شيئاً بوجه الله، كأن يقول: أعطني شيئاً لوجه الله. فإن الله أعظم من أن يُسأل به شيء من الحطام. قال في «الشرح»: إن كلا المعنيين صحيح. قال العراقي: «وذكر الجنة إنما هو للتنبيه على الأمور العظام لا للتخصيص، فلا يُسأل بوجه الله في الأمور الدنيئة بخلاف الأمور العظام تحصيلاً أو دفعاً كما يشير إليه استعاذة النبي ﷺ به. وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى كما هو طريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً. وفيه: النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب، وإثبات صفة الوجه. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب (٥٧) ما جاء في اللّو

قولـه: «باب ما جاء في اللّو» : مقصود الترجمة: بيان ما جاء في قول (لو) - على سبيل التندم والتحسر على ما فات- من الوعيد والنهي عنها عند الأمور المكروهة كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات مما لا يمكن استدراكه.

وعلاقة الباب بكتاب التوحيد: أَنَّ قول (لو) على سبيل التحسر والندم على ما فات ينافي كمال الاستسلام للقضاء والقدر.

ومناسبة هذا الباب للذي قبله: أن هذا الباب عقد أيضًا للنهي عن الألفاظ التي قد تقع في الربوبية أو الأسماء والصفات، ومن كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر، والعبد مأمور عند المصائب بالصبر والاسترجاع والتوبة. وقول (لو) لا يجدي عليه إلا الحزن والتحسر مع ما يخاف على توحيده من نوع المعاندة للقدر.

قال في غاية المريد: واعلم أن استعمال العبد للفظة: (لو) تقع على قسمين: مذموم ومحمود. فأما المذموم فأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فهذا من عمل الشيطان؛ لأنه يتضمن محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه، وليس فيه نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب مع الله، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره.

و(لو) بالمعنى المذموم تأتي على عدة أوجه: الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم. الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضًا الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضًا. الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر على المعصية. الخامس: أن تستعمل في تمني الشر.

وأما القسم المحمود من استعمالات (لو)، فيأتي على أوجه كذلك، ومنها:

الوجه الأول: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًّا فشر الوجه الثاني: أن تستعمل في الخير المحض. انتهى ملخصًا.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾:

هذا قول بعض المنافقين يوم أُحُد. روى ابن إسحاق بإسناده عن عبدالله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النومَ فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ لقول مُعتِّب.

رواه ابن أبي حاتم. في [التفسير] (١٦٩٧)، و الطبري في [التفسير] (٦/ ١٦٨) وغيرهما.

وحسنه الوادعي في الصحيح من أسباب النزول.

وهذا من المنافقين معارضة منهم للقدر بـ«لو»، ولهذا ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: «في الصحيح» أي صحيح مسلم (٢٦٦٤) «عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن».

اختصر المصنف -رحمه الله- هذا الحديث، وأولـه أن النبي ﷺ قال: «المؤمن القـوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص ... » إلى آخره.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «تضمَّن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان، أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقةً.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي يحب المؤمن القوي.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده. والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع.

وقولـه: «احرص على ما ينفعك» أي في معاشك ومعادك، والمراد الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده ليتم له مطلوبه، ويكون اعتماد العبد على الله مع فعل السبب؛ لأن الله هو الذي خلق السبب والمسبب ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، ففعل السبب سنة والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله.

قولـه: «واستعن بالله» لما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين به ليجمع له بين مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] .

فإن حرصه على ما ينفعه عبادةٌ لله، ولا تتم إلا بمعونة الله، فأمرَه أن يعبده وأن يستعين به. قاله ابن القيم -رحمه الله-.

قولـه: «ولا تعجزن» النون نون التوكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمَّه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً. قال ابن القيم: «فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله ضد

العاجز فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أَزِمَّة الأمور بيده ومصدرها منه ومردَّها إليه.

فإذا وقع المقدور فللعبد حالتان:

حالة عجز، وهي مفتاح عمل الشيطان فيلقيه العجز إلى «لو»، ولا فائدة فيها؛ بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والحزن، وهذا من عمل الشيطان، فنهاه عن افتتاح عمله بهذا المفتاح، وأمره بالحالة الثانية وهي النظر إلى القدر وأنه لو قُدر لم يفته ولم يغلبه عليه أحدٌ ولهذا قال: «وإن أصابك شيء» أي غلبك الأمر ولم يحصل المقصود بعد بذل الجهد والاستعانة بالله «فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، قل: قدَّر الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه حالة حصول مطلوبه، وحالة فواته؛ ولهذا كان هذا الحديث مما لا يُستغنى عنه، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه». انتهى ملخصاً.

وفيه: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله والنهي عن ضد ذلك وهو العجز. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «فإن (لو) تفتح عمل الشيطان» أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر، والرضى واجب، والإيمان بالقدر فرض.

وفيه: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء، وتعليل المسألة: بأن ذلك يفتح عمل الشيطان والإرشاد إلى الكلام الحسن. قالـه المصنف.

تنبيه: وأما قولـه ﷺ: «لولا حُدثان قومِكِ بالكفر لأتممتُ البيت على قواعد إبراهيم»

أخرجه البخاري (١٥٨٥) و(١٥٨٦). وقوله: «لو كنت راجماً أحداً بغير بيّنة لرجمت هذه».

أخرجه ابن ماجه (٢٦٠٧)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٤٠٧). وقال الألباني: صحيح... وشطره الأول متفق عليه. انظر: صحيح سنن ابن ماجه رقم (٢٠٨٩).

وقولـه: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك». أخرجه البخاري (٨٨٧).

وشبه ذلك. فأجاب القاضي عياض بأن هذا كله مستقبل لا اعتراض فيه على قدر، ولا كراهة فيه؛ لأنه إنما أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته، فأما ما ذهب فليس في قدرته، وكذا قولـه: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سُقتُ الهدي ولجعلتها عمرةً».أخرجه البخاري (١٦٥١)، ومسلم (١٢١٨).

فليس من المنهي عنه بل هو إخبار لهم عما كان يفعل في المستقبل لو حصل، ولا خلاف في جواز ذلك، وإنما ينهى عن ذلك في معارضة القدر، أو مع اعتقاد أن ذلك المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدر». انتهى ملخصاً.

باب (٥٨) النهي عن سب الريح

قولـه: «باب النهي عن سب الريح» أي لأنها مأمورة، فسبُّها مسبَّةٌ لآمرها فيكون إذاً لله كمسبة الدهر، وهو من أفعال أهل الجاهلية. وحقيقة النهي أنه للتحريم.

فمقصود الترجمة: بيان أن سب الريح وشتمها ولعنها منهي عنه لأنها تتحرك بأمر الله وقضائه وقدره، ولا تصريف لها بنفسها.

وعلاقة الباب بكتاب التوحيد: أَنَّ سب الريح من جنس سب الدهر، وسب الدهر والأيام والليالي والريح والأمطار هو سبٌّ لله تعالى؛ لأنه هو الذي خلقها وهو الذي صرفها وحركها بهذا الشكل الذي نراه ونحسه ونشاهده، وهذا ينافي التوحيد أيَّما منافاة، ويناقضه أيَّما مناقضه.

ويظهر أن الباب «من جنس الأبواب السابقة التي فيها النهي عن سب الدهر، والنهي عن قول: (لو) وغير ذلك، والنهي عن التنجيم، وكل ما فيه إضافة الأشياء إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه منهي عنه».

وعلى وجه الخصوص نجد أن هذا الباب «نظير ما سبق في سب الدهر، إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالريح».

قولـه: «عن أبيّ بن كعب» أي ابن عبيد بن زيد بن معاوية بن قيس بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الخزرجي أبوالمنذر، صحابي جليل، وكان من قرّاء الصحابة وعلمائهم، وله مناقب مشهورة. منها: أن النبي ﷺ قال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. قال: وسمَّاني؟ قال: «نعم»، فبكى أُبيّ.

أخرجه البخاري (٦٥)، ومسلم (٤٤). قال الهيثم بن عدي: مات سنة تسع عشرة، وقال خليفة بن خياط في سنة اثنتين وثلاثين. يُقال مات فيها أبيّ بن كعب، ويُقال: مات في خلافة عمر. وقيل غير ذلك -رضي الله عنه-.

«أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به». صححه الترمذي.

أخرجه أحمد (٥/ ١٢٣)، والترمذي (٢٢٥٢)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٣، ٩٣٤)، قال الألباني: صحيح، انظر: [الصحيحة] (٢٧٥٦). وصححه الوادعي في الصحيح المسند برقم(٦).

وصحح بعضهم وقفه، ولعله لا ينافي الرفع.

قوله: «لا تسبُّوا الريح» أي لا تشتموها ولاتلعنوها، فإنها مأمورة فلا يجوز سبها، بل تجب التوبة عند التضرر بها وهو تأديب من الله لعباده وتأديبه رحمةٌ للعباد، فلهذا جاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «الريح من روح الله تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبُّوها، ولكن سلوا اللهَ من خيرها، وتعوّذوا بالله من شرها». رواه أحمد وأبوداود وابن ماجه.

أخرجه أبوداود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧) بسند جيد كما قال النووي وصححه غيره. انظر: صحيح سنن أبي داود (٣/ ٩٦٠) رقم (٤٢٥٠).

قوله: «فإذا رأيتم ما تكرهون» أي من الريح، إما شدة حرها أو بردها، أو قوتها فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا:

«اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به».

ففي هذا عبودية لله وطاعة ولرسوله واستدفاعٌ للشر، وتعرُّضٌ لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان خلافاً لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان.

قوله: «وَخَيْرِ مَا فِيهَا»، أي: من منافعها كلها؛ لأنها قد تحمل خيرًا، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرًّا، كإزالة لقاح الثمار والأمراض التي تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «وخير ما أمرت به» مثل: إثارة السحاب وسوقه، ومن خيرها النصر، قال رسول الله -ﷺ-: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ».

أخرجه البخاري (٩٨٨)، ومسلم(٩٠٠).

قوله: «ونعوذ بك»، أي: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الريح» كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت ونحو ذلك.

قوله: «وشر ما فيها» ما تحمله من الأشياء الضارة.

قوله: «وشر ما أمرت به» كالإهلاك والتدمير.

وفيه: النهي عن سب الريح، والإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره، والإرشاد إلى أنها مأمورة، وأنها قد تُؤمر بخير وقد تُؤمر بشر.

قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٥٩) قول الله تعالى

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ الآية» .

مقصود الترجمة: التنبيه على وجوب حسن الظن بالله؛ لأن ذلك من واجبات التوحيد. ولذلك ذمَّ اللهُ من أساءَ الظن به، لأن مبنى حسن الظن على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة التوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله. قاله في [الشرح].

ووجه مناسبة الباب لكتاب التوحيد: هو أَنَّ سوء الظن بالله من جانبٍ متعلقٌ بتوحيد الربوبية؛ لأنه عدم ثقة بأفعال الله وأخباره وأقواله.

ومن جانبٍ آخر يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، فإن سوء الظن بالله ناتج عن عدم إيمان بأسماء الله وصفاته.

ومن جانبٍ ثالث يتعلق بتوحيد الألوهية؛ لأن عبادة غير الله، أو إشراك غيره معه هو سوء ظن به.

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ هذه الآية نزلت خبر من الله عن المنافقين وما جرى لهم في وقعة أُحُد فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني المؤمنين الصادقين الذين هم على يقين بأن الله سينصر رسوله ويظهره على عدوه، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم، يعني المنافقين، لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف على أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية من أهل الشرك شكًّا في أمر الله وتكذيباً لنبيه.

لما رأوا من الهزيمة على المسلمين بسبب مخالفتهم لأمر الرسول ﷺ وتركهم الثغر الذي أمرهم بلزومه، فكَرَّ عليهم العدوُّ فقتل مَنْ قتل منهم، وشُجَّ النبي ﷺ، وكُسرت رباعيته، فظن المنافقون أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد أهلُه فقال مُعتِّب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هاهنا. ولما قيل لعبدالله بن أُبيّ: قُتل بنوالخزرج اليوم. قال: وهل لنا من الأمر شيء؟

قال ابن القيم -رحمه الله-: «فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر وردَّ الامر كله لله، ولو كان هذا مقصودهم لما ذُمُّوا ولما حَسُن الرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، ولا كان هذا الكلام ظن الجاهلية، ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا هو التكذيب بالقدر، وأن الأمر لو كان إليهم وكان الرسول ﷺ وأصحابه تبعاً لهم يسمعون منهم لما أصابهم القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فكذَّبهم الله في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية وهو المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بُد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدرُه، وجرى به قلمُه وكتابُه السابق.

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآية.

قال ابن كثير [[التفسير] ٧/ ٣٢٩]: «يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال:

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم من رحمته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

«قال ابن القيم -رحمه الله- في الآية الأولى [زاد المعاد ٣/ ٢٢٨]: «فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسولَه، وأن أمرَه سيضمحل.

وفُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته.

ففُسِّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر؛ وإنكار أن يتمَّ أمرُ رسوله، وأن يظهره على الدين كلِّه. وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظنّه المنافقون والمشركون في سورة الفتح.

وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظنَّ غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظنَّ أنه يُديلُ الباطلَ على الحق إدالةً مستمرة يضمحلُّ معها الحقُّ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدَره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرّدة، فذلك ظنُّ الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار». وفيه: معرفة تفسير آية آل عمران وتفسير آية الفتح. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم» بل غالب بني آدم إلا من شاء الله يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحق، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكر ولا يتجاسر على التصريح.

قوله: «وفيما يفعله بغيرهم ولا يسلَم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءَه وصفاته وموجبَ حكمته وحمده»:

فإذا رأوا رجلاً صالحاً قد قُتِر عليه قالوا: هذا ما يستحق. أو رأوا رجلاً قد وُسِّع عليه في الدنيا قالوا: هذا ليس بكفؤ؛ قدحاً في القدر واعتراضاً عليه.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: «وهذه حالة قد شملت خلقاً كثيراً من العلماء والجهال أولهم إبليس، فإنه نظر بعقله فقال: كيف يفضل الطين على جوهر النار؟ وفي ضمن اعتراضه أن حكمتك قاصرة وأنا أجود، واتّبع إبليس في تفضيله واعتراضه خلقٌ كثير مثل الراوندي والمعري.

قوله: «فليعتن اللبيب» أي العاقل «الناصح لنفسه، ولا يعترض على ربه في قضائه وقدره، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء».

قوله: «ولو فتشت من فتشت» يعني من الناس «لرأيت عنده تعنُّتاً على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا» أي خلاف ما جرى به القدر.

«فمستقل ومستكثر» أي مستقل من الاعتراض ومستكثر منه «وفتش نفسك هل أنت سالم؟ » من الاعتراض على قضاء الله وقدره أم لا؟

وفيه: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تُحصر، وأنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب(٦٠) ما جاء في منكري القدر

قوله: «باب ما جاء في منكري القدر» أي من الوعيد الشديد.

مقصود الترجمة: بيان ما جاء من الوعيد الشديد في إنكار القدر.

وتوحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر.

وعلاقة هذا الباب بما قبله: أن إنكار القدر نوعٌ من أنواع سوء الظن بالله ﷻ، ويكون هذا الباب كالتفصيل لما اشتمل عليه الباب الذي قبله.

قال في [المصباح]: «والقدر بالفتح لا غير القضاء الذي يقدره الله تعالى، والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته»، ولهذا قال الإمام أحمد -رحمه الله-: القدر هو قدرة الله. [كما في مسائل ابن هانىء له رقم ١٨٦٨] واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر.

قال شيخ الإسلام: وقول الإمام أحمد «القدر: قدرة الله» يعني أن مَنْ أنكر القدر فقد أنكر قدرة الله.

التعريف الشامل: القدر: علم الله السابق بالأشياء قبل وقوعها، وكتابته لذلك في اللوح المحفوظ قبل خلقها وإيجادها، ومشيئته النافذة الشاملة، وخَلْقُهُ ﷻ لكل ما قدَّر.

قوله: «وقال ابنُ عمر: والذي نفس ابن عمرَ بيده؛ لو كان لأحدهم مثلَ أُحُدٍ ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبلَه اللهُ منه حتى يؤمِن بالقدر. ثم استدلَّ بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره». رواه مسلم (٨).

فالإيمان بالله: هو التصديق بأنه – ﷻ – موجود موصوف بصفات الجلال والكمال، منزَّه عن صفات النقص، وأنه فرد صمد خالق جميع المخلوقات، متصرف فيها بما يشاء، يفعل في ملكه ما يريد. والإيمان بالملائكة: هو التصديق بعبوديتهم لله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾. [الأنبياء: ٢٦-٢٨].

والإيمان بالرسل: هو التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، أيَّدهم الله بالمعجزات الدالة على صدقهم، وأنهم بلَّغوا عن الله رسالاته، وبيَّنوا للمكلفين ما أمرهم الله به، وأنه يجب احترامهم وأن لا يُفرق بين أحدٍ منهم. والإيمان باليوم الآخر: هو التصديق بيوم القيامة وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه وعقابه للمحسنين والمسيئين، إلى غير ذلك مما صح به النقل، والإيمان بالقدر: هو التصديق بما دلَّ عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

وكلام ابن عمر هذا أراد به غلاة القدرية المنكرين أن يكون الله عالماً بشيء من أعمال العباد قبل وقوعها منهم، وإنما يعلمها بعد كونها.

قال القرطبي: ولا شك في تكفير من يذهب إلى ذلك، فإنه جحد معلوماً من الشرع بالضرورة؛ لذلك تبرأ منهم ابن عمر وأفتى بأنه لا تُقبل منهم أعمالهم ونفقاتهم.

وقال شيخ الإسلام [الفتاوى ٨/ ٤٤٩-٤٥٠]: «مذهب أهل السنة في هذا الباب وغيره ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، وأنه سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، ولا يمتنع عليه شيءٌ شاءه؛ بل هو قادر على كل شيء، ولا يشاء شيئاً إلا هو قادر عليه، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وقد دخل في ذلك أفعال العباد وغيرها، وقد قدَّر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم، وقدّر أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وكتب ما يصيرون إليه من شقاوة وسعادة، فهم يؤمنون بخلقه لكل شيء وقدرته على كل شيء ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها وكتابته إياها قبل أن تكون».

والإيمان بالقدر على درجتين:

إحداهما: الإيمان بأن الله تعالى سبق في علمه ما يعمل العباد من خير وشر وطاعة ومعصية قبل خلقهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم أهل النار، وأعد لهم الثواب والعقاب وكتب ذلك، وأن أعمال العباد تجري على ما سبق في علمه وكتابه، وهذه الدرجة أثبتها كثير من القدرية ونفاها غلاتهم كمعبد الجهني وعمرو بن عبيد وغيرهما. وقد قال كثير من أئمة السلف: «ناظروهم - يعني القدرية - بالعلم فإن أقَرُّوا به خُصِموا، وإن جحدوا كفروا».

يريدون أن من أنكر العلم القديم السابق بأفعال العباد، وأن الله قسمهم قبل خلقهم إلى شقي وسعيد، وكتب ذلك عنده في كتاب حفيظ، فقد كذب بالقرآن فيكفر بذلك، وإن أقروا بذلك وأنكروا أن الله خلق أفعال العباد وشاءَها منهم وأرادها إرادة كونية قدرية فقد خُصموا؛ لأن ما أقروا به حجة عليهم فيما أنكروه.

والدرجة الثانية: أن الله خلق أفعال العباد كلها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان وشاءها منهم، وفي تكفير هؤلاء نزاعٌ مشهور بين العلماء.

قولـه: «وعن عُبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعمَ الإيمان حتى تعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أولَ ما خلق الله القلمَ، فقال له: اكتب. فقال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكتُب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة». يا بني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مات على غير هذا فليس مني». أورد المصنف -رحمه الله- حديث عبادة هذا ولم يعزه. وقد رواه أبوداود مختصراً والترمذي، ورواه الإمام أحمد مطولاً.

أخرجه أبوداود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، وأحمد (٥/ ٣١٧) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٨٩١). وهو صحيح بطرقه وشواهده.

قولـه: «أنه قال لابنه» هو الوليد بن عبادة كما جاء مصرحاً به في رواية الترمذي.

قولـه: «إنك لن تجد طعم الإيمان حتى» إلى آخره. فيه: بيان فرض الإيمان بالقدر، وبيان كيفية الإيمان به، وإحباط عمل من لم يؤمن به والإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به. قاله المصنف. وأن من لم يؤمن بالقدر بأن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه لا يجد طعم الإيمان.

وفيه: براءته ﷺ ممن لم يؤمن بالقدر. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما خلق الله القلمَ» وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة». أخرجه أحمد (٥/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم (١٠٧) وهو صحيح بطرقه.

وفيه: ذكر أول ما خلق الله وأنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم القيامة.

قاله المصنف -رحمه الله-.

قال الحافظ ابن حجر: «حكى أبوالعلاء الهمداني للعلماء قولين في أيهما خُلق أولاً: العرش أو القلم؟. قال: والأكثر على سبق خلق العرش.

واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني.

قولـه: «وفي رواية لابن وهب» وهو الإمام الحافظ عبدالله بن وهب بن مسلم القرشي، مولاهم، المصري الفقيه، ثقة إمام مشهور عابد، له مصنفات منها الجامع وغيره، مات سنة سبع وتسعين ومائة وله اثنتان وسبعون سنة.

قولـه: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»

أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١١١) وصححه الألباني.

أي: لكفره، أو بدعته إن كان ممن يُقرّ بالعلم السابق وينكر خلق أفعال العباد، فإن صاحب البدعة معرَّضٌ للوعيد كأصحاب الكبائر، بل أعظم. قاله في [الشرح].

قولـه: «وفي المسند» أي مسند الإمام أحمد «والسنن» أي سنن أبي داود وابن ماجه.

قولـه: «عن ابن الديلمي» وهو عبدالله بن فيروز الديلمي، وفيروز قاتل الأسود العنسي الكذّاب، وعبدالله هذا ثقة من كبار التابعين، بل ذكره بعضهم في الصحابة، والديلمي نسبة إلى جبل الديلم، وهو من أبناء فارس الذين بعثهم كسرى إلى اليمن.

«قال: أتيتُ أُبيَّ بن كعب فقلت: في نفسي شيءٌ من القدر، فحدِّثني بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقتَ مثلَ أُحُد ذهباً ما قَبِله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك، ولو مُت على غير هذا لكنتَ من أهل النار. قال: فأتيتُ عبدالله بن مسعود وحُذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، كلُّهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه».

أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩)، وأبوداود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).

قال الألباني: صحيح، سنن أبي داود (٣/ ٨٩٠) رقم (٣٩٣٢). وهو في الصحيح المسند لشيخنا الوادعي.

وفي رواية ابن ماجه زيادة اختصرها المصنف وهي: «لو أن الله عذَّب أهل سمواته وأهل أرضه لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم».

وفيه: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء، وأن العلماء أجابوه بما يُزيل الشبهة، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط. قاله المصنف -رحمه الله-.

قال ابن القيم -رحمه الله-: «وهاهنا أمرٌ يجب التنبيه عليه والتنبُّه له، وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علماً: وهو أن الله سبحانه له الخلقُ والأمر، وأمرُه سبحانه نوعان: أمرُ كوني قدري، وأمرٌ ديني شرعي. فمشيئته سبحانه متعلقه بخلقه وأمره الكوني، وأما محبته ورضاه فمتعلقةٌ بأمره الديني وشرعه الذي شَرَعَه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعاً فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، وما لم يُوجد منه تعلّقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته.

وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يُوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة». انتهى.

باب(٦١) ما جاء في المصورين

قوله: «باب ما جاء في المصورين» أي من الوعيد.

مقصود الترجمة: بيان حكم التصوير والمصورين، وما جاء في ذلك من نصوص الوعيد المنذرة بالعذاب الشديد والعقاب الأليم، وأن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد وتُعرِّض فاعلها لغضب الله والنار وتنقص إيمانهم وتضعفه.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: تتضح من وجهين:

الوجه الأول: أَنَّ التصوير تنديد من جهة أن المصور جعل فعله ندًا لفعل الله ﷻ، فالتصوير فيه مضاهاةٌ لخلق الله؛ لأن فيه خلقًا وإبداعًا يكون به المصور مشاركًا لله في ذلك الخلق والإبداع، وهذا شركٌ في ربوبيته تعالى.

الوجه الثاني: أَنَّ التصوير ذريعةٌ إلى الشرك بالله تعالى، ووسيلة من وسائله؛ إذ إن نَصْب هذه الصور مفضٍ إلى عبادتها، وشركُ كثيرٍ من المشركين كان من جهة الصور؛ ومن ثم فإنَّ ذلك شركٌ في الألوهية؛ فكان من تحقيق التوحيد ألا تُقر الصور لأجل أن الصورة وسيلة من وسائل المشركين في عباداتهم.

وعلاقة الباب بالذي قبله: أن هذا الباب «من فروع الباب السابق؛ أنه لا يحل أن يجعل لله نِدًّا في النيات والأقوال والأفعال، والند المشابه ولو بوجه بعيد. فاتخاذ الصور الحيوانية تَشَبهٌ بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير؛ فلذلك زجر الشارع عنه».

قوله: «عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومَنْ أظلمُ ممن ذهبَ يخلُق كخلقي، فليخلُقُوا ذرَّة، أو ليخلُقُوا حبَّة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه.

هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن جبريل عن ربه ﷻ.

أخرجه البخاري (٥٩٥٣) و(٧٥٥٩)، ومسلم (٢١١١).

قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي» فلا أظلم من المصورين الذين عملوا صوراً تشبه خلق الله -ﷻ-؛ لأنه تعالى هو الخالق البارئ المصور وهم بعملهم قد نازعوه في أسمائه، وتشبهوا به في صفات ربوبيته حيث عملوا ما يضاهي خلقه، ولذا تحدَّاهم تعالى بقوله: «فليخلقوا ذرة» فيها روح تتصرف بنفسها كمثل ما خلق الله من ذوات الأرواح، «أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شَعِيرةً» مثل ما خلق الله من النباتات التي تُزرع وتنمو وتحيا بالماء، فإن للنبات حياة تخصه وهي النمو والزيادة كما للحيوان حياة تخصه وهي النمو والحركة، فنبَّه بالذرة والحبة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر، فإنهم لا يستطيعون ذلك بل هم عاجزون عنه.

وقوله: «أخرجاه» أي البخاري ومسلم.

قوله: «ولهما» أي البخاري ومسلم «عن عائشة أم المؤمنين -ﷺ- أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»

أخرجه البخاري (٢٤٧٩) و(٥٩٥٤، ٥٩٥٥) و(٥٩٦١)، ومسلم (٢١٠٧).

قال في [النهاية]: أراد المصورين، والمضاهاة: المشابهة، وقد تُهمز، فالمصور لما صور الصورة على مثل ما خلق الله صار مضاهئاً لخلق الله فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أعظم الذنوب.

وأما قول من قال هذا محمول على صانع الصورة لتُعبد، فهذا تخصيص لكلام النبوة بغير دليل؛ بل يردُّه قولـه في نفس الحديث: «يضاهئون خلق الله» فذكر العلة وهي المضاهاة.

وأما قولـه: وقيل هو فيمن قصد المضاهاة واعتقد ذلك فهذا الاعتقاد الذي اشترطه تقييد للحديث مردود؛ لأنه من المعلوم لدى كل ذي عقل سليم أن المصور إنما قصد بعمل الصورة نفس مضاهاة خلق الله أي مشابهته، ولا يخطر بباله سوء ذلك ولكن بمثل هذه المحامل التي لا تحتمل والقيود التي لا دليل عليها والتأويلات التي هي صرف اللفظ عن ظاهره أوهَنُوا دلالة الأحاديث عند ضعفاء البصائر وجنوا على الشريعة، وصار ما قالوه حجَّة لكل مبطل فلا حول ولا قوة إلا بالله.

قولـه: «ولهما» أي البخاري ومسلم «عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نَفْسٌ يُعذَّب بها في جـهنم». البخاري (٢٢٢٥) و(٥٩٦٣) و(٧٠٤٢)، ومسلم (٢١١٠). ولهما عنه مرفوعاً: «من صـوَّر صورةً في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الرُّوح، وليس بنافخ». أخرجه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).

وفيه: التغليظ الشديد فـي المصورين والتنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقولـه: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»، والتنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: «فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة».

والتصريح بأنهم أشد الناس عذاباً، وأن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يُعذب بها في جهنم، وأنه يُكلَّف أن ينفخ فيها الروح. قاله المصنف -رحمه الله-.

واعلم أن التعليل في أحاديث التصوير قد ورد بألفاظ متعددة، فعلل في بعضها بالمضاهاة يعني المشابهة، وفي بعضها بتكليفه بأن ينفخ فيها الروح، وفي بعضها بقوله: «أحيوا ما خلقتم».

وأما ما احتج به من أراد استحلال ما حرم الله من أن الصورة الشمسية ليست من الصور المحرمة بحجة أنها مسك للظل كما يرى الناظر صورته في المرآة فهذا غير صحيح؛ لأن ما يبدو في المرآة صورة غير ثابتة ولا صنع للناظر فيها ولا يُسمى الناظر مصوراً، ولا تُسمى صورة لغة ولا شرعاً ولا عرفاً، وأما الصورة الشمسية فلا يشك من له أدنى معرفة بأحكام الشرع وعِلَلِه أنها من جملة الصور المحرمة؛ لأنها لا تتأتّى إلا بالآلة المخصوصة التي صنعت لها وعمل من المصور بوضعها في مواد التحميض لتكون ثابتة وملونة فهي صورة حقيقة، وعاملها يُسمى مصوراً لغة وشرعاً وعرفاً، والتصوير محرم سواء كانت الصورة لها شخص منتصب، أو كانت منقوشة في سقف أو جدار، أو موضوعة في نمط أو في نقد، أو منسوجة في ثوب أو بساط أو مكان، وسواء كانت من شمع أو عجين أو حلاوة أو غير ذلك، فإن قضية العموم تأتي على ذلك كله.

قولـه: «ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي» واسمه حبان بن حصين.

«قال: قال لي عليٌّ: ألاَ أبعثك على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ: ألاَّ تدعَ صورةً إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سوَّيتَه». فدل هذا الحديث على إتلاف الصورة لمن قدر على إتلافها، وإزالتها لمضاهاتها لخلق الله، وطمسها إن كانت غير مجسمة، وتسوية القبور المشرفة لما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته.

ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظِّمين لها فصرفوا لها جُلّ العبادة من: الدعاء والاستغاثة والاستعانة، والتضرع لها، والذبح والنذور وغير ذلك من كل شركٍ محظور. قاله في [الشرح].

قال ابن القيم -رحمه الله- [إغاثة اللهفان ١/ ٢١٤-٢١٥]: «ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأي أحدهما مضاداً للآخـر مناقضاً له:

فنهى عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون المساجد عليها ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيـقاد السُّرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى أن تتخذ أعياداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر.

وأمر بتسويتها كما في حديث أبي الهياج وفضالة ابن عبيد، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القبب.

ونهى عن تجصيصها والبناء عليها والكتابة عليها، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره». انتهى ملخصاً.

وقيد الأمر بطمس الصور إذا وُجدت. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٦٢) ما جاء في كثرة الحلف

قولـه: «باب ما جاء في كثرة الحلف» أي من النهي عنه والوعيد عليه.

مقصود الترجمة: بيان حكم كثرة الحلف بالله تعالى، وما جاء في النهي عنه، والوعيد الشديد لفاعليه، وأن كثرة الحلف نقص في الإيمان، ونقص في التوحيد.

قال العثيمين: و«الحلف: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظَّم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء، والواو، والتاء».

ومناسبة الباب لكتاب التوحيد: تتضح من وجهين اثنين:

الوجه الأول: اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للمحلوف به، فلذا يجب أن يُصان اسم الله عن الحلف به إلا عند الحاجة، وكثرة الحلف بالله تدل على عدم احترام اسمه، والاستهانة بالحلف به، وهذا نقصٌ في التوحيد.

الوجه الثاني: هو أن المكثر من الحلف غالبًا ما يقع في الحنث.

قولـه: «وقول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ ذكر غير واحد من المفسرين عن ابن عباس –بلا سند–: يريد لا تحلفوا. وهذا هو الشاهد من الآية للترجمة.

قال في [فتح المجيد]: وهو المعنى الذي أراد المصنف من الآية.

وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا.

وقال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير.اهـ.

لأنه يلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث، مع ما في ذلك من الاستخفاف بعظمة الله، وهذا مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه. قاله في [فتح المجيد].

وفيه: الوصية بحفظ الأيمان. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وعن أبي هريرة: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه». أخرجه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

قوله: «الحلف منفقة للسلعة» أي مظنة لنفاقها ورواجها عند المشتري، فإذا حلف أنه أعطى بها كذا أو أنه اشتراها بكذا ظنه صادقاً فيأخذها بزيادة على ما ذكره.

وقوله: «ممحقة للكسب» أي مظنة لمحق الكسب، فإنه يحلف بالله كاذباً قد عصى الله فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب. قاله في [فتح المجيد].

وفيه: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب. قاله المصنف.

قوله: «وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل اللهَ بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه». ورواه الطبراني بسند صحيح».

أخرجه الطبراني في الكبير رقم (٦١١١)، وفي الصغير (٢/ ٢١)، وفي الأوسط (١٦٦- مجمع البحرين)، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم (٣٠٧٢).

سلمان هو الفارسي أبوعبدالله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه أبوعثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه.

قولـه: «إن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله» هذا وعيد شديد في حقهم، ونفيُ كلامه تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه ويكلمونه في عرصات القيامة، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه.

وفيه: الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة الكلام. قال في [فتح المجيد]: «والذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً، ولم يزل متصفاً به. فهو حادث الآحاد، قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث، وغيرهم من أصحاب الشافعي، وأحمد، وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال، والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً. وذلك في القرآن كثير». انتهى.

قولـه: «ولا يزكيهم» أي لا يطهرهم «ولهم عذاب أليم» لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعُوقبوا بهذه الثلاث التي هي من أعظم العقوبات.

قولـه: «أشيمط زان» صغره تحقيراً له، والأشمط الذي قد اختلط شعره الأبيض بالأسود؛ لأن داعي المعصية قد ضعف في حقه فدل على أن الحامل له على الزنا محبته المعصية والفجور وعدم خشية الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

قولـه: «وعائل مستكبر» أي فقير؛ لأنه لا داعي له إلى الكبر، فإن الكبر إنما يحمل عليه في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة، فاستكباره مع عدم الداعي يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه. وفيه: أن الذنب يعظم مع قلة الداعي. قاله المصنف.

قوله: «ورجلٌ جعل اللهَ بضاعته» بنصب الاسم الشريف، أي جعل الحلف بالله بضاعته، يحلف في كل حق وباطل. وسماه بضاعة له لملازمته له، وغلبته عليه، وهذا الشاهد من الحديث للترجمة.

وكل هذه الأعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة بحسب ما قام بقلبه، وظهر على لسانه وعمله، من تلك المعاصي العظيمة مع قلة الداعي إليها.

قال المناوي في التيسير: وإن كان صادقا لاستهانته باسم الله تعالى ووضعه في غير محله.

وقال الصنعاني في التنوير شرح الجامع الصغير: (ورجل جعل الله بضاعته) بفتح الاسمين مفعولا جعل وفاعله ضمير الرجل لما كان: (لا يشتري إلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه) فكأنه جعل ربه نفس بضاعته وفيه من تهجين حاله ما لا يخفى كأنه ما شرى إلا ربه وما باع إلا خالقه ويأتي فيه ما سلف من أنه صار الحلف له صفة ذاتية حيث يقسم في كل محل احتاج إليه فيه أو لا. انتهى.

وفيه: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. قاله المصنف -رحمه الله-.

والظاهر أن المراد به ما في الأحاديث الأخرى: وهو المنفق سلعته بالحلف الكاذب، فيحمل الحديث على حديث أبي ذر في صحيح مسلم، والله أعلم.

قوله: «وفي الصحيح» أي صحيح مسلم عن عمران بن حُصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكَرَ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، «ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السَّمَنُ». وأخرجه البخاري وأبوداود والترمذي.

أخرجه البخاري (٢٦٥١) و(٣٦٥٠) و(٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥).

قولـه: «قال رسول الله: «خير أمتي قرني» ولفظ البخاري: «خيركم قرني»».

قال في [النهاية] [٤/ ٤٥]: «والقرن أهل كل زمان، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان مأخوذ من الاقتران، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم». وقيل القرن أربعون سنة، وقيل ثمانون، وقيل مائة سنة، وقيل هو مطلق من الزمان، بدأ ﷺ بقرنه لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة، ولذا لم يعرف فيهم - ولله الحمد - من تعمد الكذب على النبي ﷺ، كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدعة الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة. قال الشافعي -رَحِمَهُ اللَّهُ-: «وقد أثنى الله على الصحابة في القرآن والتوراة والإنجيل وسبق لهم من الفضل على لسان نبيهم ما ليس لأحد بعدهم».

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

وقال ابن مسعود: إن الله نظر في قلوب عباده فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، ثم نظر في قلوب الناس بعده فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته، وجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه.

وقال ابن الحاج في [المدخل]: «فالقرن الأول خصهم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بخصوصيته لا سبيل لأحد أن يلحق غبار أحدهم فضلاً عن عمله؛ لأن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قد خصَّهم برؤية نبيه - ﷺ - ومشاهدته ونزول القرآن عليه غضاً طرياً يتلقونه من فِيِّ النبي ﷺ حين يتلقاه من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصَّهم بالقتال بين يدي نبيه ونصرته وحمايته.

وإذلال الكفر وإخماده، ورفع منار الإسلام وإعلائه، وحفظهم القرآن الذي كان ينزل نجوماً فأهّلهم الله لحفظه حتى لم يضيع منه حرف واحد، فجمعوه ويسَّروه لمن بعدهم وفتحو البلاد والأقاليم للمسلمين ومهدوها لهم، وحفظوا أحاديث نبيهم -ﷺ- في صدورهم وأثبتوها على ما ينبغي من عدم اللحن واللغط والسهو والغفلة، فوضعهم في الحفظ والضبط لا يمكن الإحاطة به ولا يصل إليه أحد، فجزاهم الله عن أمة نبيه خيراً، لقد أخلصوا لله الدعوة، وذبُّوا عن دينه بالحُجَّة». انتهى ملخصاً.

قوله: «ثم الذين يلونهم» أي قرن التابعين، فُضِّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه، وما ظهر فيهم من البدع أُنكر وأُزيل كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فيه فأهلها في غاية الذل والهوان والقتل لمن عاند منهم ولم يتبْ.

قوله: «ثم الذين يلونهم» فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً». هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين، قال القرطبي: «ما شك فيه عمران تحقيقه في حديث ابن مسعود حيث ذكر بعد قرنه ثلاثاً». انتهى. والمشهور في الروايات أن القرون المفضلة ثلاثة، والثالث دون الأولين في الفضل لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون والإسلام فيه ظاهر والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما يقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء. وفيه: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم. قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحرِّيهم الصدق لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

ولا يشكل عليه حديث رواه مسلم [١٧١٩] عن زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسئلها».

قال النووي في [شرح مسلم(١٢/١٧)] وفي المراد بهذا الحديث تأويلان أصحهما وأشهرهما: تأويل مالك وأصحاب الشافعي أنه محمول على من عنده شهادة لإنسان بحق ولا يعلم ذلك الإنسان أنه شاهد فيأتي إليه فيخبره بأنه شاهد له والثاني أنه محمول على شهادة الحسبة وذلك في غير حقوق الآدميين المختصة بهم فمما تقبل فيه شهادة الحسبة: الطلاق والعتق والوقف والوصايا العامة والحدود ونحو ذلك فمن علم شيئا من هذا النوع وجب عليه رفعه إلى القاضي وإعلامه به والشهادة ...وحكي تأويل ثالث أنه محمول على المجاز والمبالغة في أداء الشهادة بعد طلبها لا قبله كما يقال الجواد يعطي قبل السؤال أي يعطي سريعًا عقب السؤال من غير توقف. قال العلماء: وليس في هذا الحديث مناقضة للحديث الآخر في ذم من يأتي بالشهادة قبل أن يستشهد في قوله ﷺ «يشهدون ولا يستشهدون» وقد تأول العلماء هذا تأويلات أصحها تأويل أصحابنا أنه محمول على من معه شهادة لآدمي عالم بها فيأتي فيشهد بها قبل أن تطلب منه.

والثاني: أنه محمول على شاهد الزور فيشهد بما لا أصل له ولم يستشهد.

والثالث: أنه محمول على من ينتصب شاهدًا وليس هو من أهل الشهادة.

والرابع: أنه محمول على من يشهد لقوم بالجنة أو بالنار من غير توقف وهذا ضعيف. والله أعلم . انتهى.

قولـه: «ويخونون ولا يُؤتمنون» أي لخيانتهم الظاهرة بحيث لا يُعتمد عليهم. قاله في [إبطال التنديد].

قوله: «وينذرون ولا يُوفون» لا يعارض حديث النهي عن النذر، وإنما هو تأكيد لأمره وتحذير من التهاون به بعد إيجابه. قاله في [إبطال التنديد] .

قوله: «ويظهر فيهم السِّمن» أي يحبون التوسع في المآكل والمشارب وهي أسباب السمن. قاله في [إبطال التنديد].

قوله: «وفيه» أي صحيح مسلم «عن ابن مسعود ﵁ أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»».

أخرجه البخاري (٢٦٥٢) و(٣٦٥١) و(٦٤٥١) و(٦٤٢٩) و(٦٦٥٨).

إشارة إلى التسارع في الشهادة واليمين، وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد فخف أمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداءً لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا عَلَم من أعلام النبوة، فإنه قد وجد ذلك كما أخبر النبي ﷺ.

قوله: «وقال إبراهيم» هو ابن يزيد النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار». **قوله**: «كانوا» الظاهر أن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود كما هي عادة إبراهيم في النقل عنهم. قاله في [إبطال التنديد]. قلت: ولا وجه لتخصيص كلام إبراهيم بأصحاب عبدالله بن مسعود بل كان هذا حال السلف في تربية أولادهم؛ لأنهم إذا اعتادوا ذلك في حال الصغر أدى ذلك إلى التساهل في ذلك في حال الكبر، وكانت هذه حالة السلف الصالح محافظة على أولادهم لا يتركون شيئاً مما يكره إلا أنكروه على الصغار وأدّبوهم عليه. وفيه: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد. قاله المصنف –رحمه الله–.

باب(٦٣) ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

قوله: «باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ» أي من الأدلة على وجوب الوفاء بها وإتمامها إذا عُقدت لأحد، والذمة: العهد.

قال السعدي: مقصود الترجمة: البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها، بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله. فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله، وارتكابًا لأكبر المفسدتين كما نبه عليه ﷺ.

وفي ذلك أيضا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أن نقض العهود نقص في التوحيد.

«ونكث العهد دليل على عدم تعظيم الله، فهو قادح في التوحيد» قاله في [إبطال التنديد].

قال في التمهيد: ومناسبة الباب للباب الذي قبله: أن الباب الذي قبله وهو (باب ما جاء في كثرة الحلف) متعلق بتعظيم الله ﷻ حين التعامل مع الناس، و (باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه) متعلق بالتعامل مع الناس في الحالات العسرة الصعبة، وهي حال الجهاد، فنبه بذلك على أن تعظيم الرب ﷻ يجب أن يكون في التعامل ولو في أعصب الحالات، وهي الجهاد، فإن العبد يكون موقرًا لله تعالى مُجِلًّا له، معظِّمًا لأسمائه وصفاته، ومن ذاك أن يعظم ذمة الله وذمة نبيه.

قوله: «وقول الله تعالى ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الآية».

قال ابن كثير [التفسير](٤/٥١٦): «وهذا مما أمر الله به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. وهذه الأيمان المراد بها الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق لا الأيمان الواردة على حث أو منع».

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ تهديد ووعيد على نقض الإيمان.

قوله: «عن بريدة» هو ابن الحصيب - بمهملتين مصغر - أبوسهل الأسلمى، صحابي أسلم قبل بدر، مات سنة ثلاث وستين. قاله في [التقريب].

وهذا من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في [المفهم].

«قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله».

قال الحربي: السرية الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، والجيش ما كان أكثر من ذلك، وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته بأن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

قوله: «ومن معه من المسلمين خيراً» أي وأوصاه بمن معه من جنود المسلمين أن يفعل معهم خيراً من الرفق بهم والإحسان إليهم وخفض الجناح لهم وترك التعاظم عليهم.

قوله: «فقال اغزوا باسم الله» الباء هنا للاستعانة، أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له متوكلين عليه.

وفيه: قوله: اغزوا بسم الله «في سبيل الله» قاله المصنف -رحمه الله-.

وقوله: «قاتلوا من كفر بالله» بيان لعلة القتال وهي الكفر. قاله المصنف.

وفيه: الرد على من زعم أن علة القتال المقاتلة. وهذا العموم شامل لجميع أهل الكفر المحاربين وغيره، وقد خصّ من هذا العموم من له عهد والرهبان والنساء ومن لم يبلغ الحلم، ومن أعطى الجزية من أهل الكتاب والمجوس.

قوله: «اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا» الغلول: الأخذ من الغنيمة قبل أن تُقسم، والغدر: نقض العهد، والتمثيل: التشويه بالقتيل كجدع أنفه وقطع أذنه ومذاكيره وشق بطنه، وما أشبه ذلك، ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر وكراهة التمثيل.

قوله: «وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال -» شكٌّ من الراوي، ومعناهما واحد.

قوله: «فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم» أي فأي تلك الخصال قبلوه منك فاقبله منهم، وكف عن قتالهم.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم، ثم ادعهم بزيادة «ثم»، والصواب إسقاطها كما روى أبوداود في سننه، وأبوعبيد في كتاب «الأموال»، وقال المازري: ليست «ثم» زائدة بل دخلت لاستفتاح الكلام.

قوله: «فإن هم أجابوك فاقبل منهم ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين» يعني المدينة، وذلك مستحب إذا أسلموا أو واجب في أول الأمر على من أسلم، أو على أهل مكة خاصة من أسلم منهم قبل الفتح، وأما بعد الفتح فقال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونية». قاله في [إبطال التنديد].

قال في [قرة العيون]: «حديث «لا هجرة بعد الفتح» يعني من مكة؛ لأنها صارت دار إسلام، وهذا لا ينفي وجوب الهجرة من بلاد الشرك والكفر، وكذا إذا ظهرت المعاصي في بلدة، نصَّ عليها الفقهاء في كتبهم». انتهى.

قولـه: «وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك» أي تحولوا إلى دار المهاجرين فلهم ما للمهاجرين أي من الاستحقاق في الفيء والغنيمة «وعليهم ما على المهاجرين» وإلا فهم كسائر أعراب المسلمين المقيمين في البادية من غير هجرة ولا غزو، وتجري عليهم أحكام الإسلام ولا حق لهم في الغنيمة والفيء، وإنما يكون لهم نصيب من الزكاة إذا كانوا مستحقين.

قولـه: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية» فيه حجة لمالك والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره. وهذا الراجح ورجحه ابن القيم.

وذهب أبو حنيفة إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا مشركي العرب ومجوسهم.

وقال الشافعي: لا تُؤخذ إلا من أهل الكتاب عرباً كانوا أو عجماً. وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتُؤخذ من المجوس لأن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر.

قولـه: «فإن هم أجابوك» يعني إلى إعطاء الجزية «فاقبل» الجزية منهم «وكف عنهم فإن هم أبوا» أن يعطوا الجزية «فاستعن بالله وقاتلهم» وفيه الاستعانة بالله وقتالهم عند امتناعهم من أداء الجزية.

قولـه: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه» والذمة العهد «فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تُخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه».

قولـه: «تخفروا» أي تنقضوا، قال في [في النهاية] أخفرت الرجل إذا نقضت عهده وذمامه. قال في [إبطال التنديد]: وهذا نهي تنزيه،أي لا تجعل لهم ذمة الله فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها كبعض الأعراب وسواد الجيش، فكأنه يقول: إن وقع نقض عهد من متعد أو جاهل كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الخالق تعالى.

قولـه: «وإذا حاصرتَ أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم عليحكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا» رواه مسلم.

فيه: دليل على أنه ليس كل مجتهد مصيب، بل المصيب واحد، وهو الموافق لحكم الله في نفس الأمر، ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نصَّ على أن لله تعالى حكماً معيناً في المجتهدات، فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطئ. قاله في [فتح المجيد].

وفيه: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين، والإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً، والفرق بين حكم الله وحكم العلماء، وكون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا. قاله المصنف.

باب(٦٤) ما جاء في الإقسام على الله

قوله: «باب ما جاء في الإقسام على الله»

مقصود الترجمة: بيان ما جاء من الأدلة على تحريم الإقسام على الله.

والإقسام على الله هو التألِّي عليه، والإليَّة - بالتشديد - هو الحلف. قال في [النهاية][١/ ٦٤]: «يُقال تألَّى يتألَّى تأليّاً، والاسم الإليَّة».

والمراد به الحلف على الله الذي يكون على جهة الحَجْر على الله، والتألِّي عليه، وذلك بالقطع بحصول المقسم على حصوله.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أَنَّ الإقسام على الله إذا كان على وجه الحجر على الله، والتألِّي عليه: فهو من سوء الأدب مع الله تعالى، وسوء الظن به، والتنقص لحقه تعالى، والتحجير لفضله، وهذا كله منافٍ لكمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد. ووجه ارتباط الباب بما قبله: أنها كلها تتكلم عن تعظيم الحلف بالله تعالى، وتعظيم جناب الله تعالى في هذا الشأن.

والإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، هي: يمين، وألية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنى واحد.

قال العثيمين: والقسم على الله يأتي على أنواع:

الأول: أن يقسم على ما أخبر الله به ورسوله من نفي أو إثبات، فهذا لا بأس به، وهذا دليل على يقينه بما أخبر الله به ورسوله، مثل: والله، ليُشفِّعنَّ الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل: والله، لا يغفر الله لمن أشرك به.

الثاني: أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي - ﷺ - ذلك في قصة الرُّبَيِّع بنت النضر.

القسم الثالث: أن يكون الحامل له هو الإعجاب بالنفس، وتحجُّر فضل الله -عَزَّوَجَلَّ- وسوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك أن يحبط الله عمل هذا المقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله.

قوله: «عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله - ، -: مَنْ ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك» رواه مسلم»(٢٦٢١).

وعلاقة الحديث بكتاب التوحيد أنه دل على تحريم الإقسام على الله على وجه الحجر على الله والإعجاب بالنفس؛ لأن في ذلك هضما لحقوق الربوبية والإلهية، وذلك مناف للتوحيد.

قوله: «من ذا الذي يتألَّى عليَّ؟» استفهام على جهة الاستنكار والوعيد؛ لأن هذا يقتضي الحكم على الله بعدم المغفرة لفلان، وهذا جهل وسوء أدب.

وأما إذا أقسم العبد على ربه في أمر من الأمور بناءً على حسن الظن به سبحانه في إبرار قسمه فليس من ذلك، كما ثبت في الصحيح أن أنس بن النضر قال للنبي ﷺ: والذي بعثك بالحق لا تُكسر ثنية الرُّبيِّع. فقال النبي ﷺ: «يا أنس، كتاب الله القصاص».

فعفا القوم. فقال النبي ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه».

أي لأبرَّ قسمه ولم يحنث. وفي الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه». أخرجه البخاري (٢٨٠٦) و(٤٥٠٠) و(٤٦١١)،ومسلم (١٦٧٥).

قولـه: «وفي حديث أبي هريرة أن القائل: رجلٌ عابد. قال أبوهريرة: تكلَّم بكلمةٍ أوبقت دنياه وآخرته».أخرجه مسلم (٢٦٢٢) و(٢٨٥٤).

وفي هذا بيان خطر اللسان، وفي حديث معاذ: قلت: يا رسول الله: وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أُمُّك يا معاذ، وهل يُكب الناس في النار على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم».

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح.

أخرجه الترمذي (٢٧٦٢) وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه (٣٩٧٣). وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح الترمذي (٢/ ٣٢٩).

وفيه: التحذير من التألِّي على الله، وكون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعلـه، وأن الجنة مثل ذلك. وفيه: شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة.. » إلخ، وأن الرجل قد يُغفر له بسبب هومن أكره الأمور إليه. قاله المصنف -رحمه الله-.

باب (٦٥) لا يُستشفع باللّه على خلقه

قوله: «باب لا يُستشفع بالله على خلقه»

مقصود الترجمة: بيان النهي عن الاستشفاع بالله على خلقه.

والاستشفاع بالله: طلب الشفاعة به في حصول الشيء، أي جعله واسطة في ذلك، وهذا لا يليق بجلال الله سبحانه لأنه الكبير المتعال الذي لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فكيف يُستشفع به عند أحد من خلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فهذا تنقصٌ لحق الربوبية.

وعلاقة الباب ومناسبته لما قبله: أن الإقسام على الله على جهة التألي والاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه من بابٍ واحدٍ وهو سوء الأدب مع الله، وسوء الظن به، والاستنقاص لمقام الربوبية.

قوله: «عن جبير بن مطعم» بن عدي بن نوفل بن عبد مناف القرشي، يُكنى أبا محمد، كان من أكابر قريش وعلماء النسب، أسلم قبل الفتح، ومات في خلافة معاوية بالمدينة سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين رضي الله عنه.

قال: «جاء أعرابي» واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء؛ لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس -أي جهدت-.

وجاع العيال، وهلكت الأموال فاستسق لنا ربك». والاستسقاء طلب السقيا

«فإنا نستشفع بالله عليك» أي نطلب الشفاعة به في حصول المطر.

«وبك على الله». فقال النبي ﷺ: «سبحان الله، سبحان الله» فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه».

أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٢/ ٢٢٤)، وأبوداود (٤٧٢٦).

وضعَّفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٠١٧).

وفي الإسناد مجهول حال، وعنعنة ابن إسحاق، وقد يحتملان، ومعناه صحيح.

ولذا قال شيخ الإسلام [الفتاوى (١٦/ ٤٣٤)]: والحديث قد رواه علماء السنة، كأحمد، وأبي داود، وغيرهما؛ وليس فيه إلّا ما له شاهد من رواية أخرى.

بل قال ابن منده: إسناده صحيح متصل من رسم أبي عيسى والنسائي.

وحسنه ابن القيم في حاشيته على السنن (١٣/ ١٢) ورد على قول المضعفين.

قال شيخ الإسلام: «وهذا يبيّن أن معنى الاستشفاع بالشخص في كلام النبي ﷺ وأصحابه هو الاستشفاع بدعائه وشفاعته ليس هو السؤال بذاته، فإنه لو كان هذا السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق، ولكن لما كان معناه هو الأول أنكر النبي ﷺ قوله: «نستشفع بالله عليك» ولم ينكر قوله: «نستشفع بك على الله»؛ لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضي حاجة الطالب، والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضي حوائج خلقه». انتهى.

قوله: «ثم قال النبي ﷺ: «ويحك» كلمة تُقال للزجر، كذا في [قرة العيون].

وأما في [النهاية] [٥/ ٢٠٤]: «ويح: كلمة ترحُّم وتوجّع تُقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها».

وقوله: «أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك»

هذا استنكار من النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى جهل هذا الأعرابي وقلة علمه بعظمة الله وجلاله.

وقوله: «إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه» أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعا إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، لأن الأمر كله بيده تعالى ليس في يد المخلوق منه شيء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، تعالى وتقدَّس.

والخلاصة: تحريم الاستشفاع بالله على خلقه؛ لأنه تنقص لمقام الربوبية.

قوله: «وذكر الحديث، رواه أبوداود» في السنن بتمامه، لكن المصنف اقتصر منه على الشاهد للترجمة. قال الحافظ الذهبي: رواه أبوداود بإسناد حسن عنده في [الرد على الجهمية] من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

وفي هذا الحديث إثبات علو الله على خلقه وأن عرشه فوق سماواته.

وفيه: تفسير الاستواء بالعلو، كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته. قاله في [الشرح].

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فإنما المراد الاستشفاع بدعائه ﷺ وليس هذا خاصاً بالنبي ﷺ بل كل حي صالح يُرجى أن يُستجاب له لا بأس أن يُطلب منه الدعاء. وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له في الصلاة على جنازته وعلى قبره عند زيارته.

وفيه: إنكاره ﷺ على من قال «نستشفع بالله عليك» وتغيُّره تغيّراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وأنه لم يُنكر عليه قولـه «نستشفع بك على الله».

والتنبيه على تفسير «سبحان الله»: يعني: تنزيهًا، وتعظيمًا لله، وإبعادًا لله عن كل وصف سوء أو شائبة نقص، وعن كل ظن سوء به -عَزَّ وَجَلَّ-.

قاله المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ- عدا التفسير وهو ما بعد يعني.

باب (٦٦) ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرقَ الشرك

قوله: «باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرقَ الشرك»:

مقصود الترجمة: بيان مدى حماية النبي -ﷺ- لِحِمَى التوحيد عَمَّا يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وسده لذرائع الشرك.

ومناسبة الباب للأبواب قبله: أنه قد سبق بابٌ مشابهٌ لهذا الباب وهو (باب ما جاء في حماية المصطفى -ﷺ- جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)، فما الفرق بين البابين؟ الفرق بين البابين يتضح من وجهين:

الوجه الأول: أَنَّ الباب السابق المتقدم يتعلق بحماية التوحيد من جهة الأفعال، وهذا من جهة الأقوال.

الوجه الثاني: أَنَّ المؤلف عبَّر في الباب السالف بـ (جناب التوحيد)، وهنا بـ (حمى التوحيد) وفرقٌ بين الجناب والحمى؛ لأن الجناب بعض الشيء، والحمى حول الشيء، ففي الباب الآنف أراد المصنف بيان حماية النبي -ﷺ- للتوحيد نفسه من أن يقع فيه شركٌ. وهنا أراد بيان حماية النبي -ﷺ- لحمى التوحيد: أي الأشياء التي هي حول التوحيد، وذلك بعد حمايته للتوحيد.

قوله: «عن عبدالله بن الشِّخِّير» - بكسر الشين وتشديد الخاء المعجمتين - ابن عوف بن كعب بن عامر الحريشي - بفتح المهملة وكسر الراء وآخره معجمة - العامري ثم الحريشي، صحابي من مسلمة الفتح رضي الله عنه:

«قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد اللهُ ﷻ». قلنا: وأفضلُنا فضلاً، وأعظمُنا طَوْلاً. فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان». رواه أبوداود بسند جيد». أخرجه أبوداود (٤٨٠٦)، والنسائي (٢٤٨) وغيرهما. وهو صحيح. صححه الألباني والوادعي.

وفي هذا الحديث نهى عن أن يقولوا أنت سيدنا، وماذكر بعده في الحديث.

قولـه: «السيد الله» قال الخطابي: «يريد ﷺ السؤدد حقيقة لله –ﷻ–، وأن الخلق كلهم عبيد له، فعلَّمهم الثناء عليه ﷺ ، وأرشدهم إلى الأدب في ذلك، وقال ﷺ: «قولوا بقولكم» يريد قولوا بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبياً ورسولاً .

وقولـه: «أو بعض قولكم» فيه حذف واختصار ومعناه: دعوا بعض قولكم واتركوه، يريد بذلك الاقتصار في المقال.

وقولـه: ﷺ: «لا يستجرينكم الشيطان» معناه: لا يتخذكم جرياً، والجري: الوكيل. ويقال: الأجير. انتهى كلام الخطابي باختصار.

وفي [النهاية] [١/ ٢٥٥-٢٥٦]: «ولا يستجرينكم الشيطان» أي: لا يستغلبنكم فيتخذكم جريًّا، أي رسولاً ووكيلاً، وذلك أنهم كانوا مدحوه فكره لهم المبالغة في المدح فنهاهم عنه، يريد: تكلموا بما يحضركم من القول ولا تكلفوا كأنكم وكلاء الشيطان ورسله تنطقون عن لسانه. انتهى.

قولـه:«وعن أنس ﷺ أن أناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا: فقال:«يا أيها الناس، قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا:محمد عبدالله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله –ﷻ–»».

رواه النسائي بسند جيد». أخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٢٤٨، ٢٤٩) والترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وصححه الألباني والوادعي.

قال في [إبطال التنديد] ص ٣١٦: «وهذان الحديثان دليل على الأدب مع الله -عَزَّ وَجَلَّ- وقولـه: «أنا سيد ولد آدم» وشبهه دليل على الجواز».

قال ابن القيم -رَحِمَهُ اللَّهُ- [بدائع الفوائد ٣/ ٢١٣]: «اختلف العلماء في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونُـقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له «أنت سيدنا» قال: «السيد الله»،وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار:«قوموا إلى سيدكم».أخرجه أحمد (٦/ ١٤١-١٤٢)،وابن ماجه (٦٩٨٩)، وصححه الألباني في [الصحيحة] برقم (٦٧).... والسيد إذا أُطلق عليه تعالى فهو بمنزلة المالك والمولَى والرب لا بمعنى الذي يُطلق على المخلوق». انتهى.

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «جرى شُرَّاح هذا الحديث على أن النبي -ﷺ- نهاهم عن قول سيدنا، فحاولوا الجمع بين هذا الحديث وبين قوله -ﷺ-: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»، وقوله: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»، وقوله في الرقيق: «وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ» بواحد من ثلاثة أوجه:

الأول: أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز.

الثاني: أن النهي حيث يخشى منه المفسدة، وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور.

الثالث: أن النهي في الخطاب، أي: أن تخاطب الغير بقولك: أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب؛ لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئًا آخر، وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»، أو على سبيل الغيبة، كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته -ﷺ- للرقيق أن يقول لمالكه: سيدي.

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلًا؛ لأن النبي -ﷺ- أذن لهم أن يقولوا بقولهم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان بالغلو مثل (السيد)؛ لأن السيد المطلق هو الله تعالى، وعلى هذا فيجوز أن يقال: سيدنا وسيد بني فلان ونحوه.

قوله: «أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ»: «أرشدهم أن يصفوه بصفتين هما أعلى مراتب العبودية، وقد وصفه الله بهما في مواضع من كتابه». وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول -ﷺ-، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات.

فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه،.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[الفرقان: ١].

ووصفه بها في مقام الإسراء.

قال تعالى: {﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١].

ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: {﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي.

قال تعالى: {﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وهذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع العبودية الخاصة.

«وقد تطرف في الرسول -ﷺ- طائفتان:

- طائفة غلت فيه حتى عبدته، وأعدته للسراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله، وهم غلاة الرافضة، والمتصوفة.

- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كذاب، ساحر، شاعر، مجنون، كاهن، ونحو ذلك، وهم المشركون، والمنافقون. وفي قوله: (عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ) رد على الطائفتين» .

قوله: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ»: هذا بيان الحكمة في منعه -ﷺ-؛ أنه خشي عليهم في مدحهم له أن يرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله، وهي العبودية والرسالة، لئلا يعتقدوا فيه جانب الربوبية، كما حصل للنصارى في حق عيسى .

قال الشيخ ابن باز: «والمقصود من هذا سد الذرائع التي يأتي بها الناس الآن من الغلو؛ فقد يجرهم إلى أن يعبدوه من دون الله ويدعوه ويستغيثوا به ويزعموا أنه يعلم الغيب وغير ذلك» . والخلاصة: «أنه -ﷺ- نهى أن يُمدح بغير ما وصفه الله به؛ صيانةً للتوحيد، وسدًّا لباب الغلو المُفضي إلى الشرك».

باب (٦٧) ما جاء في قول الله تعالى

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾

قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]. أي: من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أراد المصنف -رحمه الله- أن يختم كتابه بهذا الباب المشتمل على النصوص الدالة على عظمة الله، وخضوع المخلوقات له؛ مما يدل على أنه هو المستحق للعبادة وحده، وأن له صفات الكمال ونعوت الجلال.

مناسبة الآية للباب وللتوحيد:

حيث دلت الآية على وجوب تعظيم الله حق تعظيمه.

مقصود الترجمة:

بيان أن الناس مِن ظلمهم وجهلهم ما قدروا الله حق قدره الذي هو أهله ويستحقه، بل إنهم فعلوا به تعالى نقيض ما هو لازم عليهم، عقلًا، ونقلًا.

قال ابن كثير -رحمه الله- [التفسير] ٧/ ١٠٣]: يقول تعالى: ما قدر المشركون اللهَ حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. وقال السدي: ما عظّموه حق عظمته. وقال ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن

أن الله على كل شيء قدير فقد قدَّر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدِّر الله حق قدره.

قوله: «عن ابن مسعود –رضي الله عنه– قال: جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجدُ أنَّ اللهَ يجعلُ السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلقِ على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذُه تصديقاً لقول الحَبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية.

هذه رواية مسلم (٢٧٨٦).

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزُّهُنَّ فيقول: أنا الملك، أنا الله.

وفي رواية للبخاري: يجعل السموات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع. أخرجاه» البخاري ٤٨١١، ٧٤١٤، ٧٤١٥، ٧٤٥١، ٧٥١٣).

والرواية التي في الصحيحين: البخاري (٤٨١١) ومسلم (٢٧٨٦) بذكر خمس أصابع، وهو أكثر طرق الحديث. والرواية بذكر ست أصابع عند أحمد برقم(٤٣٦٨).

قوله: «جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ»: والحبر: -بفتح الحاء وكسرها- واحد أحبار اليهود، هو العالم بتحبير الكلام وتحسينه، وسمي حبرًا لما يبقى من أثر علومه في قلوب الناس، وآثار أفعاله الحسنة المقتدى بها.

قوله: «إصبع» واحدة الأصابع، وهي مثلثة الأول والثالث، ففيها تسع لغات، والعاشر أصبوع، وفي هذا يقول الناظم:

وهمز أنملة ثلث وثالثه ... التسع في إصبع واختم بأصبوع

قوله: «فيقول: أنا الملك» فملك الله تعالى متضمن لكمال السلطان والتدبير والملك، بخلاف غيره، فإن من ملوك الدنيا من يكون ملكًا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك.

قوله: «حتى بدت نواجذه» أي: ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس. وهذا الضحك من النبي ﷺ تقرير لقول الحبر، ولهذا قال ابن مسعود: «تصديقًا لقول الحبر».

ومن فوائد الحديث: إثبات الأصابع لله ﷻ لإقراره ﷺ هذا الحبر على ما قال. والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله -ﷻ-، من غير تشبيه أو تمثيل، وغير تأويل أو تعطيل.

قوله: «أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ »: الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟

والجبارون: جمع جبار، وهو المتعالي على الناس بالقهر والغلبة والظلم والبطش بغير حق. أما الجبار من أسمائه سبحانه، فمعناه: المتعالي بحق.

قوله: «أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ »: جمع متكبر، والمتكبر من الخلق هو: المتعالي، الذي يتعالى على الناس بالظلم والبطش، وكذلك يتعالى على الحق فلا يقبله. والمتكبر من أسماء الله الحسنى الكاملة يدل على العظمة والجلال والتنزه عن النقائص.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»» . أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

هذه الرواية في سندها عمر بن حمزة وهو ضعيف، وقد تفرد بذكر الشمال.

وفي جميع الروايات: «ثم يأخذهن بيده الأخرى». وهو يخالف ما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو: «كلتا يديه يمين». فلا توصف يد الله بالشمال، لضعف الرواية.

قوله: ورُويَ عن ابن عباس قال: «ما السمواتُ السبع والأرضون السبع في كفِّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

أخرجه ابن جرير (٢٠/ ٢٤٦) وإسناده صحيح.

قوله: «إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ»: هي حبة نبات صغيرة جدًّا، يضرب بها المثل في الصغر والقلة، وهذا يدل على عظمته سبحانه، وأنه سبحانه لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام.

وفيه: معرفة قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ .

وأن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها. وأن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدق، ونزل القرآن بتقرير ذلك، ووقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم، والتصريح بذكر اليدين وأن السموات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى....، وذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.وقوله: «كخردلة في كف أحدكم» قاله المصنف -رحمه الله-.

قوله: «وقال ابن جرير حدثني يونس أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في ترس».

رواه الطبري(٤/ ٥٣٩) وأبو الشيخ في "العظمة" ٢/ ٥٨٧ (٢٢٠) كلاهما من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه مرفوعًا.

وهو مرسل عن زيد بن أسلم، وعبد الرحمن ولده ضعيف.

قال ابن قاسم: (تُرْس) -بضم التاء- القاع المستدير المتسع الأطلس.

وقال العثيمين: شيء من جلد أو خشب أو فولاذ يحمل عند القتال يتقى به السيف والرمح ونحوهما.

قولـه: وقال: قال أبوذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش، إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض».

أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤/ ٥٣٩) من طريق عبد الله بن وهب، وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٨٧) من طريق أصبغ بن الفرج، كلاهما عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبي ذر، مرفوعًا وهو ضعيف.

للانقطاع فعبد الرحمن بن زيد من أتباع التابعين ولم يسمع أبا ذر. وعبد الرحمن هذا ضعيف.

قولـه: «بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»: الفلاة الصحراء الواسعة، أو المفازة لا ماء فيها، أو القفر.

وفيه: معرفة عِظَم الكرسي بالنسبة إلى السماء، وعظم العرش بالنسبة إلى الكرسي، وأن العرش غير الكرسي والماء. قاله المصنف -رحمه الله-.

قولـه: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم». أخرجه ابن مهدي عن حمّاد بن سلمة عن عاصم عن زِرّ عن عبدالله.

ورواه بنحوه المسعوديُّ عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله.

قاله الحافظ الذهبي -رَحِمَهُ اللَّهُ- . قال: وله طرق».

أخرجه ابن خزيمة (١٠٥-١٠٦، ٣٧٦-٣٧٧)، والدارمي في الرد على الجهمية (ص/ ٢٦، ٢٧) وفي النقض على بشر المريسي (ص/ ٧٣، ٩٠، ١٠٥).

والأثر حسن لأجل عاصم، وله حكم الرفع.

قوله: «واللهُ فَوْقَ العَرْشِ»: فيه إثبات علو الله تعالى على خلقه واستوائه على عرشه.

قال العثيمين: وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ) علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله.

ب) علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام، فيقولون: كل العلو الوارد المضاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله -عليه السلام-: «وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»، أي: في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته. ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ) من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب) من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف. ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»: يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتى بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفيه: معرفة كم بين كل سماء إلى سماء، وكم بين السماء السابعة والكرسي، وكم بين الكرسي والماء، وأن العرش فوق الماء، وأن الله فوق العرش. قاله المصنف.

قوله: «وعن العباس بن عبدالمطلب قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين كم بين السماء والأرض؟ » قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماءٍ إلى سماء مسيرةُ خمسمائة سنة، وكِثَفُ كل سماء مسيرةُ خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم». أخرجه أبوداود وغيره.

أخرجه أبوداود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وأحمد (١/ ٢٠٦، ٢٠٧) وغيرهم. وقد ضعفه بعض أهل العلم. والصواب أنه حسن. قال الترمذي: حسن غريب، وصححه ابن خزيمة والجورقاني، وقواه شيخ الإسلام وابن القيم وابن العربي.

وخلاصة دلالات الأحاديث السابقة:

١. أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام.

٢. أن ما بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام.

٣. أن كِثَف (غِلَظ) كل سماء خمسمائة عام.

٤. أن بين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام.

٥. أن بين الكرسي والماء خمسمائة عام.

٦. أن البحر الذي فوق السموات بين أسلفه وأعلاه خمسمائة عام.

٧. أن العرش فوق الماء.

٨. أن الله تعالى فوق العرش، وأنه تعالى مطلع على عباده، يعلم ما هم عاملون ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

وقال الشيخ ابن باز -رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: «فيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات وسعة ما بينها من المسافات العظيمة، وربك الخلاق عَزَّوَجَلَّ فهو أعظم منها وأكبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ».

وهذه الأحـــاديث التي ذكرها المصنف وما في معنـــاها تدل على عظمة الله وعظـــيم قدرته وعِظَم مخلوقاته، وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له في ربوبيـــته وإلهيته، وتدل أيضاً على إثبات الصفات التي وصف بها نفسه في كتابه أو وصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، وعلى هذا مضى سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان.

وصلى الله وسلَّم على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين المبعوث رحمة للعالمين
وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين
والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تمت الإضافات والمراجعة للطبع في ليلة العشرين من ربيع الأول لعام ١٤٤٤هـ.

وكتبه: أبو عبد العزيز تركي بن مسفر بن هادي بن مجلي العبديني.

الفهرس الموضوعي

مقدمة الشرح...٢
كتاب التوحيد...٥
باب (٢) فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب..............................١٩
باب (٣) من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب..............................٣٤
باب(٤) الخوف من الشرك...٤٦
بَاب (٥) الدعاء إلى شهادة أَن لا إله إلاَّ الله.................................٥٥
باب (٦) تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله.................................٧٠
باب (٧) من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما.................................٧٩
باب(٨) ما جاء في الرُّقى والتمائم...٨٤
باب (٩) من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما.................................٩١
باب (١٠) ما جاء في الذبح لغير الله.................................٩٨
باب (١١) لا يُذبح لله في مكان يُذبح فيه لغير الله.................................١٠٤
باب (١٢) من الشرك النذرُ لغير الله.................................١١٠
باب (١٣) من الشرك الاستعاذة بغير الله.................................١١٣
باب (١٤) من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره.........................١١٦
باب (١٥) قول الله تعالى:...١٢٣
باب (١٦) قول الله تعالى:...١٣٠
باب (١٧) الشفاعة...١٣٨
باب (١٨) قول الله تعالى:...١٤٥
باب (١٩) ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم.........................١٥٠

باب (٢٠) ما جاء من التغليظ فيمن عبدَ الله عند قبر رجل صالح ١٥٥
باب (٢١) ما جاء أن الغُلو في قبـور الصالحين يصيّرها أوثاناً تُعبد من دون الله ... ١٦٢
باب (٢٢) ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد........................ ١٦٨
باب (٢٣) ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ١٧٣
باب (٢٤) ما جاء في السحر ١٨٤
باب (٢٥) بيان شيء من أنواع السحر................................ ١٩٢
باب (٢٦) ما جاء في الكهان ونحوهم................................ ١٩٨
باب (٢٧) ما جاء في النُّشرة.. ٢٠٤
باب (٢٨) ما جاء في التطير....................................... ٢٠٧
باب (٢٩) ما جاء في التنجيم ٢١٩
باب (٣٠) ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ٢٢٤
باب (٣١) قول الله تعالى.. ٢٣٢
باب(٣٢) قول الله تعالى ٢٣٨
باب (٣٣)قول الله تعالى ٢٤٤
باب(٣٤) قول الله تعالى ٢٥٠
باب(٣٥) من الإيمان بالله الصبرُ على أقدار الله ٢٥٤
باب (٣٦) ما جاء في الرياء ٢٦١
باب (٣٧) من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا........................... ٢٦٥
باب (٣٨) من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله ٢٧١
باب (٣٩) قول الله تعالى:....................................... ٢٧٧
باب (٤٠) مَنْ جحد شيئاً من الأسماء والصفات............................ ٢٨٥
باب (٤١) قول الله تعالى.. ٢٩٠

باب (٤٢) قول الله تعالى ٢٩٣
باب (٤٣) ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ٢٩٦
باب (٤٤) قول: ما شاء الله وشئتَ ٢٩٧
باب (٤٥) من سب الدهر فقد آذى الله ٣٠١
باب(٤٦) التسمي بقاضي القضاة ونحوه ٣٠٥
باب (٤٧) احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك ٣٠٨
باب (٤٨) من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ٣١١
باب (٤٩) ما جاء في قول الله تعالى ٣١٥
باب (٥٠) قول الله تعالى ٣٢٠
باب (٥١) قول الله تعالى ٣٢٦
باب (٥٢) لا يقال السلام على الله ٣٣٠
باب (٥٣) قول: اللهم اغفر لي إن شئت ٣٣٢
باب (٥٤) لا يقول عبدي وأمتي ٣٣٤
باب (٥٥) لا يُرد من سأل بالله ٣٣٦
باب (٥٦) لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ٣٣٨
باب (٥٧) ما جاء في اللّو ٣٣٩
باب (٥٨) النهي عن سب الريح ٣٤٤
باب (٥٩) قول الله تعالى ٣٤٧
باب(٦٠) ما جاء في منكري القدر ٣٥١
باب(٦١) ما جاء في المصورين ٣٥٨
باب (٦٢) ما جاء في كثرة الحلف ٣٦٣
باب(٦٣) ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ٣٧١

باب(٦٤) ما جاء في الإقسام على الله ٣٧٦
باب (٦٥) لا يُستشفع بالله على خلقه ٣٧٩
باب (٦٦) ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد ٣٨٢
باب (٦٧) ما جاء في قول الله تعالى ٣٨٧
الفهرس الموضوعي ٣٩٥